



Wasit University
Repository

Wasit University Repository

repository.uowasit.edu.iq

الشعر والشعراء في مدينة شنترين (دراسة موضوعية فنية)

Poetry and Poets in the City of Santarém (A Thematic and Artistic Study)

جبار حسين جواد

إشراف: الأستاذ الدكتور رعد ناصر مايود الوائلي

جامعة واسط — 2026

<https://repository.uowasit.edu.iq/handle/123456789/286>

<https://doi.org/10.31185/uowasit-129>

حُمِّلَ هذا الملف من مستودع جامعة واسط

Downloaded from the Wasit University Repository — repository.uowasit.edu.iq



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة واسط
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية
الدراسات العليا/الماجستير

الشعر والشعراء في مدينة شنترين (دراسة موضوعية فنية)

رسالة تقدّم بها الطالب
حسين جواد جبار

إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية في جامعة واسط وهي جزء من متطلبات
نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

بإشراف
الأستاذ الدكتور
رعد ناصر مايود الوائلي

2026م

1448هـ

الايه القرانية

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ
وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي
فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

صدق الله العظيم

[الأحقاف الآية: 15]

إقرار المشرف

أُقر ان إعداد هذه الرسالة الموسومة بـ ((الشعر والشعراء في مدينة شنترين (دراسة موضوعية فنية))) التي تقدم بها الطالب (حسين جواد جبار) قد أنجزت بإشرافي في جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الإنسانية، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها/ فرع أدب، ومن أجله وقعت.



الاسم: أ.د. رعد ناصر مايود الوائلي

٢٠٢٦/ /

بناءً على التوصيات المتوفرة، أرشح هذه الرسالة للمناقشة

التوقيع:

الاسم: أ.د. نهلة عبد الله خلف

رئيس قسم اللغة العربية

٢٠٢٦//

إقرار المقوم اللغويّ

أقرّاني قد قرأت هذه الرسالة الموسومة بـ ((الشعر والشعراء في مدينة شنترين (دراسة موضوعية فنية))) التي تقدم به الطالب (حسين جواد بهية) إلى كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة واسط، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها/ فرع أدب، وقد وجدتُها صالحة للمناقشة لغويا.

التوقيع:

الاسم:

2026/ /

إقرار المقوم العلميّ

أقرّ بأني قد صحّحت الرسالة الموسومة بـ((الشعر والشعراء في مدينة شنترين (دراسة موضوعية فنية)) التي تقدم بها الطالب (حسين جواد بهية) إلى كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة واسط، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في علم اللغة العربية وآدابها/ ادب، ووجدتها صالحة من الناحية العلمية.

التوقيع:

الاسم:

2026/ /

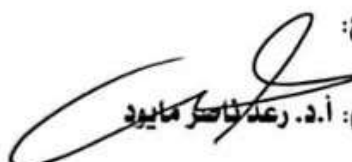
إقرار لجنة المناقشة

نحن أعضاء لجنة المناقشة اطلعنا على الرسالة الموسومة بـ(الشعر والشعراء في مدينة شنترين) دراسة موضوعية فنية)) التي تقدم بها الطالب (حسين بهية)، وقد ناقشنا في محتوياتها، وفيما له علاقة بها، وقد وجدنا انها مستوفية لمتطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية/أدب، وعليه نقرّ بقبول الرسالة بتقدير () .

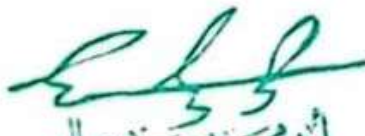
التوقيع: 
الاسم: أ.د. جنان قحطان فرحان

عضواً

التاريخ: ٢٠٢٦ / ٩ / ٦

التوقيع: 
الاسم: أ.د. رعد ناصر مايود
عضواً ومشرفاً

التاريخ: ٢٠٢٦ / ٩ / ٦

التوقيع: 
أ.د. أحمد حمود عراك

الاسم: أ.د. محمود حمود عراك

عميد كلية التربية للعلوم الإنسانية

٢٠٢٦ / ١٠ / ١٩

التوقيع: 
الاسم: أ.د. سعاد بديع مطير
رئيساً

التاريخ: ٢٠٢٦ / ٩ / ٦

التوقيع: 
الاسم: أ.م.د. هديل علي كاظم
عضواً

التاريخ: ٢٠٢٦ / ٩ / ٦

الاهداء

إلى...

🕯 ما قدّمت من صبرٍ جميل، ودعمٍ صادق، ومساندةٍ لا تنقطع طوال رحلة إعداد هذه الرسالة. كنتِ السند في لحظات التعب، والنور في أوقات التحدي، وبكِ كان للاستمرار معنى، وللإنجاز قيمة زوجتي الغالية

🕯 لم يكن دعمه المستمر وحرصه على الدقة والتميز مجرد اشراف أكاديمي فحسب , بل كان مصدر الهام ودافعاً إلى المثابرة والاجتهاد .
... الأستاذ الدكتور رعد ناصر مايود الوائلي

أسأل الله أن يجزيكم عني خير الجزاء، وأن يديم عطاؤكم العلمي، وينفع بعلمكم.

الباحث

الشكر والامتنان

خيرُ ما أبدأ به أن الحمد لله ربّ العالمين الذي لولا توفيقه لما تمكنت من انجاز هذا العمل المتواضع، والصلاة والسلام على سيد الخلق محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.
وبعد:

في مثل هذه اللحظات يتوقف اليراع ليفكر قبل أن يخط الحروف ليجمعها في كلمات، تتبعثر الأحرف عبثاً ويحاول تجميعها في سطور، سطور كثيرة تمر في الخيال ولا يبقى لنا في نهاية المطاف الا قليل من الذكريات تجمعنا بمن كانوا إلى جانبنا، ممن يجب علينا شكرهم، بأسمى معاني الشكر والامتنان، واعترافاً بمن كان لهم الفضل بعد الله في إنجاز هذه الرسالة، أخصّ بالشكر الجزيل، والعرفان بالفضل إلى أستاذي (الأستاذ الدكتور رعد ناصر مايود الوائلي) الذي كلما أظلمت الطريق أُمّمي لجأت إليه فأنارها لي وكلما دب الياس في نفسي زرع

فِي الأمل لأسير قدما، وكلما سألت عن معرفة زودني بها، وكلما طلبت زمنا من وقتها الثمين وفرها لي على الرغم من مسؤولياته المتعددة.

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى أساتذتي في قسم اللغة العربية (أعضاء اللجنة) لما أبدوه من آراء قيّمة وملاحظات أسهمت في تقويم الرسالة.

كما أخص بالشكر إلى السادة المحكمين لما أسدوه لي من النصح والإرشاد استنادا إلى خبراتهم العلمية، ولم يخلوا علي بشيء منها، وأشكر أساتذتي جميعا في السنة التحضيرية، ورئاسة القسم.

وأخيراً أقدم عبارات الاعتذار إلى كل من شاركني وأزرنني لإعداد هذه الرسالة، و لم تسعفني الذاكرة بتقديم الشكر، وعبارات الامتنان له.

الباحث

فهرس

- مقدمة: الشعر والشعراء في مدينة شنترين 1
- تمهيد: شنترين في المصادر الجغرافية والتاريخية 5

الفصل الأول: المكانة العلمية والفكرية وأهم أعلام المدينة

- المبحث الأول: المكانة العلمية والفكرية 40
- المطلب الأول: الحركة العلمية وتبادل العلماء (الرحلة والتدريس) 49
- أولاً: الأواصر الأدبية والإنتاج الشعري المشترك 49
- ثانياً: الوحدة الفكرية والمذهبية (المالكية والتصوف) 50
- المطلب الثاني: العصر الذهبي للأدب والشعر الشنتيريني 64
- أولاً: الملامح العامة للحياة الثقافية 64
- ثانياً: أعلام الفكر والأدب في شنترين 65
- ثالثاً: مجالات العلوم والإنتاج المعرفي 65

66	المطلب الثاني: المظاهر الفكرية والأدبية المشتركة بين المغرب وشنترين
66	أولاً: الأواصر الأدبية والإنتاج الشعري المشترك
67	ثانياً: الوحدة الفكرية والمذهبية (المالكية والتصوف)
68	المبحث الثاني: المشهد الثقافي للمدينة والتحديات التي واجهتها:
68	أولاً: دور الرحلة العلمية في تنشيط التأليف في شنترين
69	ثانياً: المؤدّبون في شنترين وبناء الذوق النقدي
70	ثالثاً: التأليف بوصفه ممارسة نقدية في شنترين:

الفصل الثاني: الاتجاهات النقدية في شنترين وأثر التأليف في تشكيلها

76	المبحث الأول: شعراء مدينة شنترين : الموضوعات الشعرية وفنونها
77	المطلب الأول: الموضوعات الشعرية المشتركة لدى شعراء مدينة شنترين الأندلسية:
77	أولاً: الغزل
80	شعر الحكمة والفلسفة والوعظ الأخلاقي:
82	شعر الوصف (وصف الخيل والطبيعة)
82	شعر الزهد والتحذير من اغترار المرء بالدنيا
83	شعر الإخوانيات والمساجلات الأدبية بين شعراء العصر
84	شعر العلم والتعليم والمنظومات التعليمية في الأندلس
85	شعر الحنين إلى الأوطان وتصوير الغربة والاغتراب
86	منهج النقد الأدبي والتحليل الفني عند ابن بسام الشنتريني
94	تجليات الحكمة والموعظة في شعر مسعود بن سليمان الشنتريني
95	المكانة العلمية والأدبية لمحمد بن عبد الملك بن السراج
96	البلاغة الوصفية في تصوير الخيل عند شعراء شنترين وأثرها
98	أثر البيئة الجغرافية لشنترين في تشكيل الخيال الشعري
100	الاتجاه الإنساني والاجتماعي في نتاج أدباء الغرب الأندلسي
102	ملامح التجديد في الصورة الشعرية عند الرمادي الكندي
103	دور المرأة والمجتمع في شعر أدباء مدينة شنترين
105	أساليب المدح والثناء السياسي عند شعراء مدينة شنترين
105	1- المدح.....

108	الخصائص الفنية والموسيقية في القصيدة الشنترينية وتطورها عبر الزمن
110	أثر الحركة العلمية في شنترين على جودة النتاج الشعري
110	تجليات أدب المراسلات والعتاب بين أدباء شنترين وولاتهم
111	فنون الوصف المبتكرة عند شعراء شنترين وتصوير الطبيعة الصامتة
113	أثر الفكر الكلامي في التشكيل البنائي للقصيدة الشنترينية
114	تجليات الاغتراب النفسي والمكاني في قصائد ابن سارة الشنتريني
115	التناص الديني والأدبي في بناء القصيدة عند شعراء شنترين
117	2- الرثاء
118	أثر الفقه والحديث في تشكيل الموقف الأخلاقي عند ابن مفلت
119	أثر الفكر النقدي عند ابن بسام في تقييم مدرسة شنترين
120	ملامح البيئة العلمية في شنترين وأثرها على التكوين الشعري
121	فلسفة اللغة والبيان في النقد الأدبي الأندلسي القديم
122	أثر الرحلات العلمية في صقل المواهب الشعرية الشنترينية
123	ظاهرة التشخيص البيئي في تشكيل الصورة عند شعراء شنترين
124	أثر القيم العربية الأصيلة في بناء القصيدة المدحية الشنترينية
125	تطور نزعة الغزل الحسي والوجداني في بيئة الغرب الأندلسي
126	تداخل غرض الغزل مع الطبيعة في شعر أدباء الحواضر القرية
127	غزل الوداع وفلسفة الفراق عند شعراء مدينة شنترين الأندلسية
129	أثر الجمال النسوي في تشكيل اللغة الشعرية عند أدباء الحواضر
131	3- الوصف
133	الشواهد الشعرية للأدباء المغمورين في حواضر الغرب الأندلسي
134	الفنون الشعرية الصغرى والمساجلات عند شعراء الثغور الغربية
136	التجربة الشعرية لشاعر الغرب ابن الأبرش وروابطها الفنية
138	التقاطعات الغرضية بين ابن الأبرش وأعلام المدرسة الشنترينية
139	النزعة الوجدانية والبيئية في شواهد شعراء شنترين
140	أغراض الفخر والمديح في فرائد ابن الأبرش والرمادي
142	أغراض الفخر والحكمة في فرائد ابن الأبرش والرمادي

143	شواهد الغزل العذري والحسي عند شعراء مدينة شنترين
146	فنون الوصف الطبيعي والتشخيص الجمالي في نصوص الشنتريين
146	لوعة الفراق ورثاء المدن في وجدانيات شعراء شنترين
149	المبحث الثاني: دراسات أكثر توسعا لشعراء شنترين مع وقفة على موضوعات شعرهم:
149	أولاً: الشاعر أبو عبد الله محمد بن عبد البر الشنتري:
153	سعيد بن عبد الله الشنتري

الفصل الثالث: الشعراء الوافدون على مدينة شنترين

157	الشعراء الوافدون إلى مدينة شنترين الأندلسية
158	التمهيد: شنترين بوصفها فضاءً ثقافياً
158	أولاً: المدينة في الجغرافيا الثقافية للأندلس
158	ثانياً: ظاهرة الهجرة الأدبية في الأندلس
160	الشعراء الوافدون – قراءة في الأصول والانتماء
161	المبحث الأول: البنية الحجاجية في شعر الشعراء الوافدين إلى مدينة شنترين
161	الحجاج العاطفي بوصفه أداة للإقناع
162	الحجاج القائم على المفارقة والتضاد
165	تحولات الخطاب الشعري عند الشعراء الوافدين إلى مدينة شنترين
166	المبحث الثاني: الأغراض الشعرية عند الشعراء الوافدين إلى شنترين
166	المطلب الأول: الغزل بوصفه خطاب اغتراب
166	1. الغزل وتحول الوظيفة
166	2. الغزل بوصفه شكوى وجودية
167	3. الغزل وتحول الصورة الكونية
168	المطلب الثاني: الوافدون إلى مدينة شنترين الأندلسية
168	(1) الدراسات النقدية وأثرها في فهم الشعر
177	المطلب الثالث: الدراسة النقدية، النسق المضمّر في شعر الغزل وسواه من الأغراض الأخرى:
190	المطلب الرابع: الغربة والاغتراب واثارهما في الشعر
190	الشعراء الوافدون وتجربة الغربة
190	1. ابن بسّام الشنتري (ت 542هـ)

190	2. ابن اللبانة الداني (ت 507هـ)
191	3. أبو إسحاق الإلبيري (من الشعراء الأقل تداولاً في هذا الباب)
191	4. نموذج لشاعر مغمور من أهل شنتمرين (منقول عبر الذخيرة)
192	البنية النفسية لشعر الغربة
194	شعر الفخر والصراع في شنتمرية الشرق:
195	شعر الحماية والثغور (الهوية العسكرية لشنتمرية)
196	شعر الصراع الداخلي (ملامح التنافس السياسي)
199	شعر الوافدين إلى شنتمرية في الذخيرة (الفخر والصراع أنموذجاً)
199	أولاً: نص في الفخر السياسي (من شعر وافد في بيئة الثغور)
202	خاتمة البحث ونتائجه:
206	المصادر والمراجع

المُقَدِّمَةُ

مقدمة

الحمد لله الذي جعل من الكلمة أداة للمعرفة، ومن الشعر سجلاً نابضاً بتاريخ الأمم ووجدانها،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فإنَّ هذا البحث لم يكن وليد اختيارٍ عابر، بل جاء استجابةً لتوجيهٍ علميٍّ كريم من أستاذي
المشرف الأستاذ الدكتور رعد ناصر مايود الوائلي، الذي عرض عليَّ هذا الموضوع عقب زيارته
لمدينة شنتمرين (شنتارين)، حيث لاحظ - من خلال اطلاعه الميداني - خلقَ مكتباتها
ومتاحفها، بل وحتى مؤسساتها الأكاديمية، من دراساتٍ متخصصة تتناول الشعر الذي قيل فيها
أو ارتبط بها. وقد كان لهذا الاكتشاف أثرٌ بالغ في توجيه بوصلة البحث نحو هذا الحقل، فكان
دافعاً مشتركاً بيني وبين أستاذي للولوج في هذا الموضوع، أملاً في أن يُسهم بشيءٍ من الوفاء
لذاكرة الأندلس الإسلامية العربية، واستعادة بعض ما غاب من ملامحها الأدبية.

وقد واجهتُ في أثناء إعداد هذه الدراسة جملةً من الصعوبات، ومن ضمنها ندرة النصوص
الشعرية المرتبطة مباشرةً بمدينة شنتمرين، وتشتتها في بطون المصادر، فضلاً عن كون عددٍ
غير قليل من الشعراء الذين ارتبطوا بها هم من الوافدين إليها، لا من أبنائها الأصليين، الأمر
الذي استدعى جهداً مضاعفاً في التتبع والتوثيق والمقارنة.

ومن المهم في هذا السياق أن نشير إلى أن مدينة شنتمرين (شنتارين) لم تكن غائبةً تماماً عن
المدونات التراثية، وإن كان حضورها قد جاء متفرقاً وغير مقصودٍ لذاته في كثيرٍ من الأحيان.
فقد ورد ذكرها في عددٍ من المصادر الجغرافية والتاريخية والأدبية، بوصفها إحدى مدن الثغر
الغربي للأندلس، ذات موقعٍ استراتيجيٍّ مهم، أسهم في جعلها نقطة تماسٍ حضاريٍّ وثقافي.

ففي كتاب صفة جزيرة الأندلس نجد إشاراتٍ إلى موقعها الجغرافي وأهميتها ضمن شبكة المدن
الأندلسية، حيث تُذكر في سياق الحديث عن الحواضر الواقعة على تخوم بلاد الإفرنج، بما
يعكس وظيفتها الدفاعية والحضارية معاً. كما أشار إليها ياقوت الحموي في كتابه معجم

البلدان، محدداً موضعها ومكانتها، ومبرزاً بعض ما يتصل بها من أخبارٍ وأوصاف، وإن جاءت تلك الإشارات موجزة.

أما في المصادر الأدبية، فقد ورد ذكر شنتمرين في ثنايا كتب التراجم والاختيارات الشعرية، مثل الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة وقلائد العقيان، حيث تظهر بوصفها فضاءً احتضن عدداً من الشعراء، سواء من أبنائها أو من الوافدين إليها، الأمر الذي يعكس حيوية المشهد الثقافي فيها، على الرغم من عدم تبلور صورةٍ مكتملةٍ لها في تلك المصادر. كما لا تخلو موسوعة نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب من إشاراتٍ متفرقة تسهم في رسم ملامحها العامة ضمن النسيج الأندلسي.

ومن خلال تتبع هذه الإشارات، يتبين أن شنتمرين كانت حاضرةً في الوعي التراثي، لكنها لم تحظَ بدراسةٍ مستقلةٍ تكشف عن خصوصيتها الأدبية، وهو ما يعزز من أهمية هذه الدراسة، ويجعلها محاولةً لسدّ هذا الفراغ، وإعادة قراءة هذه المدينة في ضوء ما توافر من نصوصٍ وشواهد.

وقد اعتمدت الدراسة على عددٍ من المصادر التراثية التي أسهمت في تزويدها بالمادة الشعرية، من أبرزها كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، وكتاب قلائد العقيان، وكتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، إلى جانب الاستفادة من دراساتٍ حديثة أغنت الجانب التحليلي، وأسهمت في تعميق الرؤية النقدية. كما أثرُ عدم التوسّع في تناول شعر ابن سارة الشنتريني، لكثرة ما كُتب عنه في الدراسات السابقة، مفضلاً توجيه الجهد نحو نصوصٍ وشعراء لم يحظوا بالعناية الكافية.

وقد انتظمت هذه الرسالة في تمهيدٍ وثلاثة فصول:

جاء التمهيد لبيان مكانة مدينة شنتمرين الجغرافية والتاريخية والعلمية، بوصفها فضاءً ثقافياً له أثره في تشكيل الوعي الأندلسي.

أما الفصل الأول، فقد خُصص لبيان مكانتها العلمية، والتعريف بأهم أعلامها ممن أسهموا في الحركة الثقافية فيها.

وانعقد الفصل الثاني لتتبع شعراء المدينة الذين ينتسبون إليها فعلاً، ورصد نتائجهم الشعري وتحليله.

في حين جاء الفصل الثالث لدراسة الشعراء الوافدين إلى شنتمرين، وقد رأيتُ من المناسب أن يُبنى هذا الفصل على مقارنة نقدية مغايرة، لا تقف عند حدود الدراسة الفنية التقليدية القائمة على رصد الأساليب البلاغية من استعارة ومجازٍ وصورٍ بيانية، بل تتجه نحو قراءة ثقافية تستنطق الأنساق الكامنة في النص، وتبحث في آليات الحجاج، وأثر الغربة في تشكيل التجربة الشعرية، وما يترتب على ذلك من تحولاتٍ في الرؤية والتعبير.

وفي هذا السياق، فإن هذه الدراسة تحاول أن تُقدّم نموذجاً في المقاربة النقدية التي تمزج بين التحليل الأدبي والوعي الثقافي، سعياً إلى تجاوز النمطية في تناول النصوص، وفتح آفاقٍ أوسع في قراءتها.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدّم بخالص الشكر والامتنان إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور رعد ناصر مايود الوائلي، لما أولاني من عناية علمية، وتوجيهٍ سديد، ومتابعةٍ دقيقة كان لها الأثر الكبير في إنضاج هذا العمل. كما أتقدّم بجزيل الشكر إلى السادة أعضاء لجنة المناقشة، لما سيبدونه من ملاحظاتٍ علميةٍ تسهم في تقويم هذا الجهد، وإلى قسمنا العلمي الموقر، الذي أتاح لنا بيئةً علميةً محفزة على البحث والإنتاج.

وأسأل الله أن يكون هذا العمل خطوةً متواضعة في سبيل خدمة تراثنا الأندلسي، وإحياء ما اندثر من معالمه الأدبية.

والله الموفق

تمهيد

شنترين الموقع والأهمية التاريخية
والسياسية

شنترين في المصادر الجغرافية والتاريخية

تمثل المصادر الجغرافية والتاريخية المدخل الأساس لفهم صورة مدينة شنترين في الوعي الأندلسي، إذ حفظت لنا هذه المصادر وصفاً دقيقاً لمعالمها الطبيعية والعمرانية، فضلاً عن إبراز مكانتها ضمن شبكة المدن في الغرب الأندلسي. وقد حظيت المدينة باهتمام عدد من الجغرافيين المسلمين، الذين نظروا إليها بوصفها نموذجاً للمدينة التي تجمع بين الحصانة الطبيعية والخصب الاقتصادي.⁽¹⁾

ويأتي في مقدمة هؤلاء محمد الإدريسي، الذي قدّم وصفاً مفصلاً لشنترين، مشيراً إلى موقعها على نهر تاجه، وإلى خصوبة أراضيها وكثرة خيراتها، حتى شبه فيضان النهر بفيض نيل مصر، في دلالة على وفرة المياه واستمرارها⁽²⁾. ولا يقتصر وصف الإدريسي على الجانب الطبيعي، بل يمتد ليشمل الجانب العمراني، حيث أشار إلى تحصين المدينة وارتفاعها، وهو ما يجعلها من المدن المنيعّة التي يصعب اقتحامها.

كما أورد الحميري في كتابه وصفاً قريباً من ذلك، حيث أكد على جمال المدينة وكثرة بساتينها، ووفرة إنتاجها الزراعي، مشيراً إلى ما اشتهرت به من الفواكه، خاصة التفاح، الذي تميز بحجمه الكبير وجودته العالية⁽³⁾. ويكشف هذا الوصف عن جانب مهم من الحياة الاقتصادية في شنترين، حيث لم تكن مجرد مدينة عسكرية، بل كانت مركزاً زراعياً نشطاً.

ومن جهة أخرى، قدّم ابن فضل الله العمري وصفاً يركز على الجانب الاستراتيجي، حيث أبرز موقع المدينة بوصفه ((نقطة تماس بين العالم الإسلامي والممالك النصرانية، وهو ما منحها

(1) يُنظر: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي، ج2، ص550.

(2) يُنظر: المصدر نفسه، ج2، ص551.

(3) يُنظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ص313.

أهمية عسكرية استثنائية ضمن منظومة الدفاع الأندلسية))⁽¹⁾، ويعكس هذا الوصف إدراكاً لطبيعة الدور الذي لعبته شنترين في حماية الحدود الغربية.

أما المصادر التاريخية، فقد اهتمت بتتبع مسار المدينة عبر العصور، خاصة في فترات الصراع. فقد أشار ابن الأثير إلى بعض الأحداث المرتبطة بالمنطقة، مبرزاً دورها في الحملات العسكرية، وما شهدته من مواجهات أثرت في مسار الصراع بين المسلمين والنصارى⁽²⁾، وتكتسب هذه الإشارات أهميتها من كونها تربط بين الوصف الجغرافي والواقع التاريخي، فتمنح صورة أكثر تكاملاً عن المدينة.

وفي السياق نفسه، تناول عنان أخبار الأندلس ومدنها، مشيراً إلى ما أصاب بعضها من تحولات بعد سقوطها، وهو ما يمكن إسقاطه على شنترين في مراحلها المتأخرة، حيث تحوّل عمرانها وتبدلت وظائفه، في دلالة على التغير الحضاري الذي رافق التحولات السياسية.

ومن خلال المقارنة بين هذه المصادر، يتضح أن صورة شنترين لم تكن ثابتة، بل تعددت بتعدد زوايا النظر إليها؛ فالجغرافيون ركزوا على طبيعتها وخصبها، في حين أبرز المؤرخون دورها في الصراع السياسي والعسكري. غير أن هذه الصور المتعددة تتكامل لتقدم رؤية شاملة، تكشف عن مدينة تجمع بين الجمال الطبيعي والوظيفة الاستراتيجية.

ولم تكن هذه الصورة بعيدة عن الوعي الأدبي، بل انعكست في الشعر الأندلسي الذي استلهم ملامح المدن ووظفها في التعبير عن القيم الجمالية والوجودية. ويظهر هذا التفاعل في شعر ابن خفاجة الذي عُرف بوصف الطبيعة الأندلسية، حيث يقول:

يا روضةً زانها الحسنُ البديعُ وقد أهدى إليها الندى أزهى تهاديه⁽³⁾

(1) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري، ج4، ص279.

(2) يُنظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج4، ص264.

(3) يُنظر: ديوان ابن خفاجة، ت: إحسان عباس ص88

تعكس هذه الأبيات صورة المدينة بوصفها فضاءً جمالياً، لكنها في الوقت ذاته تحمل في طياتها إحساساً بزوال هذا الجمال، وهو ما يتقاطع مع ما تكشفه المصادر التاريخية من تحولات لاحقة⁽¹⁾.

ومن هنا، يمكن القول إن المصادر الجغرافية والتاريخية لا تقدم مجرد معلومات عن شنترين، بل تكشف عن كيفية إدراك الأندلسيين لمدينهم، وعن العلاقة المعقدة بين الإنسان والمكان، وهي علاقة تتداخل فيها عناصر الطبيعة والتاريخ والثقافة.

وبسبب موقعها الذي يكون أقصى غرب الأندلس ولما لها من أهمية عسكرية وإستراتيجية جعلها عرضةً لصراعات متكررة أثرت في بنيتها الحضارية⁽²⁾، ولم يكن هذا الدور العسكري على حساب ازدهارها المدني، بل شهدت المدينة نشاطاً زراعياً ملحوظاً بفضل فيضان النهر الذي شبهه الباحثون بفيض نيل مصر⁽³⁾، الأمر الذي انعكس على رخاء سكانها واستقرارهم النسبي.

وقد تناولت الدراسات الحديثة هذا التداخل بين الجغرافيا والتاريخ بوصفه عاملاً حاسماً في تشكيل الهوية الأندلسية للمدن الحدودية، حيث يرى بعض الباحثين أن المدن الثغرية، ومنها شنترين، أنتجت نمطاً ثقافياً خاصاً يجمع بين روح الجهاد وحس الترف الحضاري⁽⁴⁾، كما أن هذا الواقع أفرز أدباً متميزاً، اتسم بالحزن والحنين، خاصة في فترات التراجع السياسي، حيث تحولت النصوص الشعرية إلى سجل وجداني يوثق معاناة السكان وتقلبات الزمن⁽⁵⁾.

إنَّ حضور مدينة شنترين في المصادر التاريخية والسياسية والأدبية نتيجة للأحداث التي نتجت فيها ، وكذلك للأهمية التي تحظى بها من جانب آخر، لكن الأحداث السياسية كانت هي الصفة الطاغية في أغلب الأحيان على هذه المدينة، وجئنا في بحثنا هذا لنسلط الضوء على الجانب

(1) ينظر: ديوان ابن خفاجة، تحقيق إحسان عباس، ص 88.

(2) ينظر: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانية والبرتغال، محمد عبد الله عنان ص 425

(3) ينظر: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري، ج 4، ص 279.

(4) ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ص 313.

(5) ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، ج 1، ص 517.

الأدبي فيها من خلال تسليط الضوء على شعراء هذه المدينة، وأهمية موقعها، فإن جميع الدراسات تقوم على مصدرين تاريخي جغرافي وأدبي شعري، وإن اعتماد الباحث على الشعر في مدينة شنترين بإعتباره مصدراً تاريخياً حول غرب الأندلس، وبعض الشعراء قد عبّروا عن تطور الأوضاع السياسية بغرب الأندلس، فكما عبر المدح عن حالة الأمل والشعور بالتقدم والتطور والتفوق، وعبر الشوق والحنين عن حالة الرفاهة التي عاشها مجتمع الغرب في بعض الفترات، فقد عبر كل الهجاء والرتاء عن حالة عدم الاستقرار والاضطراب المنذر بالتدهور التي أضحت عليه مدينة شنترين.

وكان دعم الأمراء والولاة للشعر بائناً كما هي عاداتهم، فشجعوا الأدب والعلوم، وبنوا القصور التي عقدت فيها المجالس الأدبية، وقد مرت هذه المدينة (كما هو حال غيرها من مدن غرب الأندلس) بثلاث مراحل من الغرض الشعري:

- المرحلة الأولى: انتشار الأشعار الحماسية باسترجاع ما ضاع من مدن الأندلس والعودة للدين الإسلامي.
- المرحلة الثانية: ازدهار الحركة الشعرية نتيجة للرخاء والرفاهية، فعم شعر المدح والخمريات، وتميزت بالبذخ والترف.
- المرحلة الثالثة: مرحلة التراجع والسقوط، وهنا عادت الحماسة ونشأ الغرض الشعري رثاء المدن.

وإنّ الفنون التي ظهرت في هذه الفترة هي ذاتها التي جاءت في الفترات السابقة. إلا إنّ ما يميزها هو رقتها وعذوبتها، ولطافة الصور والأخيلة ما يهيج القلوب، وعنوا كثيراً بتزيين الألفاظ، فظهر الجناس، والطباق، والاقتباس، واستعملوا البحور التي تتناسب مع الغرض الشعري في الأندلس ومنها شنترين أو شنتمرية وهي بلدة من بلاد الأندلس، والأندلس كما وصفها هيكل ((شامية في طبيها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظيم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها وفيها آثار عظيمة للأول

من اليونانيين أهل الحكمة والفلسفة))⁽¹⁾، فتحها المسلمون في عهد الوالي عبد العزيز بن موسى بن نصير (95 — 97 هـ) بعد أن تولى حكم الأندلس بعد رجوع أبيه إلى المشرق بناءً على طلب الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (86 - 96 هـ) لذلك أخذ عبد العزيز بن موسى على عاتقه فتح المناطق التي لم تُفتح في عهد أبيه⁽²⁾، وشهدت مدينة شنترين خلال الفتح الإسلامي، ازدهاراً كبيراً في المجالات الاقتصادية والثقافية، وسكنها العرب والبربر وعاشوا مع أهلها واندمجوا معهم، حتى أن سكانها الأصليين تأثروا بالأمويين والمسلمين، ولكن لم تخلو من الثروات التي مهدت لحروب الاسترداد، وكانت مدينة شنترين في عهد الحكم الإسلامي من القواعد والمراكز العسكرية المهمة ونقطة انطلاق القوات المسلمة في حروبهم مع المسيحيين، وذلك بسبب حصانتها ومناعتها.

تسليط الضوء أكثر على مدينة شنترين ((وهي مدينة كانت في القديم من جليقية شمالي الأندلس، ثم استقرت من أعمال أشبونة))⁽³⁾، مدينة رومانية قديمة كانت تسمى عند القوطيين سانتا إيرينه، وبعد ذلك أطلقوا عليها شنترين نسبة للقديسة سانت إيرين، وهي اليوم ((كلمتان مركبة من شنت كلمة ورين كلمة))⁽⁴⁾، وهي ((مدينة قديمة ترجع للعهد الروماني، وهي من مدن ولاية استرمدوره البرتغالية، تقع في شمال شرقي أشبونة. على الضفة اليسرى لنهر التاجه، وكانت أيام المسلمين نظراً لحصانة موقعها في منعطف النهر، من المراكز الأمامية للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى، ولها في ميدان الجهاد تاريخ مؤثر))⁽⁵⁾.

والتاريخ حافل بالصراع ما بين البرتغال والمغرب، والبرتغال ((من أصغر بلاد أوربا، ولكن أهلها من أعنف الأوربيين وأشدّهم ضراوة وقدرة على ركوب البحر... ما نزلوا موضعاً إلا عنفوا بأهله

(1) المسالك والممالك، لأبي عبيدة البكري، ت: أدريان فان ليوفنو أندري فيري، دار الغرب الإسلامي،

المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات . بيت الحكمة، ج 2 - 894.

(2) يُنظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 4 - 264 .

(3) صبح الأعشى، أحمد القلقشندي، دار الكتب المصرية بالقاهرة 1922، ج 5، 222.

(4) معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر بيروت، ج 3. 367.

(5) ينظر: الآثار الاندلسية الباقية في اسبانية والبرتغال، محمد عبد الله عنان، ص 425.

ونهبوهم وأحرقوا مدنهم، وخاصة إذا كان هذا البلد إسلامياً... وقد نشأت البرتغال على أيام المسلمين، كان الساحل الغربي من شبه الجزيرة يسمى عند الرومان لوزيتانيا (لشدانية في النصوص العربية) وقد استولى عليها المسلمون أول أيام الفتح، فتح بعضه موسى بن نصير وأتم الفتح ابنه عبد العزيز بن موسى.... وقد قسموا ما يعرف بالبرتغال إلى كور (مديريات) هي من الشمال إلى الجنوب: قلمرية (كويمبرا) و شنترين (سانتاريم) والأشبونة (لشبوا) وباجة (بيجا) وأكشونة في أقصى الجنوب))⁽¹⁾، وهي من أهم قواعد مملكة بطليوس البرتغالية التي تضم مدناً مهمة ((ماردة، وأشبونة، ويابرة، وشنتر، وقلمرية))⁽²⁾.

وقد ساعد موقعها على منحها حصانتها لأنها تقع في غرب شبه الجزيرة الأيبيرية بالقرب من المحيط الأطلسي وقد ذكر صاحب الروض ((مدينة معدودة في كور باجة، وهي على جبل عال كثير العلو جدا ولها من جهة القبلة حافة عظيمة ولا سور لها، وبأسفلها ربض على طول النهر))⁽³⁾. وقد وصفها ابن خاقان ((قاصية أرض الإسلام، السامية الذرى والأعلام، التي يروعها صرف، ولا يقرعها طرف، لأنها متوعدة المراقي، متمكنة الرواسي والقواعد))⁽⁴⁾.

ومن أقاليمها إقليم صقلب وإقليم شيروش⁽⁵⁾، وقال عنها صاحب كتاب صفة الأندلس (وهي مدينة على جبل عال كثير العلو جداً.. وهي أطيب بقاع الأرض... ولشنترين جزائر في البحر مسكونة.. وهي من أكرم الأرضين، ونهرها يفيض على بطحائها كفيض نهر مصر)⁽⁶⁾، فهي

-
- (1) رحلة الأندلس، حسين مؤنس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2. 1985، 311 - 312
 - (2) تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، د. خليل إبراهيم السامرائي ود. عبد الواحد ذنون طه و د. ناطق صالح مطلوب، دار الكتب الوطنية / بنغازي . ليبيا، ط1، 231.
 - (3) الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد عبد المنعم الحميري، ت: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ص346.
 - (4) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ابن خاقان، ت: د. حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ط1 . 1989، 139.
 - (5) ينظر: صفة جزيرة الأندلس، الحميري، دار الجبل، بيروت لبنان، 122.
 - (6) صفة جزيرة الأندلس، محمد بن عبد الله الحميري، دار الجبل، بيروت، لبنان ط2، 1988، ص121-122.

بوابة الأندلس من جهة الغرب، وهي تتمتع بحاجز من التضاريس الطبيعية تعرقل من أراد الوصول إليها، فمكانها المرتفع أتاح لها التخلي عن التحصينات الدفاعية وقد ذكر الحموي في معجمه و(هي حصينة) أي يصعب الوصول إليها لأنها وكما ذكر المؤرخون كانت مقراً للحكم على مرتفع حصين، و ما تنص عليه رسالة سير بن أبي بكر بن تاشفين وكان سير هو الذي تولى فتحها فكتب عنه أبو محمد كتاباً إلى أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين من ((داخل مدينة شنترين، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك ويمن نقيبتك على المسلمين.... وكانت قلعة شنترين - أدام الله أمر أمير المسلمين - من أحصن المعقل للمشركون، وأثبت المعقل على المسلمين، فلم نزل بسعيك الذي اقتفيناه، وهديك الذي اكتفيناه، نخضد شوكتها، وننحت أثلتها.. فنزلنا ساحة القوم فساء صباحهم ذلك اليوم، فلم نصولهم مصالوة المحتسب المؤتجر ونطاولهم مطاوله المرتقب لأمر الله المنتظر، ونشن الغارات على جميع الجهات فترد جيوشنا عليهم خفافاً وتصدر ألينا ثقلاً فتملاً صدورهم الأعداء أوجالاً.. فازدادت ريحهم بذلك ركوداً ونارهم خموداً... ولما ضمهم لضيق ولا وجه الحصار وعشيهم بتقريب أمواجه البرار... إختاروا الدنية على المنية، ورضوا بالاستسلام للعبودية وإسلام الأهل والذرية والسلامة من مدارج الكفن.. وهذه القلعة التي انتهينا إلى قرارها وإستوينا على أقطارها))⁽¹⁾، أو كما أطلق عليها عنان القصبة وهي (القلعة وملحقاتها)⁽²⁾.

تعد مدينة شنترين من أبرز الحواضر الأندلسية التي اضطلعت بدور حضاري متميز في غرب الأندلس، إذ جمع موقعها الجغرافي بين الحصانة الطبيعية والخصب الاقتصادي، مما جعلها نموذجاً فريداً للمدن الثغرية التي تداخل فيها العسكري بالمدني تداخلاً عضوياً⁽³⁾. وقد أسهم

(1) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج3، 367.

(2) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، ت: محمد سعيد العريان، الناشر:

المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ج1، ص 229-230.

(3) يُنظر : دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، ط3، 1997، ص 517.

وقوعها على الضفة اليسرى لنهر تاجه في تعزيز مكانتها الاستراتيجية، حيث وفر النهر مورداً مائياً دائماً انعكس على النشاط الزراعي، فضلاً عن كونه حاجزاً طبيعياً يعيق تقدم الخصوم⁽¹⁾.

ولم تكن هذه الخصائص الجغرافية معزولة عن الحراك التاريخي، بل شكّلت أساساً لصراع طويل بين المسلمين والممالك النصرانية، الأمر الذي جعل من شنترين مركزاً عسكرياً متقدماً، وقاعدةً لانطلاق الحملات، وفي الوقت ذاته ساحةً لمعارك ضارية تركت آثارها العميقة في الوجدان الجمعي لسكانها⁽²⁾. وقد أدرك الجغرافيون المسلمون مبكراً هذه الأهمية، فوصفها محمد الإدريسي بأنها من المواضع الحصينة التي يصعب اقتحامها، مشيراً إلى خصوبة أرضها وجمال بيئتها⁽³⁾.

ومن جهة أخرى، لم يكن ازدهار شنترين مقتصرًا على الجانب العسكري، بل شهدت نشاطاً اقتصادياً ملحوظاً، حيث شبّه بعض المؤرخين فيضان نهر تاجه بفيض نيل مصر في عطائه واستمراريته، وهو ما أتاح زراعة المحاصيل في غير مواسمها المعتادة⁽⁴⁾. وقد أدى ذلك إلى رخاء اقتصادي انعكس بدوره على الحياة الاجتماعية، فظهرت طبقات متنوعة من الفلاحين والتجار والعلماء، مما أوجد مجتمعاً متماسكاً رغم التحديات السياسية.

وإذا انتقلنا إلى البعد الأدبي، نجد أن هذه التحولات السياسية والعسكرية قد تركت بصمتها الواضحة في الشعر الأندلسي، حيث تحوّلت المدن الثغرية، ومنها شنترين، إلى موضوع رئيس في قصائد الرثاء والحنين. ويبرز في هذا السياق شعر لسان الدين بن الخطيب الذي عبّر عن ألم الفقد وضياع المدن، قائلاً:

(1) ينظر: صفة جزيرة الاندلس، محمد بن عبدالله الحميري، 121؛ الآثار الاندلسية، محمد عبدالله الحميري، 425.

(2) ينظر: تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، د. خليل ابراهيم السامرائي، ود. عبد الواحد ذنون طه، 321.

(3) ينظر: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي، ج2، ص550.

(4) ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ص346.

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلُسِ لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا فِي الْكَرَى أَوْ خِلْسَةً الْمُخْتَلِسِ

تعكس هذه الأبيات حالة الانكسار والتحسر على زمان الأندلس ووصلها والعيش بين أحضانها ، التي عاشها الأندلسيون في فترات التراجع، حيث لم يعد المكان مجرد إطار جغرافي، بل تحوّل إلى كيان حيّ يرتبط بالهوية والذاكرة⁽¹⁾، كما يظهر هذا المعنى في شعر ابن زمرك الذي استحضّر صورة المدينة بوصفها كائناً يئنّ تحت وطأة الغياب، مما يعكس عمق العلاقة بين الإنسان والمكان في التجربة الأندلسية.

التطور التاريخي والتحوّلات السياسية

لم تكن شنترين بمعزلٍ عن حركة الفتح الإسلامي التي اجتاحت شبه الجزيرة الأيبيرية في مطلع القرن الهجري الأول، بل كانت إحدى المحطات المهمة التي استهدفتها الجيوش الإسلامية في سياق تثبيت النفوذ في الغرب الأندلسي. وتشير المصادر إلى أن فتحها تم في عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي سعى إلى استكمال ما بدأه والده من إخضاع المناطق الغربية، وقد تم ذلك صلحاً، الأمر الذي حافظ على البنية العمرانية للمدينة وسمح باستمرار الحياة فيها دون انقطاع⁽²⁾. ويُعد هذا الفتح السلمي عاملاً مهماً في تفسير سرعة اندماج السكان المحليين في النظام الإسلامي، حيث لم يُفرض التغيير بالقوة، بل جاء تدريجياً عبر التفاعل الحضاري.

وقد أسهم هذا الاندماج في تشكيل نسيج اجتماعي متنوع ضم العرب والبربر والمولدين، وهو ما أوجد حالة من التعدد الثقافي انعكست لاحقاً على الإنتاج الأدبي والفكري في المدينة⁽³⁾. ولم يقتصر أثر الفتح على الجانب الاجتماعي، بل امتد إلى البنية الإدارية، حيث أدخلت النظم

(1) ينظر: الاحاطة في اخبار غرناطة، لسان الدين الخطيب، ص13

(2) يُنظر: تاريخ المسلمين وأثارهم، د. عبد العزيز سالم، دار المعارف لبنان، ص110

(3) يُنظر: دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، ج1، ص203.

الأموية في الحكم، وأصبحت شنترين جزءاً من شبكة المدن الأندلسية المرتبطة بالمركز في قرطبة، مما عزز من استقرارها السياسي في المراحل الأولى⁽¹⁾.

غير أن هذا الاستقرار لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما دخلت المدينة في دوامة الصراعات التي شهدتها الأندلس، خاصة في عصر ملوك الطوائف، حيث أصبحت شنترين هدفاً للأطماع المتزايدة من قبل القوى النصرانية في الشمال. وقد أدى هذا الوضع إلى تحويلها تدريجياً إلى ثغر عسكري دائم، يعيش حالة من التوتر المستمر، وهو ما انعكس على طبيعة الحياة اليومية لسكانها⁽²⁾.

وفي هذا السياق، تبرز حادثة عام 580هـ — بوصفها من أهم المحطات في تاريخ المدينة، حيث شهدت أسوارها إصابة الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن بجروح بليغة أثناء حصارها، وهي الإصابة التي لم يلبث أن توفي على إثرها⁽³⁾. وقد اختلفت الروايات في تفاصيل وفاته، غير أن المؤكد أن هذه الحادثة شكلت صدمة سياسية وعسكرية لدولة الموحدين، وأثرت بشكل مباشر في ميزان القوى في المنطقة.

ولم يكن لهذه الواقعة أثر سياسي فحسب، بل كان لها أيضاً صدى واسع في الأدب الأندلسي، حيث تحولت إلى رمز للمأساة والانكسار، واستدعت لدى الشعراء صور الفقد والغياب. ويمكن أن نلمس هذا الاتجاه في القصائد التي تناولت رثاء القادة والمدن، حيث اختلط الحزن الشخصي بالحزن الجماعي، وأصبحت المدينة رمزاً للضياع الحضاري كما هو حال الشاعر محمد بن إبراهيم بن عبد الملك (ابن السراج) يرثي ضياع شنترين بقوله⁽⁴⁾.

(1) ينظر: البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، ت: ج.س. كولان

والفيبروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1980، ج2، ص198.

(2) يُنظر: دولة الإسلام في الاندلس، عنان، ج3، ص69.

(3) يُنظر: صفة الجزيرة الاندلس، الحميري، ص114.

(4) مجلة الشارقة جامعة الشارقة للعلوم الاسلامية والاجتماعية غرب الاندلس او البرتغال الإسلامية

وميدنة ميرتلة في المصادر العربية، حسام الدين بن صالح شاشية، ع(2)، مج(11)، ص6.

يا شنترين لا اناذي سامعاً ألفت عليي بلاءها للاقدار
ورميت عند دعائنا بحوادثٍ تدر الديار وما بها ديار
وتبدلت فيك العمارة وحشة والامن خوفٌ ولفيف اقتار
تعبت بجهاتها اعداؤها وحما محاسنها البلى والنار
حتى أقول بنغصةٍ يا بلدة لا أمن أنت ولا الديار ديار

وعندما تولى الحكم بعده ابنه يعقوب المنصور، جعل من شنترين هدفاً رئيساً لحملاته العسكرية، مدفوعاً برغبة واضحة في الثأر واستعادة الهيبة السياسية للدولة. وقد اعتمد في ذلك على استراتيجية مزدوجة، تقوم على تقسيم الجيش إلى محاور متعددة، حيث تولى أحدها حصار مدينة شلب، في حين ركّز الآخر على شنترين عبر تخريب زروعها وإضعاف بنيتها الاقتصادية تمهيداً للسيطرة عليها⁽¹⁾.

تكشف هذه السياسة عن وعي عسكري متقدم، إذ لم يكن الهدف مجرد الانتصار العسكري، بل إضعاف قدرة المدينة على الصمود عبر استنزاف مواردها، وهو ما يعكس تحولاً في طبيعة الحروب في الأندلس من المواجهة المباشرة إلى الحصار الاقتصادي والنفسي. وقد أدى ذلك إلى تفاقم معاناة السكان، وظهور مظاهر الفقر والنزوح، مما ترك أثراً عميقاً في الوجدان الجمعي.

ومن هنا، يمكن القول إن شنترين لم تكن مجرد موقع جغرافي للصراع، بل كانت فضاءً إنسانياً تجسدت فيه تحولات التاريخ الأندلسي، حيث التقت فيها قوى البناء والهدم، والازدهار والانحيار، وهو ما جعلها موضوعاً خصباً للتعبير الأدبي، خاصة في شعر الرثاء الذي ازدهر في فترات الأزمات.

(1) المغرب والأندلس في عهد المنصور المهدي، دراسة تاريخية وحضارية، ليلي احمد نجار، ج(1)، ص216-217.

وفي هذا الإطار، نجد أن شعر ابن الأبار القضاعي يمثل نموذجاً واضحاً لهذا الاتجاه، إذ عبّر عن مأساة المدن الأندلسية الساقطة ومنها شنترين بلغة مشحونة بالعاطفة، قائلاً:

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً إن السبيل إلى منجاتها درسا

تحمل هذه الأبيات نداءً استغاثياً يعكس حالة اليأس التي بلغها الأندلسيون، حيث لم تعد المدن قادرة على الدفاع عن نفسها، وأصبحت بحاجة إلى تدخل خارجي لإنقاذها⁽¹⁾.

ويكشف هذا الخطاب الشعري عن تحول عميق في الوعي السياسي، حيث انتقل من الثقة بالقوة الذاتية إلى الشعور بالعجز والانكسار.

لم تكن الحياة الاجتماعية في شنترين مجرد انعكاس بسيط للواقع السياسي، بل كانت بنية مركبة تشكّلت من تفاعل عناصر متعددة، في مقدمتها الموقع الجغرافي، والظروف العسكرية، والتنوع العرقي. فقد ضُمَّت المدينة، منذ المراحل الأولى للفتح، خليطاً من العرب والبربر والمولدين، فضلاً عن بقايا السكان الأصليين، وهو ما أوجد مجتمعاً متعدد المشارب الثقافية، لكنه متماسك في بنيته العامة بفعل وحدة المصير المشترك⁽²⁾. ولم يكن هذا التنوع مصدر انقسام، بل كان عاملاً في إثراء الحياة الاجتماعية، حيث تبادلت هذه الفئات الخبرات في الزراعة والصناعة والتجارة.

وقد أسهمت البيئة الطبيعية الخصبة في تشكيل نمط معيشي قائم على الاستقرار النسبي، خاصة في الفترات التي خفت فيها حدة الصراع. فبطحاء نهر تاجه، بما توفره من مياه وفيرة، أتاحت قيام زراعة مزدهرة، انعكست على وفرة الغذاء وتحسن مستوى المعيشة⁽³⁾. غير أن هذا الاستقرار كان هشاً، إذ سرعان ما كانت تعصف به موجات الحروب، فتحوّل المجتمع من حالة الرخاء إلى حالة التأهب والقلق.

(1) ديوان ابن الأبار، تحقيق إحسان عباس، ص145.

(2) يُنظر: فجر الاندلس، حسين مؤنس، ص298.

(3) يُنظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ص313.

ومن أبرز سمات المجتمع الشنتريني أنه كان مجتمعاً "مرابطاً"، يعيش على تماس دائم مع الخطر، وهو ما أضفى على سلوك أفراده طابعاً مزدوجاً يجمع بين البساطة والصرامة. فالفلاح قد يتحول إلى مقاتل، والتاجر إلى مدافع عن الأسوار، في مشهد يعكس اندماج الوظائف الاجتماعية تحت ضغط الواقع العسكري⁽¹⁾. وقد أدى ذلك إلى بروز قيم التضامن والتكافل، حيث كانت الأزمات تُواجه بروح جماعية، تتجلى في تقاسم الموارد وفتح البيوت للنازحين.

ولم تكن الهجرة بعيدة عن هذا المشهد، بل شكّلت أحد أبرز الظواهر الاجتماعية في تاريخشنترين، خاصة في فترات اشتداد الهجمات النصرانية. فقد شهدت المدينة موجات نزوح متبادلة؛ إذ كانت تستقبل اللاجئين من المدن الساقطة، وفي الوقت ذاته كانت تُصدّر أبناءها من العلماء والشعراء إلى حواضر أكثر أمناً مثل إشبيلية وقرطبة⁽²⁾.

وقد ترك هذا الترحال القسري أثراً بالغاً في الوجدان الجمعي، حيث نشأ أدب خاص بالحنين والاغتراب.

ويبرز هذا الشعور بوضوح في شعر أبي البقاء الرندي الذي صوّر الاغتراب بوصفه تجربة وجودية قاسية، حيث يقول:

لمثل هذا يذوبُ القلب من كمد إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانٌ

تعكس هذه الأبيات فلسفة التشاؤم التاريخي التي بدأت تتسلل إلى الوعي الأندلسي، حيث لم يعد الاستقرار أمراً مضموناً، بل أصبح مؤقتاً وعرضة للزوال⁽³⁾. وهذا الإدراك العميق بفناء العمران كان نتيجة مباشرة لتجربة المدن الثغرية، ومنها شنترين، التي عاشت على حافة السقوط.

أما المرأة في شنترين، فقد كان لها دور مهم، وإن لم تسلط عليه المصادر الضوء الكافي. فقد شاركت في الحياة الاقتصادية، خاصة في الأعمال الزراعية، كما اضطلعت بدور أساسي في

(1) يُنظر: نفح الطيب، المغربي، ج1، ص187.

(2) يُنظر: كتاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج4، ص536.

(3) ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، ص312.

الحفاظ على تماسك الأسرة في ظل غياب الرجال بسبب الحروب⁽¹⁾. ولم يقتصر دورها على الجانب المادي، بل كانت أيضاً حافظة للذاكرة الثقافية، تنقل القصص والتقاليد، وتسهم في ترسيخ الهوية الاجتماعية.

وقد انعكست هذه الأوضاع على البناء النفسي للمجتمع، حيث نشأت حالة من التوتر الدائم بين الأمل والخوف، بين التمسك بالحياة والاستعداد للفقد. وهو ما جعل الأدب الشنتريني - وإن لم يصلنا منه الكثير بشكل مستقل - جزءاً من التيار العام للأدب الأندلسي الذي اتسم في مراحله المتأخرة بطابع رثائي واضح.

وفي هذا السياق، نجد أن شعر أبو البقاء الرندي يعكس صورة المدينة بوصفها كائناً حياً يُن تحت وطأة الزمن، حيث يقول في وصف حال الأندلس:

وهذه الدار لا تبقى على أحدٍ ولا يدوم على حالٍ لها شأنٌ

وإن كانت هذه الصورة تعميمية، إلا أنها تعبر بدقة عن الحالة الشعورية التي عاشتها مدن مثل شنترين، حيث لم يعد الفقد مجرد حدث عابر، بل أصبح حالة دائمة تتكرر مع كل هجمة أو حصار⁽²⁾.

ومن زاوية أخرى، يمكن القول إن المجتمع الشنتريني قد طوّر نوعاً من "الثقافة الدفاعية"، التي تجلت في سلوكياته اليومية، وفي اهتمامه ببناء الحصون وتعزيز الأمن، وحتى في احتفالاته التي كانت تمتزج فيها مظاهر الفرح بروح الحذر. ففي أوقات السلم، كانت تقام المناسبات

(1) يُنظر: ترتيب المدارك وتضريب الممالك لمعرفة اعلام مذهب مالك، القاضي عياض بن موسى بن عياض البستي، ت: محمد بن تاويت الطنجي، ط2، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج2، ص163، ص438.

(2) نفح الطيب المقري، ج4، ص487-488، ت: د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، سنة 1968م.

والأعياد، وتُلقى الأشعار، وتُعقد المجالس الأدبية، لكن هذه المظاهر كانت دائماً مهددة بالانقطاع بسبب تقلب الأوضاع⁽¹⁾.

الحياة العلمية والأدبية في شنترين

لم يكن الطابع العسكري الذي وسم مدينة شنترين حاجزاً أمام تشكّل حياة علمية وأدبية فاعلة، بل لعلّ هذا الطابع نفسه كان من العوامل التي دفعت إلى تعزيز النشاط الثقافي فيها، بوصفه وسيلةً للمحافظة على الهوية الإسلامية في بيئةٍ تعيش حالة صراع دائم. فقد تحولت المساجد في المدينة إلى مراكز إشعاع علمي، لم تقتصر وظيفتها على أداء الشعائر، بل تعدتها إلى احتضان حلقات الدرس في الفقه والحديث واللغة، وهو ما تؤكدته الإشارات الواردة في كتب التراجم التي تحدثت عن ارتحال العلماء إلى هذه المدينة ومنها⁽²⁾.

وقد أسهم موقع شنترين، رغم كونه ثغرياً، في ربطها بشبكة التبادل العلمي في الأندلس، حيث كانت صلتها قائمة بحواضر كبرى مثل قرطبة وإشبيلية، مما أتاح انتقال المعرفة وتداولها. ولم يكن هذا التواصل أحادياً، بل شارك علماء شنترين أنفسهم في هذا الحراك، فانقلوا إلى تلك الحواضر وأسهموا في إثرائها، وهو ما يعكس حيوية الحياة العلمية في المدينة رغم التحديات⁽³⁾. ومن جهة أخرى، فإن البيئة الاجتماعية بما فيها من تنوع سكاني وتمازج ثقافي - قد وفرت أرضية خصبة لنشوء ظاهرة المثاقفة، حيث تفاعلت العناصر العربية والبربرية والمولدة في إنتاج

(1) ينظر: الطيب المقرّيش، ج1، 220؛ وكذلك ينظر: المطرب من اشعار اهل المغرب، ابن دحية الكلبي، ص23، 87.

(2) يُنظر: الصلة، ابن بشكوال، ج1، ص640-642؛ الديباج المذهب، لابن فرحون، ج2، ص269.

(3) يُنظر: تاريخ الفكر الأندلسي، أنخيل جنثالالبالينثيا، ترجمة حسين مؤنس، ص188.

ثقافي مشترك. ولم يكن هذا التفاعل سطحياً، بل كان عميقاً إلى درجة أنه أعاد تشكيل الذائقة الأدبية، وأنتج خطاباً شعرياً يجمع بين الأصالة العربية والتجربة الأندلسية الخاصة⁽¹⁾.

وفي هذا السياق، يمكن أن نفهم كيف تحولت شنترين، رغم موقعها الحدودي، إلى فضاء أدبي يعكس التحولات الكبرى التي عاشها المجتمع الأندلسي. فالشعر فيها لم يكن ترفاً فنياً، بل كان استجابة مباشرة للواقع، حيث عبّر عن الحروب، والحصار، والحنين، والفقد. ونشير إلى هذه النقطة حين بيّن أن الأدب الشنتريني كان سجلاً لمشاعر المجتمع، وهو ما يمكن تعزيزه من خلال قراءة أوسع للنصوص الشعرية الأندلسية.

ففي شعر ابن ابو البقاء الرندي نجد تصويراً مكثفاً لمأساة المدن المهددة، حيث يقول:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ فَلَا يُغَرُّ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ

وهذه الأبيات، وإن قيلت في سياق عام، إلا أنها تنطبق تماماً على واقع المدن الثغرية مثل شنترين، التي عاشت حالة دائمة من القلق الوجودي⁽²⁾. كما أن هذا الإحساس بالزوال لم يكن مجرد فكرة فلسفية، بل كان تجربة يومية يعيشها السكان في ظل التهديد المستمر.

ولم يقتصر النشاط الأدبي على الشعر، بل شمل أيضاً المجالس العلمية والأدبية التي كانت تُعقد في المساجد أو في بيوت الأعيان، حيث يتداول فيها الأدب، وتُناقش القضايا الفكرية، وتُلقى الأشعار. وقد أسهمت هذه المجالس في ترسيخ تقاليد ثقافية حافظت على استمرارية الهوية الأندلسية، حتى في الفترات التي كانت فيها المدينة مهددة بالسقوط⁽³⁾.

ومن خلال الربط بين "المجتمع المرابط" وبين هذه الحياة الأدبية، يمكن القول إن الأدب في شنترين كان يؤدي وظيفة مزدوجة: فهو من جهة وسيلة للتعبير الجمالي، ومن جهة أخرى أداة

(1) ينظر: فجر الأندلس، حسين مؤنس، ص 298.

(2) يُنظر: نفح الطيب المقري، ج 4، ص 487.

(3) يُنظر: الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، محمد رزوق، ص 92.

للمقاومة الثقافية، حيث يسهم في تثبيت القيم، وبث روح الصمود، ومواجهة الإحباط الناتج عن الهزائم المتكررة.

كما أن ظاهرة النزوح كان لها أثر مباشر في نقل هذا الأدب إلى خارج المدينة، حيث حمل الشعراء معهم تجربة شنترين إلى حواضر أخرى، مما ساعد في تعميم النموذج الشعري المرتبط بالمدن الثغرية. وهنا يمكن أن نلاحظ بوضوح كيف تحولت التجربة المحلية إلى ظاهرة أدبية عامة في الأندلس.

وفي هذا الإطار يبرز شعر الكاتب ابن عبدون معبراً عن حالته النفسية المحبطة بعد ضياع الوطن والسكان الذي له فيه ذكريات فخو يرثي دولة بني الأفطس فيقول

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

فلا تغرنك من دنياك نومتها فما صناعة عينيها سوى السهر

تعكس هذه الصورة الشعرية فكرة الانقطاع الحضاري، حيث تتحول المدينة من فضاء نابض بالحياة إلى أطلال صامتة، وبعض مرافق المدينة تحولت إلى كنائس بعد سقوطها، في دلالة على التغير الجذري في الهوية⁽¹⁾.

الموقع والأهمية والاقتصاد

يحتلّ الموقع الجغرافي لمدينة شنترين مكانةً محوريةً في تفسير دورها الحضاري في الغرب الأندلسي، إذ تقع على الضفة اليسرى لنهر تاجه، شمال شرقي أشبونة، وهو موقع منحها خصائص مزدوجة جمعت بين الحصانة الطبيعية والخصب الاقتصادي في آنٍ واحد⁽²⁾. ولم

(1) يُنظر: شرح قصيدة ابن عبدون، عبد الملك السبتي، مطبعة الساعدة، القاهرة، ط1، 1340هـ، ص9-11.

(2) يُنظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، ص313.

يكن اختيار هذا الموضوع اعتباطياً، بل يعكس وعياً استراتيجياً مبكراً بأهمية السيطرة على مجاري الأنهار الكبرى، لما توفره من موارد مائية ووسائل دفاعية طبيعية.

وقد أقيمت المدينة، على مرتفع جبلي شاهق، جعل منها حصناً طبيعياً يستعصي على الاقتحام، حتى وصفها الجغرافيون بأنها قلعة قائمة بذاتها، لا تحتاج في كثير من جهاتها إلى تحصينات صناعية⁽¹⁾. وهذه الخاصية لم تمنحها القوة العسكرية فحسب، بل أسهمت أيضاً في تشكيل وعي جمعي لدى سكانها قائم على الإحساس بالأمان النسبي، وإن كان هذا الإحساس يتعرض للاهتزاز مع اشتداد الصراعات.

ولعلّ ما يميز شنترين، هو هذا التداخل الفريد بين الطبيعة الحصينة والبيئة الخضراء؛ إذ لم تكن مجرد قلعة عسكرية جافة، بل كانت محاطة ببساتين وغابات زيتون، مما أضفى عليها طابعاً جمالياً انعكس في وصف الجغرافيين لها بوصفها من "أطيب بقاع الأرض"⁽²⁾. وهذا الجمع بين الجمال والمنعة يمثل أحد ملامح الشخصية الأندلسية التي استطاعت التوفيق بين متطلبات الدفاع وضرورات العيش الكريم.

أما من الناحية العسكرية، فقد أدّت شنترين دور "بوابة الغرب"، وهو الوصف الذي يعكس أهميتها الاستراتيجية في حماية الحدود الغربية للأندلس، حيث كانت تشكل خط الدفاع الأول في مواجهة التوسع النصراني⁽³⁾. وقد جعلها هذا الموقع مركزاً دائماً للحشود العسكرية، وقاعدة لانطلاق الحملات، وهو ما أضفى على حياتها طابعاً حربياً مستمراً.

وقد تجسدت هذه الأهمية في وجود "القصبة" التي أشرنا إليها، والتي شُيّدت على أعلى ربوة في المدينة، لتكون مركز القيادة والسيطرة، ومقراً للحاكم، ونقطة مراقبة استراتيجية تتيح الإشراف

(1) يُنظر: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري، ج4، ص279.

(2) يُنظر: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي، ج2، ص550.

(3) يُنظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، يوسف أشباخ، ج2، ص74.

على التحركات العسكرية في المنطقة⁽¹⁾. ولم تكن القصبية مجرد بناء معماري، بل كانت رمزاً لسلطة الدولة، وتجسيدا لحضورها في هذا الثغر الحساس.

والى جانب هذا الدور العسكري، شهدت شنترين ازدهاراً اقتصادياً ملحوظاً، كان أساسه نهر تاجه الذي لعب دوراً محورياً في تشكيل الحياة الزراعية في المدينة. فقد كان النهر يفيض على بطحاء المدينة في ظاهرة شبهها المؤرخون بفيض نيل مصر، وهو تشبيه بالغ الدلالة، يعكس حجم العطاء الذي وفره هذا النهر للأراضي الزراعية⁽²⁾. وقد أتاح هذا الفيض زراعة المحاصيل في غير مواسمها المعتادة، مما منح المدينة ميزة اقتصادية فريدة مقارنة بغيرها من المدن.

وقد انعكس هذا الازدهار في جودة المنتجات الزراعية، حيث اشتهرت شنترين بالقمح والشعير، فضلاً عن الفواكه، خاصة التفاح الذي عُرف بكبر حجمه وحلاوة مذاقه، وهو ما يشير إلى مستوى متقدم من العناية بالزراعة واستثمار الموارد الطبيعية⁽³⁾. ولم تكن هذه المنتجات موجهة للاستهلاك المحلي فحسب، بل أسهمت في تنشيط الحركة التجارية وربط المدينة بشبكات التبادل في الأندلس وخارجها.

ومن أبرز ما تميزت به شنترين، مورد “العنبر” الذي كانت تقذفه سواحلها، وهو من السلع النفيسة التي كانت تحظى بقيمة عالية في الأسواق، حيث كان يُباع بأسعار مرتفعة تصل إلى عشرة دنانير للأوقية الواحدة⁽⁴⁾. وقد أدى ذلك إلى إدخال المدينة في دائرة التجارة الدولية، حيث كان العنبر يُصدّر إلى مصر وغيرها من بلاد المشرق.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل برع أهل شنترين في صناعة المنسوجات الفاخرة، خاصة ثياب “البقلمون” التي كانت تُنسج من وبر دابة بحرية، وتمتاز بنعومة فائقة وتغير ألوانها بحسب

(1) يُنظر: دول الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان، ص 515.

(2) يُنظر: صفة جزيرة الأندلس/ محمد عبدالله الحميري، ص 122.

(3) ينظر: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، د. عصمت

عبداللطيف دندش، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1988، ص 166-167.

(4) يُنظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج 1، ص 143-144.

الضوء، حتى قيل إن ثمن الثوب الواحد منها قد يتجاوز ألف دينار⁽¹⁾، وهذا يدل على مستوى رفيع من المهارة الصناعية، كما يعكس ذوقاً حضارياً راقياً.

إن هذا التكامل بين الزراعة والصناعة والتجارة جعل من شنترين مركزاً اقتصادياً مهماً، يرفد خزانة الدولة الأندلسية بإيرادات معتبرة، وهو ما أشرنا إليه بوضوح. ولم يكن هذا الازدهار منفصلاً عن دورها العسكري، بل كان أحد العوامل التي جعلتها هدفاً دائماً للصراع، حيث اجتمعت فيها أسباب القوة التي تطمح بها القوى المتنافسة.

وقد انعكس هذا التداخل بين الازدهار والخطر في الأدب الأندلسي، حيث ظهرت صورة المدينة بوصفها فضاءً مهدداً رغم جماله. ويبرز هذا المعنى في شعر ابن خفاجة الذي يقول:

يا روضةً طالما ألهمت محاسنها عيوننا عن عيون الدهر ترقبنا

تعكس هذه الصورة مفارقة لافتة، حيث يجتمع الجمال مع التهديد، وهو ما ينطبق تماماً على شنترين التي كانت تعيش بين نعمة الطبيعة وخطر السقوط⁽²⁾.

الأهمية العسكرية وأحداث 580هـ ويعقوب المنصور

تمثل مدينة شنترين في البنية العسكرية للأندلس نموذجاً واضحاً لما يُعرف في الدراسات التاريخية بمفهوم "الثغر الغربي"، أي المدينة التي تقع على خطوط التماس المباشر مع العدو النصراني، وتتحمل وظيفة مزدوجة تقوم على الدفاع والهجوم في آن واحد⁽³⁾. فقد لم يكن موقعها مجرد امتياز جغرافي، بل تحوّل إلى عبء استراتيجي دائم، يجعلها في حالة تعبئة عسكرية شبه مستمرة، وهو ما منحها أهمية استثنائية في الحسابات السياسية للدول المتعاقبة على حكم الأندلس.

(1) يُنظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ج2، ص138.

(2) ديوان ابن خفاجة، تحقيق إحسان عباس، ص88.

(3) يُنظر: الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، محمد رزوق، ص89.

وقد أسهم موقعها المطل على نهر تاجه، وتحصينها الطبيعي فوق المرتفعات، في جعلها قاعدة دفاعية متقدمة يصعب اقتحامها بسهولة، لكنها في الوقت نفسه كانت مكشوفة من جهة الأطراف الغربية التي كانت تشهد ضغطاً متزايداً من الممالك المسيحية الصاعدة⁽¹⁾. ومن هنا، أصبحت شنترين حلقة مركزية في منظومة الدفاع الأندلسية، ترتبط مباشرة بمصير المدن المجاورة، بحيث إن سقوطها يعني اختلال التوازن العسكري في غرب الأندلس بأكمله.

ومع تصاعد الصراع في القرن السادس الهجري، دخلت المدينة مرحلة حرجية من تاريخها، خاصة في ظل التحولات التي شهدتها دولة الموحدين، حيث أخذ الضغط النصراني يتزايد على الثغور الغربية، وبدأت سلسلة من الحملات العسكرية تستهدف المدن الحصينة الواحدة تلو الأخرى⁽²⁾. وفي هذا السياق برزت أحداث سنة 580هـ بوصفها نقطة تحول حاسمة، إذ شهدت المنطقة المحيطة بشنترين اشتباكات عنيفة قادها الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن، الذي خرج في حملة عسكرية واسعة لإعادة فرض السيطرة على الثغور الغربية.

وتشير الروايات التاريخية إلى أن هذا الخليفة تعرض لإصابة بالغة أثناء العمليات العسكرية، وهي الإصابة التي أدت لاحقاً إلى تدهور حالته الصحية ووفاته⁽³⁾. وقد اختلف المؤرخون في تفاصيل هذه الواقعة، إلا أنهم أجمعوا على أن الحملة حول شنترين كانت من أكثر الحملات إيلاًماً لدولة الموحدين، سواء من حيث الخسائر البشرية أو من حيث أثرها السياسي.

وقد تركت هذه الحادثة أثراً عميقاً في الوعي التاريخي الأندلسي، إذ لم تُقرأ بوصفها حدثاً عسكرياً فقط، بل بوصفها علامة على اهتزاز التوازن بين القوى الإسلامية والمسيحية في الغرب

(1) يُنظر: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري، ج4، ص279.

(2) يُنظر: دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، ج2، ص215.

(3) ينظر: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ابن أبي زرع الفاسي، ص207.

الأندلسي. كما انعكس هذا الحدث في الخطاب الأدبي، حيث بدأ الشعراء في توظيف صورة "القائد الجريح تحت أسوار المدينة" بوصفها رمزاً لانكسار الدولة أمام ضغط التاريخ⁽¹⁾.

يقول ابن دارج القسطلي:

اليك منك فرار الخائف الوجل وفي يدك امان الفارس البطل

وكذلك يقول:

الحاكمون بحكم الله إن حكموا والمؤثرون بسيف الله إن زحفوا

ومع انتقال الحكم إلى يعقوب المنصور، دخلت قضية شنترين مرحلة جديدة من التصعيد العسكري، إذ تبنى المنصور سياسة تقوم على إعادة الاعتبار العسكري للدولة، خاصة بعد ما اعتبره جرحاً رمزياً أصاب شرعيتها في أحداث 580هـ. ولذلك وجّه اهتمامه المباشر نحو الثغور الغربية، وجعل من شنترين هدفاً استراتيجياً في مشروعه العسكري⁽²⁾.

وقد اعتمد المنصور في حملاته على خطة عسكرية مزدوجة تقوم على:

- تطويق المدن المستهدفة من البر والبحر
- استنزاف الموارد الزراعية عبر سياسة "الأرض المحروقة"
- عزل المدن عن محيطها الاقتصادي تمهيداً لإسقاطها⁽³⁾.

(1) يُنظر: عامريات ابن دارج، وسام قباني، وزارة الثقافة/الهيئة العامة السورية للكتاب، 2011، ص310.

(2) يُنظر: رحلة الاندلس، حسين مؤنس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، 1985، ص312.

(3) ينظر: المغرب والاندلس في عهدي المنصور المهدي، دراسة تاريخية وحضارية، ليلي احمد نجار، جامعة ام القرى، مكة المكرمة، ص217.

وهذه الاستراتيجية تمثل تطوراً في الفكر العسكري الأندلسي، إذ لم تعد الحرب قائمة على المواجهة المباشرة فقط، بل أصبحت حرب استنزاف طويلة المدى تستهدف البنية الاقتصادية والاجتماعية للمدينة.

وفي حالة شنترين تحديداً، تشير المصادر إلى أن الضربات التي تعرضت لها لم تكن عسكرية فحسب، بل اقتصادية أيضاً، إذ جرى تخريب المزارع المحيطة بها، وإتلاف المحاصيل الزراعية التي كانت تشكل مصدر قوتها الأساسي، مما أدى إلى إضعاف قدرتها على الصمود⁽¹⁾.

وقد أدت هذه السياسات إلى تحول المدينة من مركز اقتصادي مزدهر إلى فضاء مضطرب يعيش حالة حصار دائم، وهو ما انعكس بشكل مباشر على المجتمع، حيث بدأت موجات النزوح تتزايد، وظهرت علامات الانهيار التدريجي في بنيتها العمرانية والاجتماعية.

وفي هذا السياق، برزت صورة "المدينة المحاصرة" في الأدب الأندلسي بوصفها رمزاً للوجود المهتدد، حيث لم يعد المكان مجرد جغرافيا، بل أصبح كائناً يعيش الألم. ويظهر هذا المعنى في شعر ابن الأبار القضاعي الذي يقول⁽²⁾:

دُنْيَايَ إِنِّي عَلَى الْآيَامِ أُنْدُبُهَا كَأَنَّ كُلَّ ثَرَى فِيهَا يُنَادِينِي

تعكس هذه الأبيات حالة الوعي الجمعي بالألم التاريخي، حيث تتحول المدينة إلى كيان حي يُخاطَب ويُرثى، في دلالة على عمق الارتباط بين الإنسان والمكان في التجربة الأندلسية.

ومن ثمّ يمكن القول إن شنترين لم تكن مجرد موقع عسكري، بل كانت مختبراً تاريخياً لتجربة الأندلس في صراعها الطويل مع التحولات السياسية الكبرى، حيث تداخل فيها العسكري بالاقتصادي، والسياسي بالثقافي، لتنتج نموذجاً حضارياً معقداً يعكس طبيعة العصر.

الحياة الاجتماعية في مدينة شنترين

(1) يُنظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ص313.

(2) ديوان ابن الأبار، تحقيق إحسان عباس، ص145.

تشكل الحياة الاجتماعية في مدينة شنترين أحد أهم المداخل لفهم طبيعة هذه الحاضرة الأندلسية، إذ لم تكن مجرد ثغر عسكري، بل كانت مجتمعاً حيوياً متكاملًا، تشكل عبر تفاعل عناصر بشرية وثقافية متعددة، انعكست في بنيته السكانية ونسيجه الاجتماعي. أن المدينة احتضنت منذ وقت مبكر مزيجاً من العرب والبربر والمولدين، وهم السكان الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام، إلى جانب فئات أخرى كالصقالبة، وهو ما أوجد ما يمكن وصفه بـ “الفسيفساء الاجتماعية” التي تميزت بها مدن الغرب الأندلسي⁽¹⁾.

ولم يكن هذا التنوع السكاني مجرد تعدد عددي، بل كان تداخلاً ثقافياً حقيقياً أسهم في تشكيل هوية المدينة، حيث تفاعلت هذه العناصر ضمن إطار حضاري إسلامي مشترك، أدى إلى نشوء مجتمع متماسك رغم اختلاف أصوله. وقد أتاح هذا التعدد تبادلاً واسعاً في الخبرات، خاصة في مجالات الزراعة والصناعة، بوصفه عاملاً في تعزيز الاستقرار الاجتماعي⁽²⁾.

ومن خلال هذا التداخل، تشكل النسيج الاجتماعي لشنترين بوصفه بنية مرنة قادرة على التكيف مع الظروف المتغيرة، خاصة في ظل الضغوط العسكرية التي كانت تفرض نفسها على الحياة اليومية. فقد كان المجتمع، كما ورد في النص، مجتمعاً “مرابطاً”، حيث لم يكن الفصل واضحاً بين الأدوار الاجتماعية؛ فالفلاح قد يحمل السلاح، والتاجر قد يشارك في الدفاع عن المدينة، وهو ما يعكس درجة عالية من التماسك الاجتماعي⁽³⁾.

كما أن العلاقة بين الإنسان والمكان لعبت دوراً محورياً في تشكيل هذا النسيج، إذ لم يكن المكان مجرد إطار جغرافي، بل كان عنصراً فاعلاً في صياغة الهوية الاجتماعية. فالبيئة الطبيعية الخصبة، إلى جانب الحصانة الجبلية، أسهمت في خلق نمط معيشة يجمع بين

(1) يُنظر: فجر الأندلس، حسين مؤنس، ص298.

(2) الابداع الحضاري للمسلمين في الاندلس في عهدي الامارة والخلافة، مجدي خليلي محمد، رسالة ماجستير، 2014، ص146.

(3) يُنظر: الآثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، محمد عبدالله عنان، ص425.

الاستقرار الاقتصادي والحذر العسكري، وهو ما أفرز ما يمكن تسميته بـ “الهوية الشنترينية” التي تقوم على التوازن بين الرفاهية والمنعة⁽¹⁾.

غير أن هذا التوازن لم يكن ثابتاً، إذ سرعان ما كانت تتعرض لهزات عنيفة نتيجة التحولات السياسية والعسكرية. بوضوح إلى أن وقوع شنترين في منطقة تماس جعل من القلق سمةً دائمة في حياة سكانها، حيث عاشوا في ظل تهديد مستمر، وهو ما انعكس على سلوكهم اليومي، وعلى منظومة القيم التي حكمت علاقاتهم الاجتماعية⁽²⁾.

ومن أبرز مظاهر هذا التأثير الاجتماعي ظاهرة النزوح والهجرة، التي كانت نتيجة مباشرة للضغوط العسكرية المتزايدة. فقد استقبلت المدينة موجات من الفارين من المدن المجاورة، وفي الوقت نفسه شهدت خروج عدد من علمائها وأعيانها نحو مدن أكثر أمناً، وهو ما خلق حركة سكانية مستمرة أثرت في استقرارها الداخلي⁽³⁾. وقد أدى هذا الترحال إلى نشوء حالة من الاغتراب النفسي، تجلت في الأدب الأندلسي، خاصة في شعر الحنين إلى الديار.

ويظهر هذا المعنى في شعر ابن دراج القسطلي الذي عبّر عن فقد المكان بوصفه فقداً للهوية، حيث يقول⁽⁴⁾:

أضاء لها فجر النهى فنهاها — عن الدنف المضنى بحر هواها

إلى يقول : فيا للشباب الغض أنهج بردهً ويا لرياض اللهو جف سقاها

(1) أثر الهوية الثقافية في غرب الأندلس، شيماء عبد الحميد، كلية الآداب، جامعة الدمنهور، ص151.

(2) يُنظر: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبدالله عنان، ص425.

(3) يُنظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج1، ص145.

(4) ديوان ابن دراج القسطلي، ت محمود علي مكي، المكتبة الإسلامية، 10 - 11 .

وتعكس هذه الصورة ما أشار إليه النص من تحوّل المدينة في بعض مراحلها إلى فضاء مهدد، يفقد تدريجياً ملامحه الحضارية، وهو ما يجعل من الأدب وثيقةً موازيةً للتاريخ، تكشف عن البعد الإنساني للأحداث⁽¹⁾.

أما المرأة في المجتمع الشنتريني، فقد كان لها حضور فاعل، وإن لم تفصله المصادر بشكل موسع، إلا أن الإشارات الواردة تدل على مشاركتها في الحياة الاقتصادية، خاصة في الأعمال الزراعية، فضلاً عن دورها في الحفاظ على تماسك الأسرة في ظل غياب الرجال بسبب الحروب⁽²⁾. كما كانت المرأة حاملةً للذاكرة الثقافية، تنقل التقاليد وتعيد إنتاجها في الأجيال اللاحقة.

وقد انعكس هذا كله على البناء النفسي للمجتمع، حيث نشأت حالة من التوتر بين الاستقرار والتهديد، وبين الانتماء والخوف من الفقد. وهذا ما يفسر ظهور النزعة الرثائية في الأدب الأندلسي المرتبط بالمدن الثغرية، حيث لم يعد الحزن مرتبطاً بفقد الأشخاص فقط، بل امتد ليشمل فقد المكان ذاته، وفي هذا السياق، يمكن استحضار شعر أبو حيان الغرناطي الذي صوّر المدن الأندلسية في لحظات الانكسار، قائلاً⁽³⁾:

يا فرقة أبدلتني بالسُرور أسي وأسهرت ناظراً قد طالما نَعَسَا
أنى يكونُ إجتماعُ بين مُفترِقٍ جسمٌ بِمِصرَ وَروحٌ حلَّ أُنْدُلُسَا

وهي صورة تتقاطع مع ما ورد من تحوّل بعض مرافق المدينة إلى كنائس بعد سقوطها، في دلالة على التغير العميق الذي أصاب بنيتها الحضارية.

(1) يُنظر: الادب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، احمد هيكل، ص312.

(2) يُنظر: الصلة، ابن بشكوال، ج2، ص612.

(3) درة الجمال في أسماء الرجال، ابن القاضي المنكاسي، ت: د. محمد الاحمدي أبو النور، ط1، ج2، ص122.

ومن هنا، يتضح أن الحياة الاجتماعية في شنترين لم تكن منفصلة عن السياق السياسي والعسكري، بل كانت جزءاً منه، تتأثر به وتؤثر فيه، مما يجعل من دراستها مدخلاً ضرورياً لفهم طبيعة المجتمع الأندلسي في الثغور، وكيف استطاع أن يحافظ على تماسكه رغم التحديات المتلاحقة.

التنظيم العمراني والمرافق والحياة اليومية في شنترين

يعكس التنظيم العمراني في مدينة شنترين، طبيعة الدور المزدوج الذي اضطلعت به المدينة بوصفها حاضرة مدنية وثغراً عسكرياً في آن واحد، إذ لم يكن عمرانها مجرد استجابة لحاجات السكن والمعيشة، بل كان انعكاساً مباشراً لوظيفتها الدفاعية وموقعها الاستراتيجي⁽¹⁾. وقد تجلّى هذا التداخل بوضوح في بنية المدينة التي توزعت بين "القصب" بوصفها مركز السلطة والتحصين، وبين الأحياء السكنية التي احتضنت النشاط اليومي للسكان.

فقد شُيّدت القصب، فوق أعلى ربوة في المدينة، لتكون مركز القيادة والإدارة، وموقعاً لمراقبة التحركات العسكرية، وهو ما يعكس وعياً عمرانياً يقوم على استثمار التضاريس الطبيعية في خدمة الأغراض الدفاعية⁽²⁾. ولم تكن هذه البنية معزولة عن باقي المدينة، بل كانت تشكّل قلبها النابض الذي تتفرع منه بقية المرافق.

أما الأحياء السكنية، فقد جاءت متراسة ومنسجمة مع طبيعة المكان الجبلية، حيث استغل المعمارون الانحدارات والمرتفعات في توزيع المباني، بما يحقق أقصى درجات الحماية والاستفادة من المساحة⁽³⁾. وقد أضفى هذا التنظيم طابعاً خاصاً على المدينة، يجمع بين الجمال الأندلسي والصرامة العسكرية، وتكون نتيجة لتكيف الإنسان مع بيئته.

(1) يُنظر: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله عنان، ص425.

(2) يُنظر: دولة الاسلام في الاندلس، محمد عبد الله عنان، ج1، ص517.

(3) يُنظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ص346.

وفيما يتعلق بالمرافق العامة، فقد ضمت شنترين، مساجد جامعة كانت تمثل مراكز دينية وعلمية، إضافة إلى الحمامات العامة التي تعكس مستوى من الرفاه الحضاري، والأسواق التي كانت تنظم النشاط الاقتصادي وتربط المدينة بمحيطها التجاري⁽¹⁾. ولم تكن هذه المرافق مجرد منشآت خدمية، بل كانت فضاءات اجتماعية تتشكل فيها العلاقات اليومية، وتُبنى من خلالها شبكة التفاعل بين أفراد المجتمع.

غير أن هذا الاستقرار العمراني لم يكن دائماً، إذ تأثر بشكل مباشر بالصراعات العسكرية التي شهدتها المدينة. فقد تحول الاهتمام، في فترات التهديد، من التوسع العمراني إلى تعزيز التحصينات، حيث جرى تدعيم الأسوار وحفر الخنادق، وهو ما يعكس ما يمكن تسميته بـ "التحول الوظيفي للعمران" من الجمال إلى الضرورة الدفاعية⁽²⁾. وقد أدى ذلك إلى ظهور نمط عمراني يتسم بالصلابة والاقتصاد في البناء، بما يتلاءم مع ظروف الحصار.

ومن جهة أخرى، تكشف الحياة اليومية في شنترين، عن تداخل واضح بين النشاط الاقتصادي والاجتماعي، حيث كان السكان يمارسون حياتهم في ظل توازن دقيق بين العمل والاستعداد الدائم للخطر. فقد كانت الأسواق تعج بالحركة في أوقات السلم، وتتحول في أوقات الأزمات إلى مراكز لتوزيع الموارد ومساندة السكان، وهو ما يعكس روح التكافل التي ميزت المجتمع الشنتريني⁽³⁾.

كما أن الأعياد والمناسبات الاجتماعية لم تغب عن هذا الواقع، بل كانت تُقام في فترات الهدنة، حيث تُنظم الاحتفالات وتُلقى الأشعار، مستفيدة من خيرات البيئة الزراعية المحيطة بالمدينة. غير أن هذه المظاهر كانت تظل مهددة بالانقطاع في ظل التوتر السياسي، مما أضفى عليها طابعاً مؤقتاً يعكس هشاشة الاستقرار⁽⁴⁾.

(1) يُنظر: نفح الطيب، المقري، ص144.

(2) يُنظر: الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، محمد رزوق، ص92.

(3) يُنظر: المصدر نفسه، ص94.

(4) يُنظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج1، ص145.

وقد انعكست هذه الحياة المتقلبة في الأدب الأندلسي، حيث ظهرت صورة المدينة بوصفها فضاءً يجمع بين الفرح العابر والحزن المقيم. ويبرز هذا المعنى في شعر ابن خفاجة الذي صوّر الطبيعة الأندلسية في لحظات صفائها، لكنه لم يغفل عن الإشارة إلى ما يهددها من زوال، إذ يقول⁽¹⁾:

يا دار ما فعلت بك الأيام من حدثٍ حتى غدوتِ كأن لم تُسكني أبداً

وهي صورة تتقاطع مع ما ورد في نصك من تحوّل بعض مرافق المدينة، بعد فترات الصراع، إلى وظائف جديدة، بما في ذلك تحويل المساجد إلى كنائس، في دلالة على التغير الجذري الذي يصيب العمران عند تبدل السلطة⁽²⁾.

ومن هنا، يتضح أن التنظيم العمراني في شنترين لم يكن مجرد تخطيط مادي، بل كان تعبيراً عن حالة حضارية مركبة، تتداخل فيها عناصر الأمن والاقتصاد والاجتماع، وتنعكس فيها التحولات السياسية بشكل مباشر.

كما أن الحياة اليومية لسكانها كانت محكومة بهذا التداخل، حيث لم يكن بالإمكان فصل الخاص عن العام، ولا المدني عن العسكري.

وإذا كان التنظيم العمراني في شنترين قد عكس وظيفتها الدفاعية، فإنه في الوقت نفسه كشف عن مستوى متقدم من الوعي الحضاري الذي ساد مدن الأندلس، حيث لم يكن البناء مجرد استجابة آنية للظروف، بل كان تعبيراً عن رؤية متكاملة للحياة داخل المدينة، وأن توزيع المساكن والمرافق لم يكن عشوائياً، بل جاء منسجماً مع طبيعة الأرض، الأمر الذي يدل على إدراك عميق لعلاقة الإنسان بالمكان، وقدرته على تطويع البيئة لخدمة حاجاته المختلفة⁽³⁾.

(1) يُنظر: ديوانه: ص 81.

(2) يُنظر: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، فوزي سعد عيسى، ص 82.

(3) بناء فضاء المكان في القصة العربية القصيرة، حمد السيد إسماعيل، دولة الامارات العربية المتحدة، حكومة الشارقة، دار الثقافة والاعلام، 2002، ص 87.

ومن خلال قراءة هذا التنظيم، يمكن تلمس ملامح "المدينة الإسلامية" في بعدها الأندلسي، حيث تتجاور الوظائف الدينية والاقتصادية والاجتماعية في فضاء واحد متكامل. فالمسجد لم يكن مجرد مكان للعبادة، بل كان مركزاً للحياة اليومية، تُعقد فيه المجالس، وتُناقش القضايا، وتُداول فيه الأخبار، وهو ما يمنحه دوراً محورياً في تشكيل الوعي الجماعي للسكان⁽¹⁾. كما أن السوق، الذي أشار إليه نصك، لم يكن فضاءً اقتصادياً فقط، بل كان مجالاً للتفاعل الاجتماعي، حيث تلتقي الفئات المختلفة، وتتبادل الخبرات، وتتشكل العلاقات.

أما الحمامات العامة، فهي بدورها مؤشر على مستوى الرقي الحضاري، إذ تعكس اهتمام المجتمع بالنظافة والصحة، كما تمثل فضاءً اجتماعياً تتجلى فيه مظاهر الحياة اليومية، حيث يلتقي الناس بعيداً عن قيود العمل والحرب، وهو ما يساهم في تخفيف حدة التوتر التي تفرضها الظروف العسكرية⁽²⁾.

غير أن هذه الصورة المتكاملة للعمران لم تكن ثابتة، بل كانت عرضة للتحول المستمر بفعل الضغوط الخارجية. أن المدينة كانت تعيد تشكيل ذاتها تبعاً للظروف، حيث تتحول المرافق المدنية إلى وظائف دفاعية في أوقات الأزمات، وهو ما يعكس مرونة البنية العمرانية وقدرتها على التكيف. فالمنازل قد تتحول إلى نقاط مراقبة، والأسواق إلى مخازن للتأمين، والمساجد إلى مراكز تعبئة معنوية⁽³⁾.

ومن هنا، يمكن القول إن العمران في شنترين كان "عمراناً وظيفياً" بالدرجة الأولى، يتحدد شكله تبعاً لحاجات المجتمع، لا وفق معايير جمالية مجردة. ومع ذلك، لم تغب العناصر الجمالية، بل ظلت حاضرة في تفاصيل الحياة، خاصة في الحدائق والبساتين والتي كانت تحيط بالمدينة وتضفي عليها طابعاً من البهاء والراحة النفسية⁽⁴⁾.

(1) يُنظر: تاريخ الفكر الأندلسي، أنخيل جنثالينثيا، ترجمة حسين مؤنس، ص 188.

(2) يُنظر: نفح الطيب، المقرئ، ص 144.

(3) يُنظر: الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، محمد رزوق، ص 92.

(4) يُنظر: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي، ج 2، ص 550.

وقد أسهمت هذه البيئة الطبيعية في تشكيل نمط الحياة اليومية، حيث كان السكان يقضون أوقاتهم بين العمل في الزراعة، والتجارة في الأسواق، والمشاركة في الأنشطة الاجتماعية والدينية. ولم تكن هذه الأنشطة منفصلة، بل كانت متداخلة في سياق حياة متكاملة، تعكس وحدة المجتمع وتماسكه.

لكن هذه الحياة لم تكن تخلو من القلق، إذ فرضت الظروف العسكرية إيقاعاً خاصاً على الزمن اليومي للسكان، حيث كان الاستعداد للخطر جزءاً من الروتين اليومي. فقد يكون اليوم عادياً في بدايته، ثم يتحول فجأة إلى حالة طوارئ بسبب خبر عن هجوم أو حصار، وهو ما أوجد حالة من التوتر المستمر الذي انعكس على سلوك الأفراد وعلاقاتهم⁽¹⁾.

وقد عبّر الأدب الأندلسي عن هذه الحالة بدقة، حيث ظهرت صورة الزمن المتقلب، الذي لا يستقر على حال. ويبرز هذا المعنى في شعر ابن زيدون حين يقول⁽²⁾:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وإن كان هذا البيت في سياق غزلي، إلا أنه يحمل دلالة أوسع على حالة الفقد والتحول التي عاشها الأندلسيون، حيث لم يعد الاستقرار مضموناً، بل أصبح عرضة للتبدل المفاجئ.

ومن زاوية أخرى، تكشف الحياة اليومية في شنترين عن حضور واضح لقيم التضامن الاجتماعي، التي كانت ضرورة تفرضها طبيعة المرحلة. فقد كان السكان يتقاسمون الموارد في أوقات الشدة، ويقفون صفّاً واحداً في مواجهة الأخطار، وهو ما يعكس قوة النسيج الاجتماعي الذي أشار إليه نصك⁽³⁾.

ولم يكن هذا التضامن مجرد سلوك عابر، بل كان جزءاً من منظومة قيم ترسخت عبر التجربة التاريخية.

(1) يُنظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، عبد العزيز سالم، ص112.

(2) يُنظر: ديوان ابن زيدون، تحقيق يوسف فرحات، ص77.

(3) يُنظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج1، ص145.

كما أن التفاعل بين الفئات المختلفة داخل المدينة أسهم في خلق نوع من التوازن الاجتماعي، حيث لم تكن هناك عزلة بين الطبقات، بل كان هناك تداخل في الأدوار، خاصة في أوقات الأزمات، وهو ما جعل المجتمع أكثر قدرة على الصمود.

ومن هنا، يتضح أن الحياة اليومية في شنترين لم تكن مجرد تفاصيل معيشية، بل كانت تعبيراً عن حالة حضارية مركبة، تتداخل فيها عناصر الاستقرار والتهديد، والرفاه والحرمان، وهو ما يجعل دراستها مدخلاً لفهم أعمق لطبيعة المجتمع الأندلسي في مراحلها المتأخرة.

وإذا كانت المعطيات الجغرافية قد منحت مدينة شنترين موقعاً متميزاً في الغرب الأندلسي، فإن هذه الخصوصية المكانية لم تكن مجرد إطار ثابت للأحداث، بل كانت عاملاً فاعلاً في تشكيل مسارها التاريخي والحضاري. فقد تداخلت الجغرافيا مع السياسة، لتنتج واقعاً مركباً، جعل من المدينة نقطة التقاء بين الاستقرار والاضطراب، وبين الازدهار والتراجع، وهو ما انعكس بوضوح في مختلف مظاهر الحياة فيها⁽¹⁾.

فمن جهة، أتاح الموقع الطبيعي قيام اقتصاد زراعي مزدهر، مدعوم بموارد نهر تاجه، وهو ما وفر أساساً مادياً لنشوء مجتمع مستقر نسبياً. ومن جهة أخرى، جعل هذا الموقع ذاته من المدينة هدفاً دائماً للصراعات العسكرية، الأمر الذي أدخلها في دائرة التوتر المستمر، وأفقد هذا الاستقرار طابعه الدائم⁽²⁾. ومن هنا، نشأت تلك الثنائية التي وسمت تاريخ شنترين، حيث لم يكن الازدهار منفصلاً عن الخطر، ولا الأمن بعيداً عن التهديد.

وقد انعكست هذه الثنائية على البنية الاجتماعية، التي تشكلت - كما أشار النص - من عناصر متعددة اندمجت في إطار حضاري واحد، لتنتج نسيجاً اجتماعياً متماسكاً، رغم اختلاف أصوله. ولم يكن هذا التماسك وليد الصدفة، بل كان نتيجة تجربة تاريخية مشتركة فرضت على

(1) يُنظر: فجر الأندلس، حسين مؤنس، ص298.

(2) يُنظر: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي، ج2، ص550.

السكان التعاون والتكافل في مواجهة التحديات، وهو ما منح المجتمع قدرة على الصمود والاستمرار⁽¹⁾.

أما على المستوى العمراني، فقد تجسّد هذا التداخل في بنية المدينة ذاتها، حيث امتزجت الوظيفة الدفاعية بالمتطلبات المدنية، فظهرت القسبة إلى جانب الأحياء السكنية، والأسوار إلى جانب الأسواق، في صورة تعكس وحدة الحياة رغم تعدد وظائفها، وتتبين هذه السمّة بوضوح حين بيّنا كيف تحوّل العمران من مجرد فضاء للعيش إلى أداة من أدوات الدفاع، وهو ما يكشف عن مرونة عالية في التكيف مع الظروف⁽²⁾.

غير أن الأثر الأعظم لهذه التحولات يظهر في المجال الثقافي والأدبي، حيث لم يكن الأدب الأندلسي - كما يتضح من خلال الشواهد - منفصلاً عن واقع المدن الثغرية، بل كان انعكاساً مباشراً لها. فقد تحولت التجربة التاريخية لشنترين، بما فيها من صراع وازدهار وانكسار، إلى مادة شعرية غنية، عبّر من خلالها الشعراء عن مشاعر الحنين والفقد، وعن إدراك عميق لفناء العمران⁽³⁾.

وفي هذا السياق، يكتسب الشعر الأندلسي بعداً يتجاوز الجمالي إلى الوجودي، حيث لم يعد التعبير عن المكان مجرد وصف، بل أصبح استحضاراً له بوصفه جزءاً من الهوية. ويظهر هذا المعنى في كثير من النصوص التي تناولت المدن الأندلسية، حيث تتحول المدينة إلى كائن حي يُرثى ويُخاطب، في دلالة على عمق العلاقة بين الإنسان وفضائه الحضاري.

ومن خلال هذا الترابط بين الجغرافيا والسياسة والاجتماع والعمران والأدب، يمكن النظر إلى شنترين بوصفها نموذجاً مصغراً للتجربة الأندلسية في كليتها، حيث تتجلى فيها ملامح الحضارة

(1) يُنظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، عبد العزيز سالم، ص112.

(2) يُنظر: الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، محمد رزوق، ص92.

(3) يُنظر: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، أحمد هيك، ص312.

الإسلامية في الغرب، بكل ما حملته من قدرة على التكيف، وما واجهته من تحديات أدت في نهاية المطاف إلى تحولات جذرية في بنيتها.

وعلى هذا الأساس، فإن دراسة هذه المدينة - كما قدمنا - لا تقتصر على تتبع تاريخها، بل تتجاوز ذلك إلى الكشف عن آليات تشكل المجتمع الأندلسي، وطبيعة علاقته بالمكان، وكيفية تعبيره عن ذاته في لحظات القوة والضعف على حد سواء. وهو ما يجعل من شنترين ليس مجرد موضوع تاريخي، بل مدخلاً لفهم أعمق للثقافة الأندلسية.

الفصل الأول

المكانة العلمية والفكرية
وأهم أعلام المدينة

المبحث الأول: المكانة العلمية والفكرية

إنَّ الطبيعة الجغرافية ساعدت على ازدهار الحركة العلمية فيها إذ كانت منطقة ثغرية مواجهة لأعداء المسلمين طيلة تلك المدة، فكان يرتادها العديد من العلماء بقصد المراقبة فيها للجهاد، ولو ((لم يكن للأندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد لكان كافياً))⁽¹⁾، وبسبب موقعها الذي يكون في أقصى غرب الأندلس ولما لها من أهمية عسكرية وسترراتيجية مليئة بالأحداث الصاخبة فقد استوطنها العديد من العلماء للمراقبة فيها، ومع رسوخ قدم المسلمين فيها لمدة طويلة جعلها حاضرة لهم، فنبغ فيها العديد العلماء في مختلف مجالات المعرفة لا سيما القراء والمحدثين والفقهاء واللغويين والأدباء فضلاً عن الشعراء، وبسبب اهتمام الأندلسيين بالعلم والعلماء نشأ وتشجع الكثير على طلب العلم والمعرفة لما يتمتع به العلماء من مكانة عالية، و ((العالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، يُشار إليه ويُحال عليه، ويُنبه قدره وذكره عند الناس، ويُكرم في جوار أو ابتياح حاجة))⁽²⁾، والعالم عندهم بارعٌ، لأنه يطلب العلم بباعث من نفسه، يحمله على أن يترك العمل الذي يكذب به على عياله، وبسبب عدم وجود مدارس خاصة لطلب العلم فقد كانوا يطلبونه من المساجد⁽³⁾. وقد أولوا الأندلسيون اهتماماً بليغاً في بناء المساجد لاسيما عندما ((افتتح المسلمون الأندلس، استدلوها بما فعل أبو عبيدة وخالد — رضي الله عنهما — عن رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحاً))⁽⁴⁾،

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني، ت: إحسان

عباس، دار صادر بيروت 1968، ج1، 186 - 187.

(2) المصدر نفسه: 220.

(3) المصدر نفسه: 221.

(4) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، ت: ج. س. كولان؛ و إ.

ليفى بروفنسال، دار الثقافة بيروت لبنان، ط2، 1980، ج 2 - 229 .

ففي قرطبة وحدها كان في أيام عبد الرحمن الداخل 490 مسجداً⁽¹⁾، ومنها ((جامعٌ عظيمٌ الذي بناه الإمام الحكم))⁽²⁾، وكان هذا الجامع مقراً لحلقات طلاب العلم والمعرفة⁽³⁾، وخير شاهد على دور العلماء ما كان يقوم به أحمد بن سعيد الطليطلي الذي كان ((فقيهاً متقناً، كريم النفس، أخذ عن جماعة من علماء بلده، وأجاز له جماعة من شيوخ قرطبة مع أبيه))⁽⁴⁾، ونقل عبد الله بن سعيد بن أبي عون وهو أحد طلبته قال ((كنت آتي إليه من قلعة رباح وغيري من المشرق، وكنا نيفا على أربعين تلميذاً، فكنا ندخل في داره في شهر نونبر، ودجنبر، ويتّير في مجلس قد فرش بسط الصوف مبطنات، والحيطان باللّبود من كل حول، ووسائد الصوف، وفي وسطه كانونٌ في طوله قامة الإنسان مملوءاً فحماً يأخذ دفئه كل من في المجلس، فإذا فرغ الحديث أمسكهم جميعاً وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب، وأياماً ثرائد اللبن بالسّمن أو الزبد، فنأكل تلك الثرائد حتى نشبع منها، ويقدم بعد ذلك لوناً واحداً ونحن قد روينا من ذلك الطعام، فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ولا نتعشى حتى نصبح إلى ذلك الطعام الثلاثة الأشهر، فكان ذلك منه كريماً وجوداً وفخراً لم يسبقه أحدٌ من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة . وولي أحكام طليطلة مع يعيش بن محمد ثم استتقله ودبر قتله. فذكر أنّ الداخل عليه ليقتله ألفاه وهو يقرأ في المصحف فشعر أنّه يريد قتله فقال له : علمتُ الذي تريد فاصنع ما أمرت فقتله، وأشيع في الناس أنه مرض ومات رحمه الله. وذكر ابن حيان: أنه مات متعقلاً بشنترين مسموماً سنة ثلاث وأربع مائة))⁽⁵⁾، وذكر القاضي عياض أنّه اختلف الفقيه ابن كوثر مع حاكم طليطلة نفاه إلى شنترين وبقي هناك حتى مقتله⁽⁶⁾، ولا يُستبعد أنّ الفقيه ابن كوثر

(1) نفح الطيب، المقرئ، 540.

(2) تاريخ الأندلس، مؤلف مجهول، ت: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية بيروت . لبنان، ط 1 . 2007، 99.

(3) يُنظر: التكملة لكتاب الصلة، ابن الآبار، ت: عبد السلام الهراس، دار الفكر بيروت . لبنان، 1995، 136.

(4) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، 74.

(5) المصدر نفسه: 74 - 75 .

(6) يُنظر : ترتيب المدارك، القاضي عياض، ج 8 - 41 .

كان قد اتخذ بيته في شنترين يستقبل فيه تلامذته ويعقد فيه دروسه، كما كان والي شنترين أيام الحكم المستنصر يستقبل ضيوفه من العلماء والأدباء في ديوانه⁽¹⁾، وقد ساهم الولاة والحكام في تشجيع الحركة العلمية والفكرية في مناطقهم لغايات

1. زيادة النفوذ.

2. وسيلة للشهرة.

3. نقل تجربة المشرق العلمية المغرب الأندلس.

4. إشغال المجتمع بالعلم والمعرفة خير من أن ينشغل بأمور قد تكون مضرة بالدولة

وكان بلاط بني الأفطس يعجُّ بالعلماء والأدباء، ولاسيما المظفر بن الأفطس الذي كان ((فاضلاً عالماً وشجاعاً فارساً. وله التأليف الكبير المسمّى ب المظفري في نحو خمسين مجلداً))⁽²⁾، وكان ناقداً للشعر، ذواقاً لفصاحته، مطلعاً على شعر من سبقه كالمتنبي والمعري، وكان ينكر الشعر على شاعره إن لم يكن شعره موازياً لفحول الشعر وذلك من خلال مقولته الشهيرة ((من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعري، فليسكت))⁽³⁾، وهذا يدل على الذوق الرفيع والحس المرهف والإذن الموسيقية التي تميز بين جيد الشعر ورديئه وصانعه ومجيدته وهذه من صفات الناقد الملم والقارئ المهم ومميز بين الشعر الصحيح والمتورم، الذي اطلع على شعر الأقدمين فوجده قد ارتقى سلم المجد الذي لا يرقى إليه الطير وينحدر عنه السيل، ونظر إلى المتصنعين فوجد شعرهم في قاع النزوات يكتبون من أجل الحضور والظهور والتسول، فعنده الشعر كما قال الجاحظ أن ((المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة

(1) يُنظر: الحلة السيرة، لابن الآبار، ج 1 - 280.

(2) أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام، لسان الدين ابن الخطيب، ت: إ. ليفيروفنسكال، دار

المكشوف، بيروت لبنان، ط 2 - 1956، 183.

(3) المصدر نفسه، 184.

السَّيِّك، فإنما الشعر صناعة وضربٌ من النسيج وجنسٌ من التصوير)) (1)، فالمظفر يعلم علم اليقين أنَّ الشعر قوامه أربعة أركان وهي العاطفة والمعنى والأسلوب والخيال فأَيُّ خللٍ يصيب ركناً من هذه الأركان ، فيكون الشعرُ مضروباً وغير قابلٍ للسما.

ثم استقدم المظفر أبا عمر يوسف بن عبد البر، وولاه قضاء شنترين، وصنف فيها كتابه بهجة المجالس وأنس المجالس (2)، كما كان المتوكل بن الأفطس عالي القدر مشهور بتقريب العلماء والإدباء (3)، وكان قاضيه على شنترين الأديب أبو زيد بن مقانا (4)، وكان قد خصص مكاناً خاصاً للقاء العلماء والأدباء (5). والعديد من العلماء غادر مسقط رأسه شنترين إثر سقوطها بيد النصاري، ونأى بنفسه للعيش في مناطق أندلسية أخرى، ومن بينهم علماء القرآن والحديث، وعلى ما يبدو أنَّ أهل شنترين كانوا مهتمين بعلوم القرآن، والسبب في ذلك هو أنها منطقة رباط وجهاد وأغلب من يرتادها المجاهدون، ويقوم هؤلاء بدورهم من شحذٍ للهمم والحماسة في مواجهة النصاري، ومن هؤلاء:

1. أحمد بن محمد بن الرحمن القرشي، ((من أهل شنترين، يُكنى أبا العباس، روى عن شُريح)) (6) وشُريح القاضي هو ((هو الفقيه أبو إمّية، شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي، قاضي الكوفة، ويقال: شريح بن شراحيل أو ابن شرحبيل. ويقال: هو من

(1) كتاب الحيوان، الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده، ط 2 - 1965، ج 2، 132.

(2) يُنظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج 7، 67.

(3) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، ج 2 - 182.

(4) يُنظر: الذخيرة، ابن بسام، ج 4، 786 - 796.

(5) المطرب من أشعر المغرب، ابن دحية الكلبي 23.

(6) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، محمد بن عبد الملك المراكشي، ت: الدكتور إحسان

عباس و الدكتور محمد بن شريفة والدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط 1 -

2012، 627 .

أولاد الفرس الذين كانوا باليمن⁽¹⁾، فإن صحت الرواية بأنه روى عن شريح فيكون قد دخل مع الفاتحين للأندلس وسكن شنترين.

2. أحمد بن محمد بن عمر بن خلف بن سعدان القيسي، يُكنى أبا العباس، من أهل شنترين، محدث، قال عنه ابن عبد الملك : كان خيراً فاضلاً سُنيّاً واعضاً صادق النصيحة كثير التجول ببلاد الأندلس للتذكير والوعظ⁽²⁾.

3. شعيب بن يوسف الخولاني، يُكنى أبا عمر، قال عنه ابن عبد الملك : (كان من أهل العلم والفهم ولعدالة والثقة، بصيراً بالعربية حافظاً للغات)⁽³⁾.

4. عبد الله بن عبد الله الشنتريني الزاهد، قال الأَبَّار ((صحب أبا عبد الله ابن المجاهد الزاهد دهرًا وسلك طريقته، وكان فقيهاً مفتياً عابداً، وكان يبيع الزيت))⁽⁴⁾.

5. عبد الله بن علي، أبو محمد الشنتريني، نزيل سلا، روى ((بها عن أبي إسحاق الشلوني المقرئ صاحب أبي عمرو الداني. حدّث عنه أبو الحسن بن النقرات، وأبو محمد بن فليح، وغيرهما))⁽⁵⁾.

6. عيسى بن محمد بن عبد الله بن عيسى بن مؤمل بن أبي البحر الزهري أبو الأصبع : ((شيخ مسن أصله من شنترين وسكن مدينة سلا، لقيته بسبّعة مرات اجتاز علينا بها تاجراً... وسمع منه قومٌ بالأندلس والمغرب، وقد كان يُقرئ الأدب قديماً/ بشنترين وقد قرأ

(1) سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت: شعيب الأرناؤوط ومأمون الصاغري، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ط2 - 1982، ج 4 - 100.

(2) يُنظر: الذيل والتكملة لكتّابي الموصول والصلة، المراكشي، 634 - 635.

(3) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي وشركائه، ط1 - 1965، ج2 - 4.

(4) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان، ط 1 - 1997، ج43، 204.

(5) المستملح من كتاب الصلة، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي تونس، ط1 - 2008، 200.

- عليه الأستاذ أبو القاسم ابن الأبرش في شنترين ولم تكن عنده كتب ولا ضبط)) (1)،
 وقيل أنه ((إذا قرئ عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله بكاءً شديداً)) (2).
 7. محمد بن عبيد بن مطون الأموي المقرئ يكنى ((أبا بكر أصله من شنترين
 وسكن إشبيلية أخذ عن أبي بكر بن صاف وعلم بالقرآن وتجول بنواحي إشبيلية)) (3).
 8. مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني، وكان أديباً و يكنى ((أبا الخيار، من أهل
 شنترين سكن قرطبة، حدث عنه أبو مروان الطُّبْنِي، ولم يزل أبو الخيار هذا طالباً
 متواضعاً، عالماً متعلماً)) (4).
 9. هُذَيْلُ بن محمد بن تاجيت البكري، كان ديناً من ((أهل قُرْطُبة وأصله من شنترين، يكنى
 أبا عبد الصمد، له رحلة إلى المشرق..... وكان رجلاً فاضلاً)) (5).

كان هؤلاء رجالات علوم القرآن الذين حملوا على عاتقهم علوم القرآن ونشرها في هذه البلاد
 وخارجها سواء من ولد فيها، أم هاجر إليها وكانوا خير حملة لخير رسالة سماوية سامية، وازداد
 الاهتمام باللغة العربية في الأندلس لأمرين الأول: هو أن الأعاجم أخذوا بتعلم اللغة العربية
 حتى يستطيعوا العيش في المجتمع الجديد. الثاني: أنها لغة السلطة والإدارة. فمن هنا أخذت
 العربية بالانتشار والاهتمام لأنها مصدر لتعلم القرآن الكريم والسنة النبوية. ونظرا للمقومات
 البيئية التي تتمتع بها المدينة فإنها لم تغلق أبوابها هذه المدينة الساحرة على علم واحد فقط بل
 كان للشعر حضورٌ بسبب فاعلية المؤثر الطبيعي وهو جمال المدينة وسحرها وطبيعتها
 الجغرافية الخلابة الجذابة والمناظر الطيبة والنسائم العذبة المثيرة، ساعدت على تفجر قريحة
 الشعراء، لكون أن فاعلية المكان لها لمسة بيانية وإضاءة نوعية بائنة على بنية القصيدة لأنَّ

(1) الغنية فهرست في شيوخ القاضي عياض، ت: ماهر زهير جرّار، دار الغرب الإسلامي بيروت .

لبنان، ط 1 - 1982، 184.

(2) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، 59 .

(3) التكملة لكتاب الصلة، ابن الآبار، 85.

(4) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، 257.

(5) المصدر نفسه: 305.

((علاقة الشاعر بالمكان ذات أبعاد متعددة تستحضر الواقعي والخيالي والوهمي، ويكفي أن الشاعر يعيش في المكان على مستوى الوجود الحقيقي، ويسبح في المكان في عالمه الشعري، فيستحضر المكان من المعرفة الثقافية، ويقيم لنفسه وجوداً فيه أو يعدل من صورة المكان الحقيقي، كما يخترع المكان في الفن ويحتله بالوجود))⁽¹⁾، وتأثير المكان بائن على شكل القصيدة وموضعها ووزنها وقافيتها ووحدتها واللغة التي ينسجها الشاعر لأن ((علاقة الإنسان بالمكان علاقة تأثير متبادل، فالإنسان يمارس فاعليته في المكان، بل ويغير من طبيعته في كثير من الأحيان، ثم يعود المكان فيمارس تأثيره على الإنسان في دورة لا تنتهي من التأثير المتبادل))⁽²⁾، وحتى كبار الشعراء يقرون بفاعلية المكان في الإيحاء الشعري، وهذا هو كثير قد سُئل ((كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر ؟ قال : أطوف في الرباع. المحيلة، والرياض المعشبة، فيسهل عليّ أرضه، ويسرع إليّ أحسنه))⁽³⁾، فالبيئة اللينة كانت حافزاً لخلق لغة لينة غير موحشة.

كما كان الشعر في البيئة الجاهلية نتيجة المكان الموحش، ف شعر الشاعر نتاج بيئته ولا يمكن أن ينفصل عنها، لأنها هي الوازع الروحي والباعث النفسي، وتعد عامل مشترك بين المبدع والمتلقي، وكانت البيئة محط رحال النقاد ومنهم ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء الذي يُعد من أهم كتب النقد سلط الضوء في نتاج اللفظ الذي يكون خاضعاً للبيئة، وعدّها مكوناً انتاجياً للشعر، والأهم في ذلك أنّه عدها مقياساً ومعيّاراً لنقد نتاج الشاعر فضلاً عن الفحولة، أنّ اللغة وليدة البيئة، والأدب نتاج انفعالات تحيط بالإنسان سواء كانت داخلية أم خارجية، وقد تنبّه ابن سلام لهذا الأمر وقام بتوزيع فحول الشعراء على طبقاتٍ معتمداً في نهجه

(1) شاعرية المكان، الدكتور جريدي سليم المنصور الثيتي، دار العلم للطباعة والنشر المملكة العربية السعودية، ط 1 - 1992، ص 10.

(2) بناء فضاء المكان في القصة العربية القصيرة، محمد السيد اسماعيل، دولة الإمارات العربية المتحدة . حكومة الشارقة، دار الثقافة والإعلام، 2002، 87

(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط 5 - 1981، 206.

هذا على البيئة المكانية والرقعة الجغرافية التي صنعت الشاعر وعرف بها، وأطلق على شعراء البادية شعراء الوبر، وعلى شعراء القرى شعراء المدر. وكان ابن سلام يرى أن الشعر يتأثر بالبيئة، وأن شعر البادية يختلف عن شعر القرى من حيث القوة وفخامة الألفاظ وغزارة المعاني وهذا واضح في شعرهم، أما شعر القرية فإنه لين الألفاظ سهل المنطق وضعف البناء، وإن سبب لين الشعر سببه البيئة وقد صرح بقوله ((وعدي بن زيد كان يسكن الحيرة ويركن الريف فلان لسانه، وسهل منطقه))⁽¹⁾، وقال عن شعر قريش و ((أشعار قريش أشعار فيها لين فتشكل بعض الأشكال))⁽²⁾،

وأشار بقوله السابق ((فتشكل بعض الإشكال))⁽³⁾، إلى قضية وهي ملازمة اللين إلى الوضع والانتحال و هذا واضح في تعليقه على قصيدة أبي طالب التي مدح فيها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله : وأبيض يستسقى الغمام بوجهه....ربيع اليتامى عصمة للأرامل فقال عنها ((زيت وطولت... وقد علمت أن قد زاد الناس فيها، و لا أدري أين منهاها))⁽⁴⁾، وكذلك تمتاز البادية عن المدن بكثرة الشعر وذلك لكثرة الحروب بين القبائل وهذه ظاهرة تُحسب للبيئة في نتاج الشعر وقلته، قال ابن سلام ((وبالطائف شعرٌ وليس بالكثير وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يُغيرون ويُغار عليهم. والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة، ولم يحاربوا وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف في طرف))⁽⁵⁾، ويكاد شعر شعراء القرى يخلو من الوقوف على الأطلال والغزل الذي كان شائعاً قبل الإسلام، و يبدو أن تقسيم ابن سلام الشعراء إلى جاهليين ومخضرمين وإسلاميين على عشرين طبقة كلهم من البادية وأفرد شعراء القرى العربية عنهم يدل على ميزات اتسمت في شعرهم قام عليه هذا التقسيم و إن للبيئة أثرٌ فعّال في الإبداع في الشعر وهي من المؤثرات

(1) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، شرح: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة 140 .

(2) المصدر نفسه: 245.

(3) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، 245.

(4) المصدر نفسه: 244 - 245.

(5) المصدر نفسه: 259.

الخارجية التي تؤثر في الشعر كما أشار إلى ذلك ابن قتيبة المتوفي (276 هـ) بقوله ((وللشعر دواعٍ تحت البطيء وتبعث المتكلف، منها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب... إنَّه يستدع شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي والمكان الخضر الخالي))⁽¹⁾، فهو يُشير إلى عوامل ومؤثرات وبواعث للشعر منها خارجية ومنها داخلية والتي هي التي تؤهل الشاعر لكتابة الشعر وصياغته لأنها عامل تفاعلي للشاعر لأنه يؤثر ويتأثر في المكان والزمان، لذلك عدَّ النقاد البيئة ودورها في بلورة الشاعر وصناعته وهذا كُثير حينما سُئل عن صناعته إذا عسرت بمعنى تعسَّر قول الشعر قال ((أطوف في الرباع المخلية والرياض المعشبة، فيسهل عليَّ أرصنه، ويُسرِع إليَّ أحسنه))⁽²⁾.

ويذهب أبْنُ طباطبا (ت 322 هـ) إلى ما ذهب إليه ابن سلام (231 هـ) بأنَّ الشعر البدوي هو الكلام الفصيح إذ قال ((وكذلك الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح لم يخلط به الحضري المولد، وإذا أتى بلفظة غريبة أتبعها أخواتها))⁽³⁾، ووافق المرزباني المتوفي (384 هـ) ما ذهب إليه ابن سلام أيضاً في الاعتماد على البيئة في مأخذه على الشعراء، وعدم جعل الكميت بن زيد حجة لكونه كان في الكوفة ولم يكن من أهل البدو، فالبيئة هي الأم التي تلد الأديب فإما أن يكون سالماً أو مُشوّهاً، فابن سلام ومن وافقه يرون أن من سكن البادية يكون نتاجه سالماً غير مشوّه ولم يُصبه أيُّ مُلوّثٍ خارجي و من تعلم على يد معلم يكون غير ذلك كما قالوا عن الكميت ((ليس الكميت بن زيد بحجة، لأنَّ الكميت كان من أهل الكوفة، فتعلم الغريب وروى الشعر، و كان مُعلماً، فلا يكون مثل أهل البدو))⁽⁴⁾، أي بمعنى دخل في شعره ولسانه ما شاب اللغة العربية أو أنه قصد أن الكميت لم يصل إلى مصاف

(1) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ت: أحمد محمد شاكر، دار المعارف - القاهرة، ج 1، 78 - 79 .

(2) المصدر نفسه: ص 79.

(3) عيار الشعر، محمد أحمد ابن طباطبا العلوي، ت: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط 2- 2005، ص 12.

(4) يُنظر: الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، المرزباني، ت: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1- 1995، ص 227.

الشعراء الكبار بنظرية بإختلاف البيئة الحضرية عن البادية يلين الشعر ويضعف ويصيبه الانتحال والوضع .

فالبينة مقياسٌ نقديٌّ ومعياريٌّ فنيٌّ وضعه النقد وساروا على نهجه متفقين عليه وإن اختلفت أزمانهم وآراؤهم ورؤاهم للأدب وصانعه.

لم تكن مدينة "شنترين" (Santarém) مجرد ثغر من ثغور غرب الأندلس، بل كانت بوابة ثقافية انصهرت فيها الروح المغربية بالأندلسية. إن الجسر الثقافي بينهما لم يقطعه بحر الزقاق، بل ظل ممدوداً عبر رحلة العلماء والشعراء، وهو ما سنفضله في المطالب التالية.

المطلب الأول: الحركية العلمية وتبادل العلماء (الرحلة والتدريس)

اتسمت العلاقة العلمية بين المغرب وشنترين بالتبادلية؛ حيث كانت شنترين مدرسة تخرج منها كبار اللغويين والفقهاء الذين استقبلهم المغرب بالترحاب.

برز في هذا السياق علماء من "شنترين" تولوا مناصب عليا في المغرب، مثل القضاء والخطابة فيجامع القرويين أومراكش.

وكان طالب العلم المغربي لا يكتمل تكوينه إلا بالمرور بـ "ثغر الغرب" (شنترين)، حيث يأخذ عن شيوخها علوم اللغة والقراءات. وقد ذكرت المصادر (مثل كتاب "الذخيرة") كيف كان علماء شنترين يحملون معهم المخطوطات النادرة إلى حواضر المغرب، مما ساهم في توحيد المنهج الدراسي بين الضفتين⁽¹⁾.

أولاً: الأواصر الأدبية والإنتاج الشعري المشترك

لقد كانت شنترين "موطناً لبيان"، وامتزج شعرها بروح الحماسة المغربية خاصة في عهد الموحدين.

(1) البيان المغرب - ابن عذاري - ج 1 ص 15

الشواهد الشعرية: اشتهرت شنترين بشعر "الحنين" و"الرثاء"، ومن أبرز ما يُستشهد به في هذا السياق ما قاله شعراء شنترين في مدح سلاطين المغرب الذين هبوا لنجدتها، أو القصائد التي قيلت في "فقدان المدينة" حينما بدأت تقع تحت حصار الممالك المسيحية.

ابن بسام الشنتريني: يُعد كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" أعظم وثيقة أدبية تربط بين الضفتين؛ فابن بسام الذي ولد في شنترين، كتب مؤلفه بروح تجمع بين الاعتزاز بالأندلس والولاء للمجال الحضاري الإسلامي الذي يمثل المغرب عمقه الاستراتيجي⁽¹⁾.

ثانيًا: الوحدة الفكرية والمذهبية (المالكية والتصوف)

لقد تشكل عقل جمعي واحد بين المغرب وشنترين، برزت معالمه في رسوخ المذهب المالكي فكانت الفتاوى التي تصدر في سبته وفاس هي ذاتها المعمول بها في مجالس القضاء في شنترين، التصوف والزهد فانتقلت تجربة "ابن قسي" وحركة "المريدين" في غرب الأندلس لتجد لها صدًى واسعاً في أوساط المتصوفة بالمغرب، مما يؤكد أن الاتصال لم يكن رسمياً فقط، بل كان شعبياً وروحياً.

شهدت مدينة شنترين ازدهاراً علمياً واضحاً خلال العصر الأندلسي الوسيط إذ غدت مركزاً حضارياً نابضاً بالحياة الفكرية والعلمية في ذلك الزمن وقد ارتبط هذا الازدهار برعاية الدولة وتشجيعها للعلم والعلماء آنذاك فانتشرت المدارس والمجالس العلمية التي احتضنت مختلف فروع المعرفة الإنسانية وكان للسلطة السياسية دور كبير في دعم النشاط العلمي وتطويره مما أسهم في خلق بيئة معرفية خصبة داخل المجتمع الأندلسي عمومًا وفي شنترين على وجه الخصوص بوصفها مدينة قريبة من مراكز الحضارة وقد ساعد ذلك على تفاعل الثقافات المختلفة داخل هذا الفضاء الحضاري حيث تلاقت المعارف القادمة من المشرق مع التراث المحلي الأندلسي فأثمر هذا التلاقي حركة علمية نشطة امتدت إلى مختلف العلوم والفنون كما انعكس ذلك على ازدهار اللغة العربية وانتشارها بين السكان إذ أصبحت وعاءً للمعرفة ووسيلة للتواصل الثقافي بين

(1) تاريخ علماء الأندلس - ابن الفرضي - ج 1 ص 269

مختلف الفئات وقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى ترسيخ مكانة شنتارين العلمية فأصبحت مقصدًا للعلماء والطلاب الراغبين في طلب العلم والمعرفة كما ساهمت المكتبات في دعم هذا الحراك الثقافي داخل المدينة حيث ضمت عددًا كبيرًا من الكتب النفيسة في شتى العلوم وكانت هذه الكتب تجلب من مختلف الأقاليم الإسلامية البعيدة مما يدل على مدى الاهتمام الكبير بالعلم واقتنائه في تلك المرحلة وقد أنفق الحكام أموالًا طائلة في سبيل جمع هذه المؤلفات القيمة إيمانًا منهم بأهمية العلم في بناء الدولة وتعزيز مكانتها الحضارية ومن هنا يمكن القول إن شنتارين مثلت نموذجًا علميًا متكاملًا جمع بين الرعاية السياسية والنشاط العلمي والتفاعل الثقافي المستمر فأسهم ذلك في تكوين بيئة علمية مزدهرة انعكست آثارها لاحقًا على مختلف جوانب الحياة الفكرية والاجتماعية في الأندلس عمومًا⁽¹⁾.

وكذلك شهدت مدينة شنتارين ازدهارًا علميًا واضحًا خلال العصر الأندلسي الوسيط إذ أصبحت مركزًا حضاريًا مهمًا يحتضن مختلف مظاهر النشاط الفكري وقد ارتبط هذا الازدهار برعاية الدولة وتشجيعها للعلم والعلماء آنذاك فانتشرت المدارس والمجالس العلمية في أنحاء المدينة بصورة ملحوظة مما أسهم في تنشيط الحركة الفكرية بين مختلف طبقات المجتمع وقد تميزت شنتارين بتنوعها الثقافي نتيجة تداخل الأعراق المختلفة حيث عاش المسلمون والمسيحيون واليهود في بيئة علمية مشتركة الأمر الذي أدى إلى تبادل المعارف والخبرات بين هذه الفئات فانعكس ذلك على تطور العلوم والآداب داخل المدينة بشكل واضح⁽²⁾.

كما أسهم الاستقرار السياسي في دعم هذا النشاط العلمي المتزايد فقد وفرت السلطة الحاكمة الظروف المناسبة لازدهار المعرفة وانتشارها وكان للعلماء دور بارز في تعزيز مكانة شنتارين بين مدن الأندلس إذ قدموا إسهامات علمية في مجالات متعددة كالفقه واللغة والطب كما ازدهرت حركة التأليف والترجمة في ظل هذا المناخ العلمي حيث تم نقل العديد من الكتب من المشرق إلى الأندلس وقد ساعدت هذه الكتب في إثراء المكتبات العلمية داخل المدينة مما

(1) ينظر: سير أعلام النبلاء - الذهبي - ج 5 ص 219

(2) ينظر: البيان المغرب - ابن عذاري - ج 1 ص 15

جعل شنتارين مركزاً معرفياً يقصده طلاب العلم من مختلف المناطق كما ساهمت حلقات الدرس في نشر المعرفة بين أبناء المجتمع، فأصبحت الثقافة جزءاً أساسياً من الحياة اليومية للسكان آنذاك وقد انعكس هذا الازدهار على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية مما يدل على الترابط الوثيق بين العلم والمجتمع في شنتارين وبذلك يمكن اعتبارها نموذجاً مميزاً للحركة العلمية في الأندلس التي قامت على أسس متينة من التفاعل الثقافي والمعرفي المستمر وقد استمر هذا النشاط حتى بلغ ذروته في فترات لاحقة⁽¹⁾.

ارتبطت الحركة العلمية في شنتارين ارتباطاً وثيقاً برعاية الحكام الذين أدركوا أهمية العلم في تعزيز قوة الدولة واستقرارها الداخلي فحرصوا على إنشاء المدارس وتوفير الموارد اللازمة للعلماء والطلاب كما اهتموا بجلب الكتب من مختلف أرجاء العالم الإسلامي آنذاك وقد أنفقوا أموالاً طائلة في سبيل اقتناء هذه المؤلفات القيمة، مما ساهم في تكوين مكتبات غنية تحتوي على أمهات الكتب وكانت هذه المكتبات مفتوحة أمام العلماء والباحثين وطلاب العلم الأمر الذي ساعد على انتشار المعرفة بين مختلف فئات المجتمع⁽²⁾ كما ساهم هذا الدعم في تشجيع حركة التأليف داخل المدينة حيث قام العلماء بتصنيف العديد من الكتب في شتى العلوم وقد شملت هذه المؤلفات مجالات الفقه والحديث واللغة والأدب إضافة إلى العلوم العقلية مثل الطب والفلك والرياضيات أيضاً وقد انعكس هذا النشاط على مستوى الثقافة العامة في المجتمع فأصبح الاهتمام بالعلم سمة بارزة من سمات الحياة اليومية كما ساعدت المجالس العلمية في تبادل الآراء بين العلماء مما أدى إلى تطور الفكر النقدي داخل البيئة العلمية آنذاك وقد ساهم هذا التفاعل في ظهور اتجاهات فكرية متعددة عكست التنوع الثقافي الذي كانت تتميز به شنتارين آنذاك كما لعبت الرحلات العلمية دوراً مهماً في نقل المعرفة حيث كان العلماء يسافرون إلى المشرق طلباً للعلم والمعرفة ثم يعودون إلى شنتارين حاملين معهم علومًا جديدة ومتنوعة وقد

(1) ينظر: تاريخ علماء الأندلس - ابن الفريسي - ج 1 ص 269

(2) ينظر: سير أعلام النبلاء - الذهبي - ج 5 ص 219

أسهم ذلك في إثراء الحركة العلمية داخل المدينة بشكل كبير مما جعلها مركزاً علمياً بارزاً في الأندلس خلال تلك الفترة وقد استمرت هذه النهضة العلمية في التوسع والازدهار⁽¹⁾.

تميزت شنترين بوجود عدد كبير من العلماء في مختلف التخصصات الذين أسهموا في تطوير الحركة العلمية داخل المدينة بشكل ملحوظ وقد كان هؤلاء العلماء يتمتعون بمكانة اجتماعية مرموقة آنذاك حيث حظوا بتقدير الحكام واحترام عامة الناس في المجتمع وقد ساعد هذا التقدير في تحفيزهم على مواصلة البحث والتأليف⁽²⁾، كما أسهم في جذب المزيد من الطلاب إلى مجالسهم العلمية وكانت حلقات الدرس تعقد في المساجد والمدارس بانتظام حيث يتم تدريس مختلف العلوم الدينية والعقلية بصورة منهجية وقد اتسمت هذه الحلقات بالحوار والمناقشة بين المعلم والطلاب، مما ساعد على تنمية مهارات التفكير النقدي لدى الدارسين كما أسهم هذا الأسلوب في ترسيخ المعرفة بصورة أعمق وقد ظهرت في شنترين مدارس علمية متعددة الاتجاهات تعكس التنوع الفكري الذي كان سائداً في المجتمع آنذاك فكان هناك علماء متخصصون في الفقه وآخرون في اللغة إضافة إلى علماء اهتموا بالعلوم الطبيعية والتجريبية أيضاً وقد أدى هذا التنوع إلى إثراء الحياة العلمية بشكل كبير⁽³⁾.

((كما ساهم في تكوين بيئة معرفية متكاملة داخل المدينة وقد لعبت المكتبات دوراً مهماً في دعم هذا النشاط العلمي حيث وفرت المصادر اللازمة للبحث والدراسة للعلماء والطلاب كما ساعدت على حفظ التراث العلمي ونقله إلى الأجيال القادمة، وقد أسهم ذلك في استمرار الحركة العلمية عبر الزمن مما يدل على عمق الجذور الثقافية لمدينة شنترين التي أصبحت نموذجاً للحياة العلمية المزدهرة في الأندلس))⁽⁴⁾.

(1) تاريخ علماء الأندلس - ابن الفرضي - ج 1 ص 275

(2) تاريخ علماء الأندلس - ابن الفرضي - ج 2 ص 83

(3) البيان المغرب - ابن عذاري - ج 1 ص 223

(4) الشعر الاندلسي في عهد بني الأحمر، رعد ناصر مايود، مطبعة عبادي صفاء، 2001،

أسهمت المكتبات في شنتارين بدور محوري في ازدهار الحركة العلمية حيث كانت تضم عددًا كبيرًا من الكتب في مختلف العلوم والمعارف وقد حرص الحكام على تزويدها بالمؤلفات القيمة من المشرق الإسلامي مما جعلها مقصدًا رئيسًا للعلماء والباحثين وطلاب العلم آنذاك كما وفرت هذه المكتبات بيئة مناسبة للبحث والدراسة والتأليف العلمي وقد عمل فيها عدد من النساخ المهرة في نسخ الكتب وتنظيمها⁽¹⁾، مما ساعد على انتشار المعرفة بين مختلف فئات المجتمع المحلي كما ساهمت هذه الجهود في حفظ التراث العلمي من الضياع وقد انعكس ذلك على تطور الحركة الفكرية في شنتارين بشكل واضح حيث ازدادت أعداد المؤلفات في شتى مجالات العلوم المختلفة كما ظهرت مراكز علمية جديدة داخل المدينة تدعم هذا النشاط وقد شجعت هذه البيئة على الابتكار والإبداع بين العلماء آنذاك مما أدى إلى ظهور شخصيات علمية بارزة في مختلف التخصصات وقد لعبت هذه الشخصيات دورًا مهمًا في نشر المعرفة خارج المدينة حيث انتقلت مؤلفاتهم إلى مدن الأندلس الأخرى والمشرق أيضًا كما ساهمت في تعزيز التواصل العلمي بين مختلف الأقاليم الإسلامية وقد أدى هذا التفاعل إلى تطور الفكر العلمي داخل شنتارين مما جعلها مركزًا علميًا بارزًا في تلك الحقبة التاريخية كما انعكس هذا النشاط على ازدهار الحياة الثقافية داخل المجتمع فأصبحت القراءة والاطلاع من العادات الشائعة بين السكان وقد ساعد ذلك على رفع مستوى الوعي الثقافي العام مما يعكس أهمية العلم في تشكيل هوية المجتمع آنذاك وبذلك أصبحت شنتارين نموذجًا للحياة العلمية المزدهرة في الأندلس التي قامت على أساس المعرفة والتفاعل الثقافي المستمر⁽²⁾.

شهدت شنتارين نشاطًا ملحوظًا في حركة النسخ والتأليف العلمي حيث عمل النساخ على استنساخ الكتب بدقة عالية وإتقان واضح وقد كان لهذا النشاط دور كبير في نشر المعرفة بين الناس كما ساهم في توفير المصادر العلمية اللازمة للعلماء والطلاب وقد اهتم الحكام بتنظيم

(1) سير أعلام النبلاء - الذهبي - ج 5 ص 219؛ وينظر المشهد الثقافي الاندلسي، رعد ناصر مايود، مطبعة ارفاه، بغداد، 2025، ص 23.

(2) تاريخ علماء الأندلس - ابن الفرضي - ج 2 ص 83

هذه العملية لضمان جودة الكتب المنتجة فأنشئت دور خاصة للنسخ مزودة بأدوات الكتابة والترزين المختلفة كما تم اختيار النساخ بعناية نظراً لأهمية عملهم في حفظ العلم وقد أدى ذلك إلى إنتاج نسخ دقيقة من الكتب العلمية المهمة مما ساعد على تداولها بين العلماء في مختلف أنحاء الأندلس⁽¹⁾، كما ساهم هذا النشاط في ازدهار الفنون المرتبطة بالكتابة مثل الخط العربي والزخرفة التي بلغت مستوى عالياً من الإبداع وقد انعكس ذلك على جمال المخطوطات ودقتها في آن واحد كما أسهمت هذه الجهود في تعزيز مكانة شنترين العلمية حيث أصبحت مركزاً لإنتاج المعرفة ونشرها بين مختلف الأقاليم وقد أدى ذلك إلى جذب المزيد من العلماء إلى المدينة مما ساهم في تنشيط الحياة الفكرية داخلها بشكل كبير كما ساعد هذا التفاعل على تبادل الأفكار بين العلماء مما أدى إلى تطوير المناهج العلمية وأساليب البحث المختلفة وقد انعكس ذلك على جودة الإنتاج العلمي في تلك المرحلة فأصبحت شنترين بيئة خصبة للعلم والإبداع الفكري المستمر كما ساهم هذا النشاط في حفظ التراث العلمي للأجيال القادمة مما يدل على وعي المجتمع بأهمية العلم ودوره الحضاري وقد استمر هذا النشاط في النمو والتطور عبر الزمن ليشكل أحد أهم ملامح الحضارة الأندلسية في تلك المدة⁽²⁾.

لعبت المجالس العلمية في شنترين دوراً بارزاً في نشر المعرفة حيث كانت تعقد بشكل منتظم في المساجد والمدارس داخل المدينة وقد حضرها العلماء والطلاب لتبادل الآراء ومناقشة القضايا العلمية مما ساهم في تنشيط الحركة الفكرية وتطويرها بشكل مستمر كما وفرت هذه المجالس بيئة مناسبة للحوار العلمي البناء، الذي أدى إلى ظهور أفكار جديدة في مختلف مجالات المعرفة وقد اتسمت هذه المجالس بالتنوع في الموضوعات المطروحة حيث شملت العلوم الدينية واللغوية والفلسفية والطبيعية أيضاً كما ساهم هذا التنوع في توسيع آفاق التفكير لدى المشاركين مما أدى إلى تطور الفكر العلمي داخل المجتمع الأندلسي⁽³⁾، وقد لعب العلماء دوراً مهماً في

(1) ينظر: البيان المغرب - ابن عذاري - ج 1 ص 223

(2) ينظر: تاريخ علماء الأندلس - ابن الفريسي - ج 2 ص 86

(3) سير أعلام النبلاء - الذهبي - ج 5 ص 221

إدارة هذه المجالس وتنظيمها مما ساعد على تحقيق الفائدة العلمية المرجوة منها آنذاك كما أسهمت هذه المجالس في تعزيز التواصل بين العلماء القادمين من مختلف المناطق داخل الأندلس وخارجها أيضاً وقد أدى ذلك إلى تبادل الخبرات والمعارف بين المشاركين مما انعكس إيجاباً على مستوى البحث العلمي في شنترين كما ساعدت هذه المجالس على اكتشاف المواهب العلمية الشابة التي أسهمت لاحقاً في تطوير الحركة العلمية داخل المدينة وقد شكلت هذه المجالس جزءاً مهماً من الحياة الثقافية التي تميزت بها شنترين خلال تلك المرحلة التاريخية.

((كما أسهمت في ترسيخ قيمة العلم في نفوس السكان مما جعل المجتمع أكثر ارتباطاً بالمعرفة والثقافة العامة وبذلك أصبحت المجالس العلمية أحد أعمدة النهضة الفكرية التي شهدتها شنترين في العصر الأندلسي المزدهر⁽¹⁾)).

ساهمت الرحلات العلمية في تعزيز الحركة الفكرية في شنترين حيث كان العلماء يسافرون إلى المشرق طلباً للعلم والمعرفة ثم يعودون إلى المدينة حاملين معهم علومًا جديدة ومتنوعة وقد أدى ذلك إلى إثراء الحياة العلمية داخل المجتمع الأندلسي⁽²⁾، كما ساهم في نقل المناهج العلمية المتقدمة إلى شنترين مما ساعد على تطوير أساليب البحث والتعليم داخلها آنذاك وقد كانت هذه الرحلات تمثل وسيلة مهمة لتبادل الثقافات بين مختلف الأقاليم الإسلامية في ذلك العصر التاريخي كما أسهمت في توسيع مدارك العلماء وزيادة خبراتهم العلمية مما انعكس على جودة الإنتاج العلمي داخل المدينة وقد لعبت هذه الرحلات دوراً مهماً في بناء شبكة علمية تربط شنترين بمراكز العلم في المشرق الإسلامي آنذاك كما ساعدت على انتشار شهرة العلماء الأندلسيين خارج بلادهم مما عزز مكانة المدينة في العالم الإسلامي بشكل عام وقد انعكس ذلك على ازدياد عدد الطلاب الوافدين إليها طلباً للعلم والاستفادة من علمائها المتميزين في مختلف المجالات كما ساهم هذا التفاعل في تعزيز التنوع الثقافي داخل المدينة مما أدى إلى ظهور بيئة علمية غنية بالتجارب المختلفة وقد ساعد ذلك على الابتكار في مختلف مجالات

(1) تاريخ علماء الأندلس - ابن الفريسي - ج 2 ص 90

(2) ينظر: البيان المغرب - ابن عذاري - ج 1 ص 230

المعرفة كما أسهم في تطور الفكر النقدي لدى العلماء والطلاب مما أدى إلى تحسين مستوى البحث العلمي في المدينة وقد استمرت هذه الحركة في النمو عبر فترات طويلة مما يدل على عمق التواصل العلمي بين الأقاليم الإسلامية وبذلك أصبحت الرحلات العلمية ركيزة أساسية في النهضة الفكرية⁽¹⁾.

ازدهار انعكس الحركة العلمية في المدينة على المجتمع بشكل واضح حيث ارتفع مستوى الوعي الثقافي بين مختلف فئات السكان آنذاك كما أصبح العلم عنصراً أساسياً في حياة الأفراد اليومية وقد أدى ذلك إلى انتشار القراءة والاطلاع بين الناس، مما ساهم في تطوير الفكر العام داخل المجتمع الأندلسي⁽²⁾، كما انعكس هذا الازدهار على الفنون والآداب المختلفة حيث ظهرت مؤلفات أدبية تعكس مستوى الثقافة السائدة آنذاك وقد ساهمت هذه المؤلفات في إثراء الحياة الفكرية داخل المدينة، كما لعبت دوراً في توثيق الأحداث التاريخية والمعرفية المختلفة وقد أدى ذلك إلى حفظ التراث الثقافي للأجيال القادمة كما ساعد هذا النشاط في تعزيز الهوية الثقافية للمجتمع مما جعله أكثر تماسكاً وتفاعلاً مع محيطه الحضاري العام وقد انعكس ذلك على استقرار المجتمع وتقدمه بشكل ملحوظ كما ساهم في تعزيز روح التعاون بين أفرادها في مختلف المجالات وقد لعبت المؤسسات التعليمية دوراً مهماً في هذا التطور حيث عملت على نشر المعرفة بين مختلف الفئات العمرية كما ساهمت في إعداد جيل جديد من العلماء والمفكرين الذين واصلوا مسيرة العلم في شنترين عبر الزمن وقد أدى ذلك إلى استمرار الحركة العلمية دون انقطاع مما يدل على قوة الأسس التي قامت عليها هذه النهضة كما انعكس ذلك على مكانة المدينة بين مدن الأندلس حيث أصبحت من أبرز المراكز العلمية في تلك الفترة وبذلك شكلت إنموذجاً للحياة الثقافية المتقدمة آنذاك⁽³⁾.

(1) تاريخ علماء الأندلس - ابن الفرضي - ج 2 ص 95

(2) سير أعلام النبلاء - الذهبي - ج 5 ص 225

(3) تاريخ علماء الأندلس - ابن الفرضي - ج 2 ص 100

أدى التنوع الثقافي في شنترين إلى ازدهار الفكر العلمي حيث تفاعلت الثقافات المختلفة داخل المجتمع الأندلسي آنذاك وقد ساهم هذا التفاعل في تطوير العلوم والمعارف المتنوعة كما أدى إلى ظهور اتجاهات فكرية متعددة داخل المدينة تعكس طبيعة هذا التنوع الحضاري المميز في تلك الفترة⁽¹⁾.

وقد أثر العلماء تأثيراً مهماً في توجيه هذا التنوع الفكري نحو خدمة العلم وتعزيز قيم المعرفة داخل المجتمع العام كما ساهموا في نشر التسامح الفكري بين مختلف الفئات مما ساعد على استقرار البيئة العلمية داخل شنتارين وقد انعكس ذلك على ازدهار البحث العلمي بشكل ملحوظ كما أدى إلى ظهور مؤلفات تجمع بين أكثر من علم مما يدل على التكامل المعرفي الذي ميز تلك المرحلة وقد ساهم هذا التكامل في تطوير مناهج البحث العلمي مما انعكس إيجاباً على جودة الإنتاج العلمي في المدينة كما أدى إلى تعزيز مكانة شنتارين بين مراكز العلم في الأندلس والعالم الإسلامي خلال تلك الحقبة التاريخية وقد انعكس هذا الازدهار على مختلف جوانب الحياة، مما يدل على العلاقة الوثيقة بين العلم والمجتمع آنذاك كما ساهم في تعزيز الهوية الثقافية للمجتمع الأندلسي الذي تميز بالتنوع والانفتاح على مختلف الثقافات الإنسانية وقد استمر هذا التأثير في الفترات اللاحقة أيضاً مما يدل على عمق الجذور الحضارية لمدينة شنترين التي شكلت نموذجاً فريداً للحياة العلمية المتكاملة⁽²⁾.

يمكن القول إن شنترين مثلت نموذجاً متكاملًا للحياة العلمية الأندلسية حيث اجتمعت فيها مختلف مقومات النهضة الفكرية والعلمية آنذاك وقد أسهمت هذه المقومات في بناء مجتمع قائم على المعرفة كما ساعدت على تحقيق التقدم الحضاري في مختلف المجالات وقد كان للعلماء دور بارز في تحقيق هذا الإنجاز الحضاري حيث قدموا إسهامات مهمة في تطوير العلوم والمعارف المختلفة كما ساهموا في نقل هذا التراث إلى الأجيال اللاحقة⁽³⁾، مما يدل على أهمية

(1) البيان المغرب - ابن عذاري - ج 1 ص 235

(2) تاريخ علماء الأندلس - ابن الفرضي - ج 2 ص 105

(3) سير أعلام النبلاء - الذهبي - ج 5 ص 230

العلم في بناء الحضارات الإنسانية وقد انعكس ذلك على مكانة شنتارين بين مدن الأندلس حيث أصبحت مركزاً علمياً يقصده طلاب العلم من كل مكان كما ساهمت في تعزيز التواصل الثقافي بين مختلف الأقاليم مما أدى إلى انتشار المعرفة وتبادلها بشكل واسع آنذاك وقد شكل هذا التفاعل أساساً قوياً لاستمرار الحركة العلمية التي استمرت في النمو والتطور عبر فترات زمنية طويلة كما ساهمت في بناء قاعدة معرفية متينة داخل المجتمع مما أدى إلى ظهور جيل من العلماء والمفكرين المبدعين ((وقد انعكس ذلك على مختلف جوانب الحياة الفكرية مما يدل على الترابط الوثيق بين العلم والمجتمع آنذاك كما ساعد في ترسيخ القيم الثقافية داخل البيئة الأندلسية التي قامت على أساس العلم والتسامح والتفاعل الحضاري وقد بقيت آثار هذه النهضة واضحة في التاريخ الإسلامي مما يجعل شنتارين مثالاً بارزاً للحياة العلمية المزدهرة التي أسهمت في بناء الحضارة الإنسانية عبر العصور وبذلك تكتمل صورة الحركة العلمية في هذه المدينة المهمة⁽¹⁾)).

إن قراءة العلاقات بين المغرب وشنتارين من خلال صفحات هذه الرسالة تؤكد أن المسافة الجغرافية تلاشت أمام "وحدة المصير الثقافي". فشنتارين كانت "مغربية الهوى" في صمودها وعلمها، والمغرب كان "شنتريني الذوق" في بلاغته وأدبه. فبيئة مدينة شنتارين ليست يثرب أو الحجاز أو اليمن، فهي تختلف كلياً عما هو في المشرق، فالعادات ليست هي العادات والطبيعة ليست هي الطبيعة وثقافة المجتمع ليست هي الثقافة، لأنها تعلو ربوة عالية تطل على بسائط خضراء يانعة، تغطيها المحاصيل والحدائق وغابات الزيتون وهذا يعني أن جمالها في ديمومة مستمرة. وعلى الرغم من أن الشعر في الأندلس عامة وفي شنتارين خاصة هو امتداد للشعر المشرقي، وإن بعض الشعراء الأندلسيين لقبوا بألقاب شعراء المشرق، وهذا لا يعني أن الشعر في الأندلس هو انعكاس لما هو عليه في المشرق، بل لكل بيئة مولود يحمل صفات بيئته، فكان شعر شنتارين خاص بها ووليد بيئتها، فالمزاج والثقافة والذوق يختلف من مجتمع إلى آخر، فهو ليس محاكاة قام بها شعراء الأندلس على شعر المشرق حتى لو مضينا بهذا الرأي لنقل في

(1) المشهد الثقافي الاندلسي، ص 83.

بدايته كان محاكاة، ومن ثم تطور الشعر تطوراً مبهراً حتى شغل فكر النقاد على طول الزمن، وأخذ سمات خاصة انماز به، فكانت قصائدهم تعبر عن ذاتهم وشخصية الشاعر واضحة في القصيدة، وكذلك تجد بساطة التعبير، والاستخدام الأجل والأمثل للتصورات والخيالات الجميلة، والاستعارات الرقيقة، وكانت البحور الخفيفة طاغية في الأشعار الغنائية، أما الإيقاع الموسيقي تجدها واضحة في الألفاظ والتراكيب داخل القصيدة. فبالرغم من وجود أكثر من هوية في البيئة الأندلسية وإنَّ المسلمين فتحوها وغيروا معالمها الثقافية إلا أنهم لم يشعروا بأمة الهوية وأنهم كانوا يشعرون بانتمائهم إلى وطنهم. نعم كان للفاتحين دور في نقل مختلف أوجه الثقافة وهجرة الكتب العلمية الموجودة في المشرق إلى المغرب وكان للأدب العربي نصيب منها، ومن هنا نجد نبوغ العديد من رجالات اللغة والأدب كان منهم من يعد من كبار رجالات عصره، نذكر منهم:

1. خلف بن يوسف فرتون (532 هـ) الملقب بالأبرش المعروف بالـ ((النحوي من أهل شنترين،)) تجول في بلاد الأندلس وغيرها معلماً بالعربية، وكان رأساً في العربية واللغة، حفظ كتاب سيبويه⁽¹⁾، وكان شاعراً مجيداً يغوص في بحوره ويستخرج لآلئه وله مقطوعات شعرية فتارة يمدح نفسه، وتارة يمدح مدينته شنترين، وكان ((وحيده عصره في علم اللسان، ذا سبق فيه وإحسان))⁽²⁾.
2. سعيد بن عبد الله العروضي : وهو من ((أهل قرطبة يُعرف بالشنتريني ويكنى أبا عثمان. كان عالماً بالأدب شاعراً مجوداً وله مسائل على كتاب سيبويه ناظر فيها بمحضر جعفر المصحفي وكان من أهل التصنيف))⁽³⁾.

(1) تحفة القادم، محمد بن الأَبَّار القضاعي البُلنسي، ت: إحسان عباس، دار الغرب بيروت - لبنان، ط1. 1986، 22.

(2) بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، ابن عميرة الضبي، ت: إبراهيم الأيباري، دار الكتاب اللبناني بيروت - لبنان، ط1. 1989، 360.

(3) ينظر: الذخيرة، 94/1، 135/2.

3. أبو عامر ابن سوار الشنتريني : ذكره ابن بسام أنه من أهل شنترين بلده وأنه له شعرٌ في وصف النفس ذهب فيها مذهب أهل الكلام (1).

4. عبد الله بن محمد بن سارة (سارة) البكري : مشهورٌ بأنه ((ناثرٌ وشاعرٌ مُفلقٌ، وشهابٌ متألقٌ، نثرٌ فسحرٌ، ونظمٌ فنمنمٌ، وأولعٌ بالقصار فأرسلها أمثالاً، ورشقَ بها نبالاً، لاسيما قوارعٌ كدرها على مرّةٍ عصره، وسمَ بها أنوفَ أحسابهم، وتركها مثلاً في أعقابهم.....وكان أبو محمد على جودة شعره، وشفوفه على أهل قطره، ضيق المجال، زحلي الانتقال)) (2).

5. علي بن بسام التغلبي الشنتريني المكنى أبا الحسن، صاحب كتاب الذخيرة و من ((المسهب: العجب أنه لم يكن في حساب الآداب الأندلسية أنه سيبعث من شنترين، قاصية الغرب، ومحل الطعن والضرب، من ينظمها قلائد في جيد الدهر، ويطلعها ضرائر للانجم الزهر. لم ينشأ بحضرة قرطبة ولا بحضرة إشبيلية و لا غيرهما من الحواضر العظام من يتمتع امتعاضه لأعلام عصره، ويجهد في جمع حسناته نظمه ونثره)) (3)، وقد غادر ابن بسام مدينة شنترين مضطراً بعد لأن استولى عليها النصاري سنة 486 هجرية، وكتب كتابه الذخيرة في مدينة قرطبة (4).

6. محمد بن عبد البر الشنتريني : ذكره ابن سعيد الأندلسي في كتابه وأورد له بعض الأبيات الشعرية (5).

(1) ينظر: الذخيرة، 54/13.

(2) نفسه، 65/3.

(3) التكملة لكتاب الصلة، ابن الآبار، ج4، 111 .

(4) يُنظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج3، 479 .

(5) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، 834 .

7. محمد بن عبد الله بن عبد الواحد، و ((يُشهرَ بفرحون. كان والياً على شنترين بغرب الأندلس))⁽¹⁾، وهو شاعرٌ معروف كما بينت القصة التي حدثت مع شاعر أهل الأندلس المشهور والمقدم على الشعراء يوسف بن هارون الرمادي الكندي⁽²⁾.
8. محمد بن عبد الملك بن محمد الشنتريني : وهو ((أبو بكر محمد بن عبد الملك المعروف بابن السراج الشنتريني، المغربي المالكي، الشيخ الأديب، الإمام الرئيس، نحويٌّ حاذق، من أئمة العربية المبرزين فيها، أديبٌ ناقدٌ، عروضيٌّ، محدثٌ شاعرٌ ومن مواليد مدينة شنترين))⁽³⁾.
9. مسعود بن سليمان بن مفلت، ذكره الحميدي في جذوة المقتبس ((فقيهٌ عالمٌ زاهدٌ، يميلُ إلى الاختيار والقول بالظاهر))⁽⁴⁾.
10. الأديب أبو عمر يوسف بن كوثر الشنتريني، قال عنه ابن الأبار ((يكنى أبا عمر يروي عن أبي أحمد عبد العزيز بن أبي مروان الجزيري قصيدة أبيه في السنة روى عنه أبو مُحَمَّد الركلي))⁽⁵⁾.
11. القاضي أبو بكر القرطبي، ولد سنة 357، قال عنه ابن بشكوال هو: ((حمام بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أكر بن جمام بن حكم بن سليمان ابن عبد الرحمن بن صالح الأطروش من أهل قرطبة، يُكنى: أبا بكر))⁽⁶⁾.
12. أبو عبد الله محمد بن عبد البر الشنتريني، ذكره ابن سعيد الأندلسي في كتابه ولم نجد له ترجمة.

(1) المغرب في حلى المغرب، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي، ت: شوقي ضيف، دار المعارف، ط 4، 417 - 418.

(2) ينظر: كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 4 - 536.

(3) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي الأندلسي، 418.

(4) الحلة السيرة، لابن الأبار، ج 1 - 334.

(5) يُنظر: المصدر السابق: 334، وينظر: أيضاً التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، 322.

(6) جواهر الآداب وذخائر الشعراء ولكتاب، لأبي بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني الأندلسي، ت:

الدكتور محمد حسن قزقران، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة دمشق 2008، 35 .

13. ابن السراج الشنتريني، هو محمد بن عبد الملك بن محمد بن السراج الشنتريني، عالم من علماء الأندلس المبرزين، أديب، عروضي، له مؤلفات، ولد في شنترين، وقد ذكره الزركلي في الأعلام أنه كان ((من أئمة العلماء بالعربية في الأندلس. من أهل شنترين (في غربي قرطبة) سكن إشبيلية ورحل إلى مصر واليمن وجاور بمكة مدة، وتوفي بمصر)) (1).

14. أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، من كبار حفاظ الحديث، ومؤرخ وأديب، ولد في قرطبة بالأندلس سنة (368 هـ) ونشأ فيها، عالم موسوعي من مشاهير علماء الأندلس وعلم من أعلام الأمة الإسلامية، قال عنه الحميدي ((فقيه حافظ مكثر، عالم بالقرآت وبالاخلاق في الفقه، وبعلم الحديث والرجال، قديم السماع، كثير الشيوخ على أنه لم يخرج عن الأندلس)) (2)، وتولى قضاء الأشبونة وشنترين في أيام ملكها المظفر بن الأفطس، وصنف كتاب بهجة المجالس وانس المجالس في ثلاثة أسفار.

15. أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي الكندي، قال عنه الحميدي ((أبو عمر يعرف بالرمادي، أظن أحد آبائه كان من رمادة موضع بالمغرب شاعر قرطبي، كثير الشعر، سريع القول، مشهور عند العامة والخاصة هنالك، لسلوكه في فنون المنظوم، ونفق عند الكل حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون: فتح الشعر بكندة، وختم بكندة، يعنون امرأ القيس، والمتنبي، ويوسف بن هارون)) (3).

16. ابن سارة الشنتريني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سارة البكري، الأندلسي، الشنتريني، نزيل إشبيلية، الشاعر المشهور، كان لغوياً شاعراً، مقلداً، يعيش بالوراقة، وتجوّل في الأندلس للتعليم بالعربية، وامتدح الأمراء وكتب لبعضهم. وكان أديباً ماهراً، شاعراً مخترعاً موجزاً قائماً على جمهرة من اللغة والنحو، حسن الخط، من أعلام شعراء الأندلس

(1) كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ابن بشكوال، 153.

(2) الأعلام، الزركلي، ج6. 249.

(3) جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، ابن أبي نصر الحميدي، 370.

على عهد الطوائف والمرابطين. ولد في بلدة شنترين وإليها يُنسب، وكان شاعراً ماهراً
ناظماً ناثراً، ويتصف شعره بالمتانة وعمق إشاراتِه اللغوية والتاريخية و اقتباساته من
القرآن الكريم والحديث والفقه والشعر، والأمثال والحكم وكان شاعراً ملماً بالتراث
العربي⁽¹⁾.

المطلب الثاني: العصر الذهبي للأدب والشعر الشنتيريني

إذا ذكرت شنترين، ذكر الشعر. لقد اشتهرت هذه المدينة بإنتاج "النثر المنظوم" والشعر الرقيق.
ويرجع الفضل في ذلك إلى طبيعة المدينة التي وصفها المؤرخ تعتبر مدينة شنترين
(Santarém) الواقعة على ضفاف نهر تاجة واحدة من أهم الحواضر الثقافية في إقليم "الغرب"
الأندلسي. لم تكن شنترين مجرد حصن عسكري منيع، بل شكلت بيئة خصبة لنمو حركة فكرية
وأدبية متميزة، أسهمت بشكل فعال في إثراء المشهد الحضاري للأندلس، خاصة في عصري
الطوائف والمرابطين⁽²⁾.

أولاً: الملامح العامة للحياة الثقافية

اتسمت الحركة الفكرية في شنترين بالتنوع والعمق، ويمكن حصر أهم مظاهرها في النقاط
التالية: الريادة الأدبية والنقدية: عُرِفَت المدينة بلقب "مدينة الأدباء"، حيث شهدت نهضة نقدية
كبرى تمثلت في تدوين الأدب الأندلسي وحفظه من الضياع، وهو ما عكس وعياً مبكراً بالهوية
الثقافية. البيئة الجغرافية وأثرها في الإبداع: ساهم جمال الطبيعة في شنترين وإطلالتها النهرية
في رقة الخيال الشعري لدى أبنائها، مما جعل "المدرسة الشنترينية" علامة فارقة في الشعر
الأندلسي. الرباط العلمي: نظراً لكونها مدينة ثغرية (حدودية)، امتزجت فيها الشخصية العلمية

(1) وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج 3 - 93. 96

(2) ينظر: الحملة الموحدية على شنترين سنة 580 هـ مقدماتها ووقائعها ونتائجها، حسين جبار
العليوي، جاسم ياسين الدروسي، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، 1997، ص55.

بالشخصية الجهادية، فكان العلماء يقضون أوقاتهم بين تدريس الحديث والفقه وبين الرباط للدفاع عن المدينة.

ثانياً: أبرز أعلام الفكر والأدب في شنترين

برزت من هذه المدينة شخصيات تركت بصمة لا تُمحى في التراث العربي، ومن أهمهم: ابن بسام الشنتريني (ت 542هـ): صاحب كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة". ويُعد هذا العمل أضخم موسوعة أدبية نقدية في تاريخ الأندلس، حيث اعتمد فيه منهجاً دقيقاً في اختيار النصوص وتحليلها، مما جعله مرجعاً لا غنى عنه للباحثين. ابن سارة الشنتريني (ت 517هـ): شاعر ولغوي فذ، تميز شعره بالزهد والحكمة والوصف الدقيق. تعكس قصائده التحولات السياسية والاجتماعية التي شهدتها الأندلس في فترات الاضطراب، ويُعد من أبرز وجوه الأدب في إقليم الغرب⁽¹⁾.

ثالثاً: مجالات العلوم والإنتاج المعرفي

توزع الإنتاج الفكري في المدينة على عدة حقول معرفية: العلوم الشرعية: برز اهتمام كبير بعلم الحديث والفقه المالكي، وكان لشيخوخة رحلات علمية واسعة إلى قرطبة والمشرق. اللغة والنحو: اهتم علماء شنترين بالحفاظ على فصاحة اللسان العربي في منطقة كانت تتسم بالاحتكاك الثقافي الدائم. الفكر الزهدي: انتشرت في المدينة تيارات التصوف السني والزهد، تأثراً بالمناخ الفكري العام لغرب الأندلس.

(1) ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج 3 ص 28 .

المطلب الثاني: المظاهر الفكرية والأدبية المشتركة بين المغرب وشنترين

لم تكن مدينة "شنترين" (Santarém) مجرد ثغر من ثغور غرب الأندلس، بل كانت بوابة ثقافية انصهرت فيها الروح المغربية بالأندلسية. إن الجسر الثقافي بينهما لم يقطعه بحر الزقاق، بل ظل ممدوداً عبر رحلة العلماء والشعراء، وهو ما سنفصله في المطالب التالية.

الحركة العلمية وتبادل العلماء (الرحلة والتدريس)

اتسمت العلاقة العلمية بين المغرب وشنترين بالتبادلية؛ حيث كانت شنترين مدرسة تخرج منها كبار اللغويين والفقهاء الذين استقبلهم المغرب بالترحاب.

الشواهد العلمية: برز في هذا السياق علماء من "شنترين" تولوا مناصب عليا في المغرب، مثل القضاء والخطابة في جامع القرويين أو مراكش.

أثر الرحلة: كان طالب العلم المغربي لا يكتمل تكوينه إلا بالمرور بـ "ثغر الغرب" (شنترين)، حيث يأخذ عن شيوخها علوم اللغة والقراءات. وقد ذكرت المصادر (مثل كتاب "الذخيرة") كيف كان علماء شنترين يحملون معهم المخطوطات النادرة إلى حواضر المغرب، مما ساهم في توحيد المنهج الدراسي بين الضفتين⁽¹⁾.

أولاً: الأواصر الأدبية والإنتاج الشعري المشترك

لقد كانت شنترين موطن البيان وامتزج شعرها بروح الحماسة المغربية خاصة في عهد الموحدين. الشواهد الشعرية: اشتهرت شنترين بشعر لحنين والثناء، ومن أبرز ما يُستشهد به في هذا السياق ما قاله شعراء شنترين في مدح سلاطين المغرب الذين هبوا لنجدتها، أو القصائد التي قيلت في "فقدان المدينة" حينما بدأت تقع تحت حصار الممالك المسيحية.

(1) مظاهر الثقافة المغربية دراسة في الادب المغربي في العصر المريني محمد بن احمد بن شقرون

دار الثقافة الدار البيضاء 1985 ص 98.

ابن بسام الشنتريني: يُعد كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" أعظم وثيقة أدبية تربط بين الضفتين؛ فابن بسام الذي ولد في شنترين، كتب مؤلفه بروح تجمع بين الاعتزاز بالأندلس والولاء للمجال الحضاري الإسلامي الذي يمثل المغرب عمقه الاستراتيجي.

ثانيًا: الوحدة الفكرية والمذهبية (المالكية والتصوف)

لقد تشكل عقل جمعي واحد بين المغرب وشنترين، برزت معالمه في: رسوخ المذهب المالكي: كانت الفتاوى التي تصدر في سبتة وفاس هي ذاتها المعمول بها في مجالس القضاء في شنترين.

التصوف والزهد: انتقلت تجربة "ابن قسي" وحركة "المريدين" في غرب الأندلس لتجد لها صدىً واسعاً في أوساط المتصوفة بالمغرب، مما يؤكد أن الاتصال لم يكن رسمياً فقط، بل كان شعبياً وروحياً⁽¹⁾.

إن قراءة العلاقات بين المغرب وشنترين من خلال صفحات هذه الرسالة تؤكد أن المسافة الجغرافية تلاشت أمام "وحدة المصير الثقافي". فشنترين كانت "مغربية الهوى" في صمودها وعلمها، والمغرب كان "شنتريني الذوق" في بلاغته وأدبه.

أن حركة التأليف في الأندلس لم تكن نشاطاً معرفياً معزولاً، بل شكّلت أساساً لنشوء الوعي النقدي وتطوّره، وأنّ العلاقة بين التأليف والنقد كانت علاقة تفاعلية أسهمت في بناء الخطاب الأدبي الأندلسي⁽²⁾.

من خلال التركيز على مدينة Santarém (شنترين)، عن خصوصية هذه البيئة في تمثّل هذه العلاقة، إذ ظهر التأليف فيها بوصفه ممارسة نقدية ضمنية، تتجلى في الشروح والمختارات وكتب التراجم، مما يدلّ على أنّ النقد لم يكن منفصلاً عن عملية التأليف، بل منبثقاً منها.

(1) النبوغ المغربي في الادب العربي عبد الله كنون دار الكتب العلمية بيروت ط 2، 2014

(2) ينظر: مظاهر الثقافة المغربية، ص 99.

كما تبين أن الاتجاهات النقدية في شنترين قد مرت بمراحل تطوّر واضحة، بدأت بالاتجاه اللغوي الذي ركّز على سلامة التعبير، ثم انتقلت إلى الاتجاه الجمالي الذي عني بتذوّق النصوص، وصولاً إلى الاتجاه العقلي الذي سعى إلى تفسير الظواهر الأدبية وتحليلها.

وتؤكد هذه النتائج أن دراسة المدن الأندلسية بوصفها وحدات ثقافية مستقلة نسبياً تتيح فهمًا أعمق لطبيعة الحركة النقدية، وتكشف عن تنوّع تجلياتها داخل الإطار الحضاري الواحد. (1)

المبحث الثاني: المشهد الثقافي للمدينة والتحديات التي واجهتها:

أولاً: دور الرحلة العلمية في تنشيط التأليف في شنترين

لم تكن حركة التأليف في شنترين وليدة بيئة مغلقة، بل نشأت في سياق تفاعل علمي واسع، كان للرحلة فيه دور حاسم، إذ شكّلت الرحلة العلمية وسيلة رئيسة لانتقال الكتب والأفكار، وأسهمت في تغذية الحركة التأليفية في المدينة، ومن جانب آخر الوافدين الذين نقلوا ثقافتهم المشرقية وآدابهم لهذه المدينة، فضلاً عن تشجيع الولاة على الحركة العلمية في المدينة.

فقد كان علماء شنترين، شأنهم شأن غيرهم من علماء الأندلس، يرتحلون إلى المشرق طلباً للعلم، ثم يعودون محمّلين بالمصنفات، وهو ما أتاح للمدينة الاطلاع المباشر على مصادر المعرفة الأصلية، لا على نقلها فقط، بل سار بعضهم على النهج المشرقي نتيجة تأثرهم بالمشرق، وسار بعضهم على نهج جديد مزج مابين الثقافة المشرقية والثقافة الأندلسية وكان نتاجاً علمياً جديداً يُضاف إلى الأدب العربي.

وقد أدّى ذلك إلى ظهور نمط خاص من التأليف في شنترين يقوم على:

1- استيعاب النص المشرقي.

2- إعادة شرحه .

3- مناقشته وتقويمه .

وهذا ما يجعل التأليف في هذه المدينة يتجاوز حدود النقل إلى حدود التفاعل النقدي.

وقد أكد الباحثون أنّ الرحلة العلمية كانت من أهم العوامل التي أسهمت في ازدهار الحياة الأدبية والنقدية في الأندلس⁽¹⁾، والسبب يكمن أنّ بيئة هذه المدينة بيئة حية باعثة على اكتساب العلوم والمعرفة والتفاعل معها، ومن أهم تلك البواعث:

1- دور العبادة .

2- دور العلماء .

3- بلاط الولاة .

وهذه البواعث كانت سبباً ومحفزاً لدفع عجلة الرحلة في طلب العلم ونقله والتفاعل معه، في بلاد الأندلس وفي شنترين تحديداً، يمكن القول إنّ الرحلة لم تكن مجرد وسيلة تعليم، بل كانت أداة لإعادة تشكيل الذوق النقدي.

ثانياً: المؤدّبون في شنترين وبناء الذوق النقدي

يُعدّ المؤدّبون من أبرز الفئات التي أسهمت في تشكيل حركة التأليف في شنترين، إذ كانوا يتولّون تعليم النشء، وتلقينهم اللغة والأدب، وهو ما جعلهم يمارسون النقد بشكل يومي.

وقد انعكس ذلك في طبيعة التأليف، حيث ظهرت كتب تعليمية تتضمّن:

1- شرح النصوص .

2- تصحيح الأخطاء .

3- إبداء الملاحظات النقدية.

وكان هذا اللون من التأليف موجّهاً أساساً إلى تكوين الذوق الأدبي، لا إلى التنظير المجرد.

(1) معجم الأدباء - ياقوت الحموي، 467/1 .

وقد كان نقد المؤدّبين يعتمد على الذوق والانطباع، لكنه لم يكن ساذجاً، بل كان يستند إلى خبرة طويلة في التعامل مع النصوص.

ويشير الدارسون إلى أنّ بدايات النقد في الأندلس ارتبطت بحلقات التعليم، وبملاحظات المؤدّبين⁽¹⁾، وفي شنترين، شكّل هؤلاء المؤدّبون النواة الأولى للوعي النقدي، إذ كانوا يوجّهون المتعلمين إلى تذوّق النصوص، والتمييز بين جيدها وريئها.

ثالثاً: التأليف بوصفه ممارسة نقدية في شنترين:

إذا تأملنا طبيعة المؤلفات التي ظهرت في شنترين، وجدنا أنها لم تكن تخلو من البعد النقدي، حتى وإن لم تُصنّف ضمن كتب النقد، فكتب التراجم، على سبيل المثال، لم تكن تكتفي بذكر أخبار الأدباء، بل كانت تتضمن أحكاماً على شعرهم، وملاحظات على أساليبهم، وكذلك كتب المختارات، التي كانت تقوم على انتقاء النصوص، وهو اختيار يقوم في أساسه على حكم نقدي.

ومن هنا يمكن القول إنّ التأليف في شنترين كان وسيلة لحفظ التراث، أداة لممارسة النقد في الوقت نفسه.

وقد أشار بعض الباحثين إلى أنّ كثيراً من الآراء النقدية في الأندلس جاءت مبثوثة في كتب غير نقدية⁽²⁾.

وهذا ما ينطبق بوضوح على البيئة العلمية في شنترين، حيث تداخل التأليف مع النقد بشكل وثيق.

(1) ابن شهيد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي، عبد الله المعطاني، ص 68.

(2) ينظر: النبوغ المغربي، عبدالله كنون، 128/3.

الفصل الثاني

الاتجاهات النقدية في شنترين وأثر
التأليف في تشكيلها

قبل الولولج في الحديث عن شعراء مدينة شنترين، اشرتُ أن أقف على الحركة النقدية التي سادت آنذاك والتي أضحت تشكل احكامًا نقدية أسهمت في بناء القصديّة الشنترينية

أولاً: الاتجاه اللغوي في نقد شنترين

يُعدّ الاتجاه اللغوي من أقدم الاتجاهات النقدية التي ظهرت في شنترين، وقد نشأ في ظلّ حركة التأليف اللغوي التي ركّزت على ضبط اللغة وحمايتها من اللحن⁽¹⁾.

وقد انصبّ اهتمام هذا الاتجاه على:

1- صحة الألفاظ.

2- سلامة التراكيب.

3- موافقة القواعد النحوية.

وكان النقد في هذا السياق يتخذ طابعاً تصحيحياً، يهدف إلى تقويم النصوص، لا إلى تحليلها من الناحية الجمالية.

وقد نشأ هذا الاتجاه نتيجة طبيعة البيئة التعليمية في شنترين، التي كانت تعتمد على الرواية والتلقين، مما جعل اللغة محور الاهتمام.

ويؤكّد إحسان عباس أنّ النقد في الأندلس بدأ لغوياً قبل أن يتطوّر إلى مجالات أخرى.

وفي شنترين، ظلّ هذا الاتجاه حاضراً بقوة، حتى بعد ظهور اتجاهات أخرى⁽²⁾.

(1) تيارات النقد الأدبي في الأندلس - مصطفى عليان - ص 11 .

(2) تاريخ النقد الأدبي عند العرب - إحسان عباس - ص 471

ثانيًا: الاتجاه الجمالي وتطور الذوق النقدي في شنترين.

مع تطور حركة التأليف، لم يعد النقد في شنترين مقتصرًا على الجانب اللغوي، بل بدأ يتجه نحو الاهتمام بجمال النص، وتحليل عناصره الفنية.

فقد أصبح النقاد يهتمون بـ:

الصور البلاغية وحسن التشبيه وجودة المعاني وانسجام الأسلوب .

وقد ارتبط هذا التحول بتراكم الخبرة الأدبية، وكثرة الاطلاع على النصوص، مما أسهم في صقل الذوق النقدي (1).

وفي هذا السياق، أصبح الحكم على النص لا يقوم على صحته اللغوية فقط، بل على أثره في النفس، وهو ما يمثل نقلة نوعية في التفكير النقدي.

وقد أشار الباحثون إلى أنّ النقد الأندلسي عرف تطورًا من النزعة اللغوية إلى النزعة الجمالية (2). من حيث اهتمامهم بـ:

1- بالمعاني والصورة: (الخيال + صدق العاطفة)

2- الموازنات النقدية: كمعارضات ابن دراج - في مدحه للمنصور ابن أبي عامر - لسيفيات أبي الطيب، وذلك في غير ما قصيدة من الديوان، مما حمل الثعالب على القول ((بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتبني بصقع الشام)) (3).

3- تذوق النص الأدبي: جعلوا هناك معايير للجمال والإبداع وسحر البيان

(1) تاريخ الأدب الأندلسي - إحسان عباس - ص 88 .

(2) نفسه، ص 101.

(3) يُنظر : تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، ط 4 - 1983، دار الثقافة بيروت - لبنان، 484.

وفي شنترين، يمكن ملاحظة هذا التطور من خلال طبيعة الأحكام التي أخذت تميل إلى التدوق الفني⁽¹⁾

ثالثاً: الاتجاه العقلي والفلسفي في نقد شنترين

مع ازدياد حركة التأليف، خاصة في مجالات الفلسفة والمنطق، بدأ يظهر في شنترين اتجاه نقدي جديد يتسم بالطابع العقلي.

وقد اهتم هذا الاتجاه بـ: تحليل المعاني والبحث في علل الجمال وتفسير الظواهر الأدبية تفسيراً عقلياً، وكان هذا التحول نتيجة طبيعية لاتساع دائرة المعرفة، وإطلاع العلماء على كتب الفلسفة.

وقد أسهم هذا الاتجاه في تعميق النظر النقدي، ونقله من مستوى الذوق إلى مستوى التحليل.

ويشير بعض الدارسين إلى أن النقد في الأندلس تأثر بالفلسفة في مراحله المتأخرة⁽²⁾.

وفي شنترين، مثل هذا الاتجاه مرحلة نضج في الوعي النقدي، ونضج الحركة النقدية التحديات التي واجهت المشهد الثقافي.

رغم هذا الثراء، فإن المشهد الثقافي في شنترين واجه سلسلة من التحديات العميقة:

1. الاضطراب السياسي

سقوط الخلافة وظهور دويلات متنازعة في عصر ملوك الطوائف أدى إلى:

أ. تفكك الوحدة السياسية

ب. ضعف الاستقرار

ج. تراجع الدعم المؤسسي للعلم والثقافة

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرئ، ج3، ص 172.

(2) تيارات النقد الأدبي في الأندلس - مصطفى عليان - ص 60.

2. الصراع العسكري المستمر

تحولت المدينة إلى ثغر عسكري متقدم، مما جعلها ساحة حرب دائمة، خاصة خلال:

أ - حروب الاسترداد

ب - معركة شنترين

وهذا الصراع أثر سلباً على الحياة الثقافية، إذ انشغل الناس بالبقاء بدل الإبداع.

3. التغير الديموغرافي القسري بعد سقوطها بيد ألفونسو هنريكز:

أ - حدث تهجير أو انحسار للعنصر الإسلامي.

ب - تغيرت البنية السكانية، وقد تراجعت اللغة العربية والثقافة الإسلامية ايضاً، فضلاً عن انهيار الحاضنة الثقافية بفقدان الحكم الإسلامي فقدت المؤسسات العلمية رعايتها، وتلاشت البيئة المنتجة للأدب، وانقطعت الصلة بالمراكز الثقافية الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية.

5. الأزمات الداخلية

لقد عانت المدينة قبل سقوطها من أزمات متمثلة بـ:

أ - الثورات والفتن.

ب - الصراعات بين العرب والبربر أحياناً.

ج - ضعف الإدارة المركزية.

وهذه العوامل كلها أضعفت استمرارية المشروع الثقافي، يمكن القول إن المشهد الثقافي في شنترين قام على ثنائية الازدهار والهشاشة؛ فهو ازدهر بفضل الموقع والتمازج والرعاية السياسية، لكنه ظل هشاً أمام التحولات العسكرية والسياسية. ولذلك، فإن سقوطها لم يكن مجرد حدث عسكري، بل كان انقطاعاً لمسار ثقافي كامل، انعكس في هجرة العلماء واندثار مراكز العلم.

المبحث الأول: شعراء مدينة شنترين : الموضوعات الشعرية وفنونها

مثلّ الشعر الأندلسي مرآة صادقةً تعكس طبيعة الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية في مدن الأندلس المختلفة، إذ لم يكن مجرد تعبير جمالي، بل كان سجلاً حيّاً لتجارب الإنسان الأندلسي في تفاعله مع بيئته وتحولات عصره. ومن هذا المنطلق تبرز أهمية دراسة النتاج الشعري في المدن الأندلسية بوصفه مدخلاً لفهم الخصائص الثقافية التي ميّزت كل مدينة على حدة، مع ما بينها من قواسم مشتركة تؤكد وحدة التجربة الحضارية.

وتُعدّ مدينة شنترين واحدة من الحواضر الأندلسية التي أسهمت في إثراء المشهد الأدبي، رغم ما أصابها من تقلبات سياسية وصراعات عسكرية أثّرت في بنية المجتمع وحياة الأفراد. وقد انعكس ذلك بوضوح في شعر شعرائها، الذين تنوعت أغراضهم وتعددت موضوعاتهم، إلا أنها ظلت تدور في فلك مشترك يعكس هموم البيئة الأندلسية وخصوصية التجربة المحلية في آنٍ واحد.

وانطلاقاً من هذا التصور، يسعى هذا الفصل إلى رصد الموضوعات الشعرية المشتركة لدى شعراء شنترين، والكشف عن أبرز الأغراض التي شكّلت محور إبداعهم، مثل: الغزل، والمدح، والثناء، والوصف، والزهد، وغيرها من الموضوعات التي لم تكن منفصلة عن سياقها الحضاري، بل كانت وثيقة الصلة بحياة المجتمع الأندلسي، بما يحمله من مظاهر الترف أحياناً، ومن القلق والاضطراب أحياناً أخرى.

كما يهدف هذا الفصل إلى تجاوز الطابع الوصفي إلى تحليل هذه الموضوعات في ضوء السياق الثقافي والاجتماعي، وبيان مدى تأثرها بالتحوّلات السياسية التي شهدتها المدينة، فضلاً عن إبراز السمات الفنية التي اتسم بها تناول هذه الأغراض، ومدى اشتراك الشعراء في بنائها أو اختلافهم في معالجتها.

وعليه، فإن هذا الفصل لا يقف عند حدود الإحصاء الموضوعي للأغراض الشعرية، بل يسعى إلى تقديم رؤية تحليلية تكشف عن البنية العميقة للخطاب الشعري في شنترين، بوصفه نتاجاً ثقافياً يعكس تداخل الذاتي بالجمعي، والمحلي بالعام، في إطار التجربة الأندلسية الثرية.

المطلب الأول: الموضوعات الشعرية المشتركة لدى شعراء مدينة شنترين الأندلسية:

تعد مدينة شنترين من أهم الحواضر التي أنجبت أدباء ومؤرخين فقد برز فيها شعراء جمعوا بين بلاغة اللفظ وعمق المعنى وتشابهت أغراضهم الشعرية نتيجة البيئة العلمية والأوضاع السياسية المعاصرة لهم ومن أهم الأغراض المشتركة التي نظم فيها هؤلاء الشعراء ما يأتي:

أولاً: الغزل

يُعدّ الغزل من أبرز الموضوعات الشعرية التي شغلت شعراء الأندلس عمومًا، وشعراء شنترين على وجه الخصوص، إذ ارتبط بطبيعة الحياة الأندلسية القائمة على الترف والرقّة وتقديس الجمال، فضلًا عما أتاحتها البيئة من عناصر حسية وجمالية أسهمت في إثراء هذا اللون الشعري.

ولم يكن الغزل عند شعراء شنترين مجرد وصفٍ تقليدي للمحوبة، بل تجاوز ذلك ليغدو تعبيرًا عن تجربة شعورية مركّبة، تتداخل فيها معاني الشوق والحرمان والوصال، وتتقاطع مع حالات نفسية تعكس قلق الإنسان الأندلسي في ظل التحولات السياسية والاجتماعية التي عاشها.

ف نجد الشاعر يُقبل على تصوير مفاتن محبوبته بلغة شفافة، تستمد عناصرها من الطبيعة الأندلسية، فيشبهه الخدود بالورد، والعيون بالنرجس، والقوام بالغصن الرطيب، في إطار صور تقليدية من حيث الأصل، لكنها تكتسب خصوصيتها من خلال الصياغة الفنية واللمسة الذاتية.

ومن ذلك قول أحد شعراء شنترين:

يا رُبَّ مائِسَةٍ المَعاطِفِ تَزْدهي	مِنْ كُلِّ غُصْنٍ خافِقٍ بِوشاحٍ
مُهتَرَّةٍ يَرْتَجُّ مِنْ أعْطافِها	ما شِئتُ مِنْ كَفَلٍ يَمْوِجُ رِداحٍ
نَقَضَتْ ذَوائِبَها الرِّياحُ عَشِيَّةً	فَتَمَلَّكَتْها هِرَّةُ المُرْتاحِ

فالشاعر هنا لا يكتفي بوصف الجمال، بل يصورها على نحو انساني تملؤه الحركة والنشاط، وهي صورة تعكس عمق التأثر الوجداني.

كما يتخذ الغزل أحياناً طابع الشكوى من الهجر والصدود، فيعبّر الشاعر عن معاناته بأسلوب يمزج بين الرقة والألم، كما في قول ابن زمرك: (1)

وكم غُصْنٍ قد عانق الغصنَ مثله وكلُّ على كلٍّ من الشوق يَسْتَعْدِي

قبيح وداع قد جلا لعيوننا محاسن من روض الجمال بلا عَدِّ

رعى الله لَيْلَى لو علمت طريقها فَرَشْتُ لأخفاف المطيِّ بها خَدَيَّ

وهنا يتجلى البعد الإنساني في التجربة الغزلية، إذ تتحول عناصر الطبيعة إلى شريك وجداني في معاناة الشاعر.

ولا يخلو الغزل الشنتريني من نزعة عفيفة في بعض نصوصه، حيث يسمو الحب إلى مستوى روحي، متأثراً بالتيارات الزهدية التي سرت في المجتمع الأندلسي في بعض مراحلها، فيبتعد عن الوصف الحسي المباشر، ويقترب من التعبير عن صفاء العلاقة وسموها كما في (2):

ركبنا إلى اللذات في طَلَقِ الصِّبَا مطايا الليالي وادعينَ إلى حَدِّ

فإن لم ندر فيها الكؤوس فإننا وردنا بها للأنس مُستعذب الورد

ومن خلال ذلك يمكن القول إن الغزل عند شعراء شنترين يجمع بين البعد الحسي المرتبط بجمال الطبيعة والبعد النفسي المرتبط بالمعاناة الوجدانية والبعد الثقافي المتأثر بظروف المجتمع الأندلسي، مما يجعله غزلاً غنياً بالدلالات، يتجاوز حدود التقليد إلى فضاء التجربة الإنسانية العميقة.

ويتجلى في هذا الغزل ميل واضح إلى تصوير الجمال تصويراً حياً نابضاً إذ يستحضر الشاعر عناصر الطبيعة الأندلسية ليبني منها معجمه الشعري في شَبّه الخدود بالورد المتفتح والعيون

(1) ديوان ابن زمرك الأندلسي، ت: محمد توفيق النيفر، دار الغرب العربي، ط1 - 1997، ص382.

(2) ديوان ابن خفاجة، ت: عبد الله سنرة، دار المعرفة بيروت - لبنان، ط1 - 2006، ص 80.

بسحر النرجس الفاتن دائماً ويجعل القوام غصناً ليناً يتمايل مع النسيم في رقة وعذوبة وهذه الصور على تقليديتها تمنح النص بعداً جمالياً مؤثراً عميقاً لما تحمله من انسجام بين الطبيعة والوجدان في التجربة الشعرية ولا يقف الغزل عند حدود الوصف الحسي بل يتجاوزه إلى البعد النفسي حيث يعبر الشاعر عن حالته الوجدانية في لحظات الشوق والحرمان فتغدو القصيدة مساحة لبث الألم والتعبير عن معاناة الفراق الطويل كما تتخذ اللغة طابعاً شفيفاً يمزج بين الرقة والانكسار العاطفي، ومن الشواهد التي تعكس هذا البعد قول ابن زمرك⁽¹⁾:

قيادي قد تملكه الغرام ووجدي لا يُطاق ولا يرام

ودمعي دونه صوب الغوادي وشجون فوق ما يشدو الحمام

إذا ما الوجد لم يبرح فؤادي على الدنيا وساكنها السلام

فهو هنا يجعل الليل مخاطباً يشاركه همومه وآلامه المستمرة وتكشف هذه الصورة عن عمق المعاناة واتساع دائرة الحزن الداخلي كما يظهر في بعض النصوص ميل إلى الغزل العفيف الرقيق الهادئ الذي يسمو بالعاطفة بعيداً عن الوصف الجسدي المباشر للمحبة متأثراً بما شاع في المجتمع من نزعات زهدية وروحية مختلفة فتصبح المحبة رمزاً للنقاء أكثر منها موضوعاً للوصف الحسي وفي هذا السياق تتداخل التجربة الغزلية مع أبعاد أخلاقية واضحة تعكس وعي الشاعر بطبيعة التحولات الفكرية في المجتمع الأندلسي، ومن هنا يمكن القول إن الغزل الشنتريني يجمع بين الحسي والروح يفي إطار فني متوازن يعكس خصوصية التجربة الشعرية في المدينة كما يكشف عن قدرة الشعراء على توظيف التراث بأسلوب متجدد دائماً مما يمنح هذا الغرض بعداً فنياً يتجاوز حدود التقليد إلى الإبداع كما في قول ابن صارة⁽²⁾.

قاسيت حبك منذ حول كامل وطيور آمالي عليك تحوم

(1) دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، ج5- 484.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسّام الشنتريني، ج4 - 837.

فحرمت منك بلوغ ما أملتُهُ أشقى البرية عاشق محرومٌ

يعبر الشاعر عن الألم والمعاناة (المقاساة) التي عاشها في حب الطرف الآخر طوال سنة كاملة، وكذلك شبه آمانيته ورغباته في الوصال بالطيور التي تطير وتحوم حول الحبيب، في إشارة إلى استمرار الأمل رغم المعاناة، فالشاعر وظَّفَ الموروث في صناعة هذه الصورة الشعرية.

شعر الحكمة والفلسفة والوعظ الأخلاقي:

تميز شعراء شنترين ببيئة علمائية- دينية انعكست بوضوح على قصائدهم فنرى أبا عامر ابن سوار يميل للمذهب الكلامي ببعد فلسفي حيث يسعى في شعره لفهم غوامض الوجود وعلاقة الإنسان بالطبيعة لم تزل قائمات بحضيض كما في :

يا لقومي دفنوني ومضوا وبنوا في الطين فوقى ما بنوا

ليت شعري إذ رأوني ميتاً وبكوني أي جزأي بكوا

أنعوا جسمي فقد صار إلى مركز التعفين أم نفسي نعوا

كيف ينعون نفوساً لم تزل قائمات بحضيض وبجو⁽¹⁾

أما مسعود بن سليمان بن مفلت فقد اتسم شعره بالموعظة وهو شاعر زاهد متواضع كان لا يرى التقليد في مذهبه وقد حث في شعره على طلب الكمالات الأخلاقية والروحية العالية ومن أبياته السائرة في الحكمة والتحفيز على فعل الخير قوله⁽²⁾:

نافس المحسن في إحسانه فسيكفيك مسيئاً عمله

(1) المصدر نفسه، ج3. 479.

(2) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ابن بشكوال، 183.

وهذا الأسلوب يعكس رغبة الشعراء في ترفيع قدر الإنسان بالقيم وتتجلى الحكمة أيضاً في شعر ابن سارة البكري بعمق إشاراته حيث ضمن شعره اقتباسات من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

شعر المراسلات والاعتذار والإشادة بالأدباء

كانت المراسلات الشعرية وسيلة للتواصل والاعتذار بين أدباء ذلك العصر فقد كتب الرمادي⁽¹⁾ الكندي إلى فرحون بن عبد الله والي شنترين معاتباً إياه على تقصير في الضيافة بأسلوب شعري رقيق ومؤثر ورد عليه فرحون معتذراً ومادحاً لشاعريته ببيات جزلة منها قوله⁽²⁾:

أيها السيد أهلا	بالذي أهديت أهلا
ما يناويك مناو	إن وصلت القول وصلا
شاعراً ندباً نبيلاً	محسناً جداً وهزلاً
ما تولى الشعر إلا	رد منه الوعر سهلاً
شعره سح ووبل	إذ يكون الشعر طلا
محكم غض بديع	لا يكاد الدهر يبلى

وتعكس هذه المساجلات الرقي الأدبي والتقدير المتبادل بين شعراء الأندلس فالرمادي الكندي كان يوصف بأنه خاتم الشعر في قبيلة كندة وقد برع في الوصف والمدح والارتجال السريع للصور الشعرية البليغة⁽³⁾.

(1) سكن شنترين بعد أن سقطت مدينة رمادة وعرف بمدحه الملوك، ترجمة في الذخيرة: 25/3.

(2) ديوان الرمادي يوسف بن هارون، ص 139.

(3) كما عبر عن ذلك عبد الله كنون في كتابه النبوغ المغربي، ص 68.

شعر الوصف (وصف الخيل والطبيعة)

تبارى الشعراء في وصف الخيل ومحاسنها بدقة وبلاغة لغوية عالية ومن ذلك وصف فرس المتوكل ابن الأفطس الذي برع فيه حيث وصف الشعراء تحجيله وسرعته مستخدمين استعارات من الطبيعة والنجوم يقول أبو الوليد النحلي⁽¹⁾ في وصف فرس سابع كالريح تماماً:

ركب البدرُ جواداً سابحاً تقف الريح لأدنى مُهلُهُ

لبس الليلُ قميصاً سابغاً والثريا نقطٌ في كفله

وغدير الصبح قد خيض به فبدا تحجيله من بلله

بينما تناول ابن اللبانة الوصف بصورة أكثر عمقاً في خياله⁽²⁾:

لك الجال يا ابن محمد فحبت به حوباؤه التأميلا

كأن الظلام أديمه أهدى لأربعة الهدى تحجيلا

وفي الردف منه مباسم تبغي هناك لرجله تقبيلا وهذا النوع من الوصف يؤكد تفنن شعراء شنترين في الخيال وقدرتهم على تحويل المشاهد المحسوسة إلى لوحات أدبية باقية خالدة فقد استطاعوا نظم قلائد شعرية تضاهي إنتاج المشاركة في الجودة مما جعل ابن بسام يفاخر بهم في كتابه الشهير "الذخيرة"⁽³⁾.

شعر الزهد والتحذير من اغترار المرء بالدنيا

برع شعراء شنترين في تصوير تقلبات الدهر ونهاية الإنسان المحتومة وقد استمدوا هذا التوجه من واقع الاضطرابات السياسية التي عاصروها فنرى أبا عامر ابن سوار الشنتريني يغوص في

(1) ينظر: نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، المقري، ج4 - 84 .

(2) ديوان ابن اللبانة الداني، جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد، دار الراية، عمان، ط2، 2008، ص172.

(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج3 - 128 .

معاني الفناء الجسدي ويقدم رؤية فلسفية حول تحلل البدن وعودة الروح لخالقها البارئ وهذا النفس الزهدي نجده أيضاً عند مسعود بن سليمان الشنتريني الذي كان يوصف بالفقيه العالم الزاهد المائل إلى مذهب الظاهر فقد صاغ أبياتاً تدعو إلى التمسك بالفضائل وترك رذائل الأمور حيث يرى أن العمل الصالح هو الأنيس الوحيد في القبر ومن حكمه البليغة التي سارت بها الركبان في آفاق الأندلس: نافس المحسن في إحسانه فسيكفيك مسيئاً عمله فالمنافسة الحقيقية في نظره هي التي ترفع شأن المرء عند ربه وتجعله محبوباً في الدنيا وناجياً في الآخرة من عذاب السعي⁽¹⁾.

شعر الإخوانيات والمساجلات الأدبية بين شعراء العصر

كانت شنترين مركزاً للتواصل الأدبي بين الشعراء والكتاب في الأندلس وقد حفظت لنا المصادر مراسلات شعرية تعكس رقي الذوق العام ومن ذلك المساجلة الشهيرة بين الرمادي الكندي والوالي فرحون بن عبد الله حين نزل الرمادي ضيفاً بشنترين ولم يلق الترحاب الذي يليق بمكانته فكتب أبياتاً يشكو فيها سوء الضيافة بأسلوب مهذب وعتاب رقيق:

أيها العارض والمهدي لمستسقيه وبلا حين لا يهدى إذا ما أستسقي العارض طلا

قائداً أفنت مغازيه العدا سبياً وقتلا إن ضيفاً قاصدا قلت له أهلا وسهلا

قد توسعت له فيما يسر الضيف نزلا ما له فرش على الأرض سوى وجه مصلى

فأنا لولا اصطبار رد منه الوعر سهلا لم تجد عيني لنوم بمبيت السوء كحلا

فما كان من فرحون إلا أن اعتذر بأبيات تفيض تقديراً لمكانة الرمادي الأدبية الرفيعة : أيها السيد أهلا بالذي أهديت أهلا ما يناويك مناو إن وصلت القول وصلا شاعراً⁽²⁾

(1) ينظر: قصيدتان نادرتان في المدح النبوي، رعد ناصر مايود، مجلة لارك، العدد 9 لعام 2012، ص166، كلية الاداب، جامعة واسط.

(2) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1955م، ج1، ص 419.

ندباً نبيلاً محسناً جداً وهزلاً ما تولى الشعر إلا رد منه الوعر سهلاً

شعره سح ووبل إذ يكون الشعر طلا محكم غض بديع لا يكاد الدهر يبلى

فله ما قلت أهلاً ثم رحباً ثم سهلاً أيها السيد مهلاً بأخيك المحض مهلاً

إن شكواك إلينا ولدت في النفس خبلاً ونفت نومي فلما تكتحل عيناك كحلاً

وتعد هذه الأبيات نموذجاً حياً لروح الأخوة والمكانة الرفيعة للشعر⁽¹⁾.

شعر العلم والتعليم والمنظومات التعليمية في الأندلس

لم يكن شعراء شنترين مجرد ناظمين للقصائد الوجدانية بل كانوا علماء فقد برز محمد بن عبد الملك بن السراج الشنتريني كإمام للنحو وعرف بلقب الشنتمري وكان مبرزاً في علوم العربية وفنون اللغة المختلفة وقد ارتحل إلى المشرق وجاور بمكة المكرمة ونشر علمه في مصر وصنف كتباً تعد مراجع في علم العروض وموازين الشعر العربي الأصيل منها كتاب "تلقيح الألباب على فضائل الإعراب" وكتاب "المعيار في العروض"⁽²⁾ وكان شعره يتسم بالدقة العلمية والوضوح والبعد عن التكلف اللفظي الزائد حيث كان يهدف من خلاله إلى تسهيل قواعد اللغة لطلبة العلم وقد تخرج على يديه كبار العلماء مثل اللغوي المصري الشهير ابن بري وهذا يعكس الدور الريادي الذي لعبه أبناء شنترين في النهضة العلمية فقد كان العلم بالنسبة لهم عبادة وقيمة عليا ترفع من شأنهم وتجلى ذلك في قصائدهم التي كانت تمزج بين الفقه واللغة والأدب مما جعل إنتاجهم الأدبي يتسم بالرصانة والعمق والقدرة على البقاء طويلاً فالعالم الشاعر يمتلك أدوات البيان التي تمكنه من صياغة الحقائق بجمال وهذا ما ميز المدرسة الشنترينية التي جمعت بين رقة الأدب وجزالة العلم فظهرت قصائدهم كقلائد مرصعة بجواهر اللغة والبيان

(1) الحلة السيرة، ابن الآبار، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م، ج3، ص88.

(2) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، ج2، ص237.

العربي الفريد في عصره واستمر أثرهم في المشرق والمغرب كمنارات تهدي السالكين في دروب المعرفة حيث لم تمنعهم الغربة عن نشر تراث مدينتهم الأندلسية في كل صقع بل كانوا سفراء فوق العادة لثقافة شنترين العريقة في المحافل العلمية⁽¹⁾.

شعر الحنين إلى الأوطان وتصوير الغربة والاغتراب

عاش شعراء شنترين فترات قلقة من تاريخ الأندلس مما ولد الاغتراب فقد اضطر الكثير منهم للرحيل عن مدينتهم بسبب الفتن أو طلب العلم وهذا الرحيل ولد شحنة عاطفية قوية ظهرت في قصائد الحنين للأهل ونجد ذلك بوضوح في سيرة ابن بسام الشنتريني الذي فارق وطنه وظل يحمل في قلبه غصة الرحيل ومرارة البعد عن مراحع الصبا فكان يصف شنترين بأنها المحل الذي ينظم في جيده الدهر القلائد وعبر عن آلامه نتيجة سوء الأوضاع التي آلت إليها بلاد الأندلس فالشعر كان وسيلته لتفريغ الهموم وبث الشكوى من صروف الزمان المتقلب كما في قول ابن بسام الشنتريني : ⁽²⁾. لأمر ما تجافتني النزوع وأقلقني عن الوطن النزوع

فجرعة شنترين شفاء نفسي وإن بعد المزار فما تضيع

يتساءل الشاعر متعجباً عن السبب الخفي الذي منعه من الاستقرار، وجعله دائم الحركة والنزوع الاشتياق والسفر حتى أقلقه هذا الشوق وأخرجه غصباً عن وطنه.

يؤكد أن شربة ماء صغيرة (جرعة) من أرض وطنه "شنترين" هي الشفاء الحقيقي لنفسه العلية، وأن حب هذه المدينة لا يضيع من قلبه أبداً مهما بعدت مسافة السفر.

وتجلى أيضاً هذا الغرض في وصف الرحلات والمخاطر التي واجهت الأدباء المهاجرين فالغربة لم تكن مكاناً بل كانت شعوراً بفقدان الأمان والاستقرار المنشود وقد برع ابن سارة الشنتريني في تصوير حياة الوراقه والكدح اليومي حيث كان يعيش من كد يده في نسخ الكتب ونشر العلم

(1) الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، تحقيق بايروت، دار النشر فرانز شتاينر، فيسبادن، 1981م، ج4، ص 35.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ت : احسان عباس، ج1- 63 .

وعبر في شعره عن ضيق الحال وصعوبة العيش في بلاد الغربه بأبيات تفيض بالواقعية والصدق الفني الذي يلامس شغاف القلوب والنفوس فالشاعر الشنتريني ظل مخلصاً لجذوره مهما نأت به الديار والمسافات البعيدة ، مستحضراً خيال شنترين ونهرها العظيم في كل بيت ينظمه في مهجره .

قال ابن صارة :

أما الوراقة فهي أيكه حرفة أوراقها وثمارها الحرمان

شَبَّهَتْ صاحبها بصاحب إبره تكسو الغرّة وجسمها عريان⁽¹⁾ .

في هاتين البيتين يبين بأن مهنة الوراقة فهي مهنة البؤساء والفقراء ومن يعمل بها نصيبه منها الحرمان ، فهي كما تعطي العلم لمن يطلبه ، إلا أنها كما حال إبره الخياط فهي تخط وتكسي إلا أنها عريانة وهو تشبيه جميل لطيف صاغه الشنتريني لإيصال ما يعانيه من ألم وحسرة على ما حلّ به .

وهذا الحنين هو الذي حفظ لنا تفاصيل دقيقة عن جغرافيا المدينة وخلد ذكرها في دواوين الأدب العربي كواحدة من أجمل ثغور الأندلس فالشعر هنا يقوم بوظيفة التوثيق الوجداني للمكان الذي ضاع في الزحام⁽²⁾.

منهج النقد الأدبي والتحليل الفني عند ابن بسام الشنتريني

يُعدُّ ابن بسام الشنتريني من أعظم نقاد الأندلس بفضل كتابه الذخيرة فقد ولد في شنترين في أسرة غنية وحيهة بعيد عام 460هـ — وقد دفعه إحساسه بسوء الأوضاع السياسية في عصر الطوائف للتأليف حيث انتقد انصراف الأندلسيين لآداب المشاركة وإهمالهم لنتاج أدباء إقليمهم العريق فأرخص للإنتاج الفكري الأندلسي مفاخر أهل المشرق بما كتبه في عصره وكان ابن

(1) وفيات الأعيان، ابن خلكان، ت: إحسان عباس، دار صار بيروت، ط1 - 1994، ج3 - 93.

(2) معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج15، ص258.

بسام ناقداً متمكناً لا يقبل التقليد الأعمى في الشعر وقد تجلّى ذلك في رده القاسي على شعراء المذهب الكلامي الفلسفي حيث عاب على أبي عامر ابن سوار تأثره بطريقة المعري الفلسفية ويرى ابن بسام أن الشعر يجب أن يحافظ على أصالته وبيانه وقد حفظ لنا في ذخيرة المحاسن نصوصاً عديدة توضح أوضاع الأندلس سواء كانت تلك النصوص منقولة أو شاهدها بنفسه خلال رحلاته العلمية وبذلك يعد كتابه مصدراً لا يستغني عنه مؤرخو الأدب والسياسة والاجتماع فقد استطاع أن يخلد ذكر شنترين التي كانت محل طعن وضرب وجعل منها مدينة ينبعث منها من ينظم القلائد في جيد الدهر هذا التوجه النقدي يعكس وعياً فكرياً متقدماً تجاوز حدود الزمان والمكان فالناقد الشنتريني كان يمتلك رؤية شمولية تربط بين الأدب والواقع السياسي مما جعل أحكامه النقدية تتسم بالموضوعية والجرأة في طرح القضايا الشائكة واستطاع أن يبرز الخصوصية الأندلسية في مواجهة الهيمنة الثقافية المشرقية الطاغية فكانت شنترين بفضلها حاضرة في وجدان كل باحث في تاريخ الأدب وهذا المنهج التحليلي هو ما ميزه عن أقرانه من مؤرخي العصر حيث لم يكتفِ بالجمع بل كان يفحص وينقد ويحلل الصور الشعرية وهو ما جعل كتابه "الذخيرة" ديواناً شاملاً لمحاسن أهل الجزيرة الأندلسية وظل أثره باقياً كمرجع أساسي لكل من أراد دراسة عصر الطوائف مؤكداً أن الإبداع لا يرتبط بالمركز بل قد ينبع من الأطراف القصية .

ومن خلال دراستنا لكتاب الذخيرة يمكننا تصنيف النقد عند ابن بسام على ثلاثة أصناف:

1- النقد الأدبي:

أ. موقفه من الأدب: يُعدُّ موقف ابن بسام من الأدب صدمة أو موقف مضطرب بسبب قوله ((وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم))⁽¹⁾، وبقوله هذا فضّل أهل العلم على أهل الأدب، وقد فضّل الكتاب على الشعراء وذلك بقوله ((وبدأت بذكر الكتاب إذ هم

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج 1 - 18 .

صدر في أهل الآداب⁽¹⁾، وبهذا خالف سيرة النقاد السابقين، لتقديمهم الشعراء على الكتاب.

ونجده في موقف آخر يقسو على الشعر ويمقته وذلك بقوله ((ومع أنَّ الشعر لم أرضه مركباً ، ولا اتخذته مكسباً، ولا ألفته مثوى ولا منقلباً ... وإنما أكثره خدعة محتال ، وخلعة مختال جدّه تمويه وتخييل، وهزله تدليه وتضليل))⁽²⁾، وهنا عرفنا سبب مقته وقسوته على الشعر لما فيه من كذب ونفاق وتملق ، وإنَّ أخلاقه لا تسمح له بمعاقرته.

وهذا يقيناً لا ينطبق على الشعر كله بل هناك أغراض ربما كانت هي سبب نفور ابن بسّام من الشعر، كالهجاء والغزل الماجن.

ب. الدعوة إلى التجديد، فابن بسّام كان من الذين ينبذون القديم ويدعون إلى التجديد، فالقديم أصبح مملاً، كما في قوله ((إذ كلّ مردد ثقيل، وكل متكرر مملول))⁽³⁾، وهذا الرأي يعدُّ سابقة خطيرة في النقد الأدبي، إذ لكل جديد جذورٌ قديمة يتغذى عليها ويستقي منها.

ثم يواصل قوله ((وقد مجّت الأسماع (يا دار مية بالعلياء فالسند)، وملت الطباع (لخولة أطلالٍ ببرقة ثهد)، ومحت (قفا نبك) في يد المتعلمين، ... فعلى آثار من ذهب العفا ، أما أن أن يصمّ صداها؟ ويسأم مداها؟))⁽⁴⁾، فهو بهذا القول يريد أن يطوي صفحة تاريخ العرب وسجل مآثرهم، الذي كتبوه بماء الذهب.

ويرى ابن بسّام أنَّ الإحسان والفضل غير محصورين على فترة محدّدة، وذلك بقوله ((وليس الفضل على زمن بمقصور، وعزي على الفضل أن ينكر، تقدم به الزمان أو تأخر))⁽⁵⁾، فهو بهذا وافق ابن قتيبة المتوفي 276 هـ في رأيه حيث قال ((ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين

(1) المصدر نفسه: ج 1 - 32.

(2) المصدر نفسه: ج 1 - 18.

(3) المصدر نفسه: ج 1 - 13 .

(4) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسّام، ج 1 - 13.

(5) المصدر نفسه: ج 1 - 13 - 14.

الجلالة لتقدمه، ولا إلى المتأخرين بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل بين الفريقين وأعطيت المجيد حقّه⁽¹⁾.

ج. موقفه من الموشحات : بحسب قول ابن بسّام الذي سنستعرضه أنّ الموشحات كانت موجودة ورائجة قبل عبادة بن ماء السماء ، الذي ترجم له ، بصفته أحد أعلامها ، وقد أطلق عليها اسم (صنعة التوشيح) وذلك بقوله ((وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووصفوا حقيقتها غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا منأذاها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنما لم تسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه ، واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته))⁽²⁾، فالموشحات كانت موجودة ومنتشرة إلا أنّ عبادة بن ماء السماء قومها ، وأصبحت ملاصقة لأسمه أينما ذكر.

ويستمر حديثه عن الموشحات بأنها ((أوزانٌ كثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب))⁽³⁾، وموقفه منها مضطرب بين القبول والرفض فتارة يستحسنها ويصفها بـ ((مصونات الجيوب بالقلوب))⁽⁴⁾، ولكنه يسقطها ويهمل ذكرها في كتابه الذخيرة، ويعلل سبب عدم ذكرها ((وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان إذ أكثرها على غير أعاريض العرب))⁽⁵⁾، والاضطراب الذي حصل هو المدح ومن ثم القدح وعدم ذكرها في كتابه الذخيرة، ويمكننا أن نستنتج أنّ عدم ذكرها في كتابه لسببين:

– أنّ الموشحات دخيلة على الأدب العربي عامة والأدب الأندلسي خاصة.

– اللغة العامية والأوزان التي خالفت نهج عامود الشعر.

(1) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ت : أحمد محمود شاكر، القاهرة، 1423، ط1، 2003، ص 64.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسّام، ج 1 - 452 .

(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسّام، ج 1 - 462 .

(4) المصدر نفسه: ج 1 - 462.

(5) المصدر نفسه.

د. تطرق ابن بسّام لقضية تاريخية تتعلق بشاعر الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله) حسان بن ثابت الأنصاري، وذلك حين تطرق لترجمة لحسان بن المصيصي^(*)، وقد ذكر بيتاً من قصيدة نسبت لحسان بن ثابت وينفيه عن حسان بن ثابت وينسبه إلى المصيصي والبيت هو: وما الحروب ومثلي أن يشاهدها وإنما أنا حسان وأنت على، وينفي صفة الجبن عن حسان بن ثابت ويقول هذا محض كذب وافتراء⁽¹⁾.

3- النقد الأخلاقي

انعكست ثقافة ابن بسّام الشنتريني على الذائقة النقدية، فهو عالمٌ فقيهٌ جعل الأخلاق السامية منهاجاً في حياته ووظيفها في كلِّ شيء حتى أنّه جعل منها معياراً نقدياً، وهذا ما نجده في :

أ. رأيه في ابن حيان المؤرخ الذي قسى عليه في الحكم، لأنه من وجهة نظر ابن بسّام خالف القواعد الأخلاقية وتعرض لأعراض الناس فقال فيه ((كان سهما لا ينمي رمية، وبحرا لا ينكش آذيه، ولو ثلب الماء ما نقع، أو تعرض لأبن ذكاء ما سطع، يتناول أعراض الأ حساب قد رسخت في التخوم، وأنافت على النجوم))⁽²⁾، على الرغم من أنّ ابن حيان مؤرخ مؤتمن على التأريخ ونقله بكل أمانة التي وجدها وليس له مهمة أخرى، مع ذلك نجده عارضه وقسى عليه.

ب. موقفه من الهجاء: سار ابن أبسام على نهج من سبقه في أن يكون الشعر حاملاً للفضيلة، بعيداً عن الفحشاء، مستهجناً شعر الهجاء، يذهب باتجاه الكمالات الأخلاقية فهذا الجاحظ الذي يركز أيما تركيز على سمو الشعر وابتعاده عن كل ما هو هابط لفظي أو معنوي، وذلك بقوله ((ثم اعلّموا أنّ المعنى الحقيق الفاسد، والنبي الساقط يعيش في القلب ثم يبيض ويفرخ، فإذا ضرب بجاته ومكّ لعروقه، استفحل وبزل، وتمكن الجهل وقرح فعند ذلك يقوى داؤه ويمتنع دواؤه، لأن اللفظ الهجين الرديء والمستكره الغبي أعلق باللسان ألف للسمع،

(*) الوزير الكاتب أبو الوليد حسن بن المصيصي شاعر الدولة العبادية في اشبيلية (414 - 484).

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسّام، ج 3 - 440.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسّام، ج 1 - 574.

وأشدَّ التحاماً بالقلب من اللفظ النبیه الشريف والمعنى الرفیع الکریم))⁽¹⁾، فالناقد نزه كتابه عن الهجاء ولم يجعل منه ميداناً للسفهاء، ولدى إحسان عباس مخرجٌ علمي مقنع يبرر لابن بسام هذا الأمر وذلك من خلال قوله ((وذلك حرص الناقد على الموضوعات والعلاقات الاجتماعية، وهو يؤرخ للأحياء من معاصريه))⁽²⁾، فكان الدافع ديني أخلاقي وهو أن لا يكون سبباً في فتنة تقع بين الشعراء والكتاب .

ج. موقفه من الغزل: كان موقفه واضح باتجاه الغزل الماجن، ورفض كل شعر فيه وضعة اجتماعية وأخلاقية سوى الشعر الذي وافق مذهبه واتجاهاته وهو الغزل العفيف .

ولكننا نجد على غير المتوقع منه أنه يتساهل مع الغزل بالغلمان وهو أشنع من الغزل الماجن، فكان الظن أن يبعد هذا الفن عن كتابه، لكونه ارتدى ثوب إصلاح أدبي، وناقد أخلاقي، وذكر أبيات ابي عامر يوسف بن كوثر الشنتريني عندما يتغزل بشاب ظريف⁽³⁾:

مررت به يوماً يغازل مثله	وهذا على ذا بالملاحة يمتن
فقلت اجمعا بالوصل رأيكما فما	لمثلكما كان التغزل والمجن
عسى الصب يقضي الله بينكما له	بخير فقالا لي انتهى العسل السمن
فجاءهما دب فأحرز ذا وذا	وما لأمرئ من ريب أيامه أمن

في القطعة الشعرية أعلاه مشهد لغزل الغلمان الذي شاع في بلاد الأندلس كما في هو في المشرق في زمن العباسيين، وهو نوعٌ من أنواع الأدب الدخيل على الأدب العربي في زمن معين نتيجة لظروف معينة، وهناك مقومات لهذا الفن الجديد، منها الرفاهية والتحرر من القيود الدينية والأخلاقية، وفي الأندلس سببٌ رئيسي مهم ساعد أيضاً المجتمع الأندلسي بالتغزل بالمذكر وهو ((أن الحياة الناعمة المترفة هيأت لهم سبل اللهو والمجون وحررتهم من كثير من

(1) البيان والتبيين، الجاحظ، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط7، 1998، ج1- ص86.

(2) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، 80.

(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 4 - 808.

الأغلال والتقاليد الموروثة، كما كان للأندلس حظٌ كبير من الجمال البشري كحظ طبيعتها من الجمال، مما جعل ألسنة الشعراء تنتال أحياناً عذبة في وصف هذا الجمال الفاتن الذي ملك قلوبهم ((⁽¹⁾)، فهذه المرتكزات الثلاثة التي نتج عنها الغزل بالذكر وهي :

– الحياة الناعمة.

– الرفاهية واللهو والمجون.

– الجمال البشري بسبب الطبيعة الجغرافية.

ويقيناً له بواعث ساعدت على إشاعته منها نفسية و فنية ومنهم من يصور الجمال وأينما وجد، ولكن شريطة أن ينتج الغزل بالذكر هو اجتماع المرتكزات الثلاثة في بيئة واحدة وفي زمان واحد حتى تكتمل مقومات هذا النوع من الأدب الشعري، ولتسليط الضوء على ما أجاد الشاعر أبو عمر يوسف الشنتريني في الأبيات السابقة، يصور الشاعر مشهداً حوارياً بين شابين جميلين يتحاوران و يتفاخر أحدهما على الآخر بجماله، ثم يأتي الشاعر ويدخل بينهما كمحاور ثالث ويقول لهم أن كلام الغزل ليس لمثلكم بل لغيركم، لأنكم محل الوصف و الغزل، ثم دعا الله أن يجمعهم على ما ييغون (عسى الصب يقضي الله بينكما له) فأجاباه (بخير فقالا لي اشتهى العسل السمن)، أي ان بعضنا يرغب ببعض كما هو معلوم ماهي علاقة السمن بالعسل.

وفي ختام القصيدة هناك إشارة خفية وهي أن الإنسان يجب أن يستثمر الفرصة ويحسن التعامل معها، لكونها لا تتكرر وان الإنسان على موعد مع الأقدار وربما لا تتيح البقاء لتعويض ما فاتهُ، فقد وصف الشاعر القدر بالدب الذي ابتلع الشابين الجميلين ولم يمنحهما حياة ليقيض ما كانا ييغيان له.

(1) الغزل بالذكر في الشعر الأندلسي ابن البني أنموذجاً، وفاء جمعة، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية - سلسلة الآداب والعلوم والإنسانية المجلد (40) العدد (5) 2018، 83.

ولعلَّ سبب ذكر ابن بسّام الغزل بالغلمان هو شياغ هذا الفن وأصبح مألوفاً في تلك البيئة، وإنَّ سبب إشكالنا عليه هو نبذه لبعض الفنون، ومنها الهجاء والغزل الماجن الذي رفضه ونبذه، دون رفضه ونبذه للغزل بالمذكر.

2- النقد الديني:

ومفهوم المصطلح هو أن لا يستعمل الشاعر ما هو مقدس ديني في الشعر، كما صنع قاستنكر على ابن دراج القسطلبي حينما مدح الوزير أبا عيسى سعيد بن القطاع قوله:

أفي مثلك تنبو أياديك عن مثلي وهذي الأمانى فيك جامعة الشمل
وقد أمن المقدار ما كنت أتقي أرخصت الأيام ما كنت أستعلي
وأني في أفياء ظلك أشتكى شيكة موسى إذا تولى إلى الظل

وهذا البيت من لفظ القرآن العزيز، وقد أقدمت على مثل هذا جماعة من الشعراء من محدثين وقدماء، فمن غالٍ متسور، ومن آلاخٍ معنذر⁽¹⁾.

فابن بسام الشنتريني وظف الأخلاق في كل شيء حتى في النقد بل جعلها معياراً في تقويم الشعر والحكم عليه، ورفض ما لم يوافق اتجاهاته.

النقد الفني: أعتنى ابن بسام بالبديع وأهتم به أيما اهتمام، بل كان مولعاً به وأفصح عن حبه وافتتانه به، بل جعله معياراً يقال ابن بسام ((والبديع ذي المحاسن الذي قيم الأشعار وقوامها، وبه يعرف تفاضلها وتباينها))⁽²⁾، فقد جعل البديع ميزاناً نقدياً، للمفاضلة بين الأشعار.

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج 1 - 77.

(2) المصدر نفسه: ج 1 - 16 - 17.

وقد ركز ابن بسام في دراسته لعلم البديع واللفظ والمعنى ففي البديع ركز على أنواع عدة شرحها وأعطى أمثلة عنها، منها التشبيه والاستعارة، والاستطراد والتقسيم والمماثلة. وأما ما يتعلق في اللفظ والمعنى ركز على الأخذ والسرقة، والبديهة والارتجال.

تجليات الحكمة والموعظة في شعر مسعود بن سليمان الشنتريني

يعتبر مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني من أعمدة الأدب والزهد وقد وصفه المؤرخون بالفقيه العالم الزاهد المتواضع كبير القدر في عصره كان ابن مفلت يميل إلى مذهب الظاهر ويرفض التقليد في أحكامه وهذا الاستقلال الفكري انعكس على شعره الذي جاء مشبعاً بالحكمة البالغة فهو شاعر ينتمي لبيئة علمائية دينية تحث على طلب المحاسن دائماً تتجلى في شعره الدعوة للكمالات الروحية والأخلاقية التي ترفع قدر الإنسان ومن أبياته التي تعكس منهجه في الحياة والتعامل مع الخلق قوله:

نافس المحسن في إحسانه فسيكفيك مسيئاً عمله⁽¹⁾

في هذه الدنيا الفانية يرى ابن مفلت أن الإحسان هو السبيل الوحيد للخلود بين الناس وقد ظل طالباً متعلماً متواضعاً حتى لقي ربه في ذي القعدة، هذا التوجه الوعظي يعكس دور الشاعر كمعلم وموجه لأبناء مجتمعه الأندلسي فالشعر عنده ليس ترفاً لفظياً بل رسالة أخلاقية تسمو بالروح البشرية وقد أثنى عليه كبار المؤرخين كالحميدي والذهبي وابن بشكوال في مصنفاتهم مؤكدين على فضله الوافر وصلاحه الظاهر وتأثيره العميق في أهل شنترين وهكذا نجد أن الحكمة الشنترينية كانت تركز على دعائم دينية صلبة استطاعت أن تحول القصيدة إلى منبر للوعظ والإرشاد وتركيز النفوس الطيبة فكان ابن مفلت نموذجاً للشاعر الفقيه الذي يجمع بين العلم والبيان مما جعل شعره محفوظاً في كتب الطبقات والتاريخ كشاهد على عصره فهو لم يكتفِ بنظم القوافي بل صاغ دستوراً أخلاقياً للأجيال القادمة مؤكداً أن التنافس الحقيقي يكون

(1) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ابن بشكوال، 583.

في فعل الخيرات وترك المنكرات والآثام وهذا ما بوأه مكانة رفيعة بين أدباء وعلماء الأندلس في الغرب⁽¹⁾.

المكانة العلمية والأدبية لمحمد بن عبد الملك بن السراج

يعد ابن السراج الشنتريني من كبار أئمة اللغة العربية في بلاد الأندلس وقد ولد في مدينة شنترين ونشأ بها قبل أن يطوف في البلاد سكن إشبيلية ثم رحل إلى المشرق فدخل مصر واليمن وجاور بمكة المكرمة وصفه الزركلي بأنه أحد أئمة العلماء بالعربية المبرزين في عصره بالأندلس له مؤلفات قيمة منها تلقيح الألباب على فضائل الإعراب والمعيان في العروض⁽²⁾ وقد تتلمذ على يديه جهابذة اللغة كابن بري المصري في جامع مصر كان ابن السراج مطلعاً على الأدب المشرقي اطلاعاً واسعاً أثر في علمه عرف بالصلاح الظاهر والفضل الوافر وكانت له حلقة علم بمصر دائماً برع في علم العروض وكان كتابه فيه من أجود ما صنف وقد توفي بمصر في شهر رمضان من عام تسعة وأربعين وخمسمائة ترك ابن السراج إرثاً علمياً كبيراً حفظ اسمه في دواوين الأدب العربي حيث لم يكن مجرد نحوي بل كان أديباً شاعراً متمكناً من أدواته استطاع أن ينقل ثقافة الأندلس إلى المشرق ويضع بصمته في قلب القاهرة فكان سفيراً لشنترين في رحلاته العلمية التي امتدت من الغرب للشرق وهو ما يؤكد حيوية الحركة العلمية التي كانت تشهدها مدينة شنترين آنذاك التي أنجبت علماء وشعراء نافسوا أهل المشرق في جودة نتاجهم العلمي والأدبي⁽³⁾ وظل كتاب "تنبيه الألباب" من أهم المراجع التي تدل على مكانته اللغوية فقد كان يجمع بين الدقة النحوية والذوق الأدبي الرفيع في مصنفاته الشعرية وهذا ما جعل أصحاب التراجم كالصفدي والسلفي والزركلي يشيدون بفضله وعلمه مؤكدين أنه من أئمة العربية الذين لا يقلون شأنًا عن سيبويه والفارسي فقد كان يحفظ كتاب سيبويه ويقرئه للناس في حلقات العلم العامة بمصر مما يبرز الدور الحضاري لأدباء شنترين في التواصل الثقافي بين

(1) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، ج 1، ص 418.

(2) الأعلام، خير الدين الزركلي، ط دار العلم للملايين، بيروت، 1980م، ج6، ص 249.

(3) نفح الطيب، المقري، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، ج2، ص 237.

أقاليم الإسلام فابن السراج لم ينس جذوره الأندلسية بل كان يفتخر بها في كل محفل وهذا الوفاء للمكان هو ما ميز الشخصية الشنترينية المبدعة والمحبة للعلم والوطن⁽¹⁾.

ومن شعره في الغزل والوجد⁽²⁾:

لي قمرٌ جدر لما استوى فزاده حسناً وزادت همومي
كأنما غنى لشمس الضحى فنقطته طرباً بالنجوم

يصف الشاعر في هذين البيتين جمال محبوبته التي يشبها بالقمر البدر، وكيف أن هذا الجمال الفائق يزيد من تعلقه وعذابه وفي البيت الثاني، يشبه وجهها الساطع بشمس الضحى التي تزينها الشامات المتناثرة كأنها نجوم نُثرت طرباً وابتهاجاً.

البلاغة الوصفية في تصوير الخيل عند شعراء شنترين وأثرها

تميز شعراء شنترين بقدرة فائقة على الوصف الدقيق وبخاصة وصف الخيل العربية وقد تجلّى ذلك في المسابقة التي عقدها المتوكل ابن الأفطس لوصف فرسه حيث تبارى الشعراء في إظهار جمال هذا الجواد الأدهم الأغر المحجل بدقة فصنع أبو الوليد النحلي أبياتاً تصف سرعته وجمال كفله المنقط بالثرى دوماً واصفاً إياه بالبحر الجواد السابح الذي تقف الريح إجلالاً لسرعته الفائقة جداً⁽³⁾ بينما دخل ابن اللبانة في تفاصيل خفية واصفاً الظلام بأنه أديم فرسه وهذا النوع من الوصف يتطلب معرفة عميقة بفنون البلاغة والصورة الشعرية المبتكرة فقد كان الشعراء يمزجون بين الطبيعة الصامتة والحركة الحية في وصفهم للخيل وهو ما يعكس مكنة الرمادي الكندي وبراعته في صناعة الصورة الشعرية البليغة فقد قيل عن الرمادي إنه فتح الشعر بكندة وختم بكندة في الأندلس⁽⁴⁾ وهذا الثناء يدل على علو طبقة الشعرية وقدرته على الارتجال والوصف الدقيق فالوصف عند الشنترينيين لم يكن مجرد رصد للحواس بل كان رؤية فنية

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، تحقيق إحسان عباس، ج3، ص 479.

(2) الذخيرة : ج2 ص 793.

(3) الوافي بالوفيات، الصفدي، تحقيق بايروت، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1981م، ج4، ص 35.

(4) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، دار المعارف، القاهرة، ج1، ص 418.

استطاعوا من خلالها تحويل صفات الخيل إلى لوحات أدبية تفيض بالجمال والحيوية مما جعلهم في مقدمة شعراء عصرهم الذين برعوا في هذا الغرض الشعري فقد كان الجواد العربي رمزاً للكرامة والعزة والشجاعة في البيئة الأندلسية العريقة وقد حافظ شعراء شنترين على هذا الرمز ووظفوه في مدائحهم ومساجلاتهم الشعرية مؤكدين على الترابط القوي بين الفروسية والأدب في حياة المجتمع الشنتريني القديم شعر⁽¹⁾.

ويذكر ابن بسام: كان للمتوكل ابن الأفطس فرس أدهم أغر محجل على كفله ست نقط بيض، فندب المتوكل الشعراء لصفته، فصنع النحلي أبو الوليد فيه بديهاً:

ركب البدر جواداً سابحاً تقف الريح لأدنى مهله

لبس الليل قميصاً سابغاً والثريا نقط في كفله

وغدير الصبح قد خيض به فبدا تحجيله من بلله

كلّ مطلوبٍ وإن طالَتْ به رجله من أجله في أجله

ثم انتدب الشعراء بعد ذلك للعمل فيه، فصنع ابن اللبّانة:

لله طرفٌ جالٍ يا ابن محمّدٍ فحبت به حوباؤه التأميلا

لما رأى أنّ الظلام أديمه أهدى لأربعه الهدى تحجيلا

وكأنما في الردف منه مباسمٌ تبغي هناك لرجله تقبيلًا

(1) جذوة المقتبس، الحميدي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ص 370.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 3 - 466.

وقال فيه أبو عبد الله ابن عبد البر الشنتريني من قطعة:

فعلى المحيا كوكب متألئ وعلى القطاة بنات نعش تسطع

وكأنما عمر على صهواته قمرٌ تسير به الرياح الأربع

ويعني بعمر المتوكل المذكور لأن اسمه عمر⁽¹⁾.

في هذين البيتين التي ذكرهما ابن عبد البر والذي يصف فيها أحد ملوك بني الأفطس والذي اسمه عمر بأن الفرس تحمل بدرًا منيرًا ووجهه مسروراً والقطاة ((واحدة القطا وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء ويتخذ أفحوصة في الأرض ويطير جماعات ويقطع مسافات شاسعة وبيضه مرقط (ج) قطا وقطوات وقطيات ومقعد الرديف من الفرس))⁽²⁾، والشاعر هنا لم يرد ذكر القطاة بل أراد ذكر القطا وربما جاءت التاء سهواً وبدلالة ما ورد بعدها (بنات نعش تسطع) شبه النقاط على الفرس الأدهم ببنات نعش . وبنات نعش ((بنات نعش الكبرى: سبعة كواكب تشاهدها جهة القطب الشمالي، وبقرها سبعة أخرى تسمى بنات نعش الصغرى، والنجمة التي رسمت كبيرة هي النجمة القطبية التي يستدل بها على نقطة القطب الشمالي))⁽³⁾.

ومن ثم وصف المتوكل وهو راكب على فرسه كأنه قمرٌ تحمله الرياح لسرعة جواده.

أثر البيئة الجغرافية لشنترين في تشكيل الخيال الشعري

لم تكن مدينة شنترين مجرد حصن عسكري بل كانت جنة أندلسية فقد وقعت على نهر تاجة العظيم الذي وهبها جمالاً طبيعياً خلابةً وهذا الجمال انعكس بوضوح في صور الشعراء وتشبيهاتهم البيئية الرقيقة جداً فالنهر والبساتين والشجر كانت عناصر حاضرة في قصائد ابن سارة البكري حيث استلهم من خريف المياه وزقزقة العصافير أوزاناً شعرية تفيض عذوبة وكان

(1) مصدر سابق، 466.

(2) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط4 - 2004، 778.

(3) كتاب الفكر، المفضل بن عمر الجعفي، ت: قيس العطار، ط1 - 1385 هجري، 166.

الشعراء يصفون المدينة بأنها عروس الغرب الأندلسي في ذلك الزمان⁽¹⁾ مما جعل إنتاجهم الأدبي يتسم بالرقّة والبعد عن الجفاف اللفظي المقيت فالارتباط بالأرض كان يمنح الشاعر الشنتريني هوية بصرية فريدة في شعره استطاع من خلالها أن ينقل للمتلقي تفاصيل الحياة اليومية في الأندلس وهذا ما نلاحظه في وصف المتنزهات والرياض التي كانت تجمع الأدباء فقد كانت المجالس الأدبية تعقد على ضفاف الأنهار وفي ظلال الأشجار مما ساعد على ظهور شعر الطبيعة الذي برع فيه أهل الأندلس وقد تميز شعراء شنترين بقدرتهم على تشخيص الطبيعة وجعلها كائناً حياً يتفاعل مع آلامهم وأفراحهم ومواقفهم الإنسانية المختلفة في تلك الحقبة التاريخية ، كما قال ابنُ صارة الشنتريني⁽²⁾:

وبستان وردٍ في مطارف سندسٍ يرفُّ على غيدِ السوائف مُيد

نظرتُ إليه في الكمام فخلتهُ ذوائب تبرٍ عمت بزبرجدٍ

يشير ابن صارة إلى ندرة البستان الذي صورهُ بصورة نادرة، حيث شبّه البستان بألوان الحرير، نسبة إلى نساعة ألوان وروده من جهة، ونعومتها من جهة أخرى، ثم يغرق في الوصف ويكون المشبه به مستغرقاً مساحةً فكرية وخلق مشهد تصويري نادر.

فالتبيعة لم تكن مجرد خلفية بل كانت بطلّة في قصائد ابن بسام الذي تغنى بجمال وطنه المفقود وتحسر على ضياع تلك الديار العامرة وهذا المزج بين المكان والعاطفة هو سر بقاء الشعر الشنتريني حياً كما في قوله⁽³⁾ :

ألا بادر فلا ثانٍ سوى ما عهدت الكأس والبدر التمام

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 3، ص 481.

(2) شعر ابن صارة الشنتريني الأندلسي، ت محمد عويد السائير، د.محمود شاكر ساجت، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ص 108.

(3) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، ج1، ص 420.

ولا تكسل برؤيته ضباباً تغصّ به الحديقة والدمام
فإن الروض ملثمٌ إلى أن توافيه فينحطّ اللثام⁽¹⁾

ومعنى البيتين يقول منادماً لنديمه وقد باكر روضاً بمحبوب وكأس، فألفاه قد غطى محاسنه ضباب، فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك.

حيث استطاع الشعراء تخليد جغرافيا المدن عبر أبيات من النور والجمال مما جعل الدارسين المحدثين يعتمدون على شعرهم في استرداد صورة المدينة التي اندثرت معالمها بفعل الحروب وصروف الزمان وتقلبات الدول والأيام المداولة فالشعر هنا هو الحافظ الأمين لذاكرة المكان وتفاصيل الوجود الإنساني فيه⁽²⁾.

الاتجاه الإنساني والاجتماعي في نتاج أدباء الغرب الأندلسي

لم ينغزل شعراء شنترين عن قضايا مجتمعهم بل كانوا صدى لآماله فقد تناولوا في قصائدهم مشكلات الناس ومعاناتهم مع الفقر والظلم الاجتماعي ونجد عند ابن سارة الشنتريني تصويراً واقعياً لحياة الوراقين ومعاناتهم الشديدة حيث كان يصف حاله مع الكتب والنسخ بمرارة تفيض بالصدق الفني معتبراً أن حرفة الأدب في عصره كانت سبباً في ضيق العيش⁽³⁾

قال ابن سارة :

أما الوراقة فهي أيكهُ حرفةٍ أوراقها وثمارها الحرمانُ

شَبَّهْتُ صاحبها بصاحب إبرِ تكسو الغُرةَ وجسمها عريانُ⁽⁴⁾

وهذا التوجه نحو الواقعية الاجتماعية يمثل تطوراً مهماً في مسيرة الشعر فلم يعد الشعر حكراً على مدح الملوك وطلب العطايا والهبات المالية بل صار وسيلة للتعبير عن الذات الإنسانية

(1) مصدر سابق، ص 203.

(2) الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ج 4، ص 267.

(3) ابن سارة الشنتريني: حياته وشعره، دراسة تحليلية، منشورات الجامعة الأندلسية، ص 45.

(4) وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج 3 - 93 .

في صراعها مع الحياة وتجلى هذا في قصائد الاعتذار والمراسلات التي كانت تنقل هموم الناس فقد كان الشاعر يقوم بدور الوسيط بين الرعية والحكام في الأندلس مستخدماً بلاغته في تخفيف المعاناة وطلب العفو لمن وقع عليه الظلم وهذا الدور الاجتماعي منح الشاعر الشنتريني مكانة مرموقة في نفوس العامة وجعل من شعره مادة دسمة للمؤرخين الذين يدرسون أحوال المجتمع الأندلسي⁽¹⁾ فالأدب الحقيقي هو الذي ينبع من قلب المعاناة ويحاكي تطلعات البشر وهو ما نجح فيه شعراء شنترين بامتياز بفضل وعيهم بقضايا عصرهم فقد استطاعوا صياغة نصوص أدبية تجمع بين الجودة الفنية والرسالة الإنسانية مؤكدين أن الأديب هو لسان حال أمته والمعبر عن وجدانها العميق جداً في كل زمان ومكان مهما تغيرت الظروف أو تباعدت المسافات المكانية وهذا ما جعل تراثهم الشعري يتجاوز حدود شنترين ليصل لآفاق عالمية حيث تمت ترجمة بعض نصوصهم ودراستها في كبرى الجامعات العالمية اليوم اعترافاً بقيمتها الفنية ودورها في إثراء الحضارة الإنسانية بفيض من الجمال⁽²⁾، وهذا ما نجده في شعر ابن خفاجة⁽³⁾:

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم فيها صدورُ مراتبٍ مجالسِ

وتزهّدوا حتى أصابوا فرصة في آخذ مال مساجدٍ وكنائسِ

يذم الشاعر في هذين البيتين بعض المتفكّهة أو مدّعي العلم الذين يتعلمون العلوم الدينية أو الدنيوية لا ابتغاء وجه الله أو نشر المعرفة، بل طمعاً في الجاه والمناصب وتصدر المجالس، بل ويصل بهم الأمر إلى التزهّد الكاذب استغلالاً للناس لأجل تحقيق مكاسب مادية وأخذ أموال الأوقاف والمساجد أو الكنائس، وهذا هو التناقض بين الظاهر والباطن، وبين السلوك المعلن والمقصد الخفي .

(1) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، بيروت، ص 112.

(2) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج 3، ص 460.

(3) المصدر نفسه، ص 461.

ملامح التجديد في الصورة الشعرية عند الرمادي الكندي

يعتبر يوسف بن هارون الرمادي الكندي من أفحل شعراء الأندلس طراً فقد جمع بين مكنة القدماء وتجديد المحدثين في صياغة الصورة الشعرية وصفه الزركلي بأنه (شاعر أندلسي عالي الطبقة من مداح المنصور مولده ووفاته بقرطبة)⁽¹⁾ ويذكر الثعالبي أنّ ولادته في بطليوس⁽²⁾ دائماً وقد اشتهر بلقب منتبي الغرب نظراً لجزالة لفظه وقوة معانيه البليغة⁽³⁾، وبرع الرمادي في فن الارتجال فكان ينظم القصائد الطوال في مجلسه وتجلّى ذكاؤه في المراسلات التي دارت بينه وبين والي مدينة شنترين حيث استطاع توظيف اللغة في نقد الواقع الاجتماعي بأسلوب أدبي رفيع⁽⁴⁾، وقد عرف بشغفه الكبير بطلب العلم وتنقله المستمر بين حواضر الأندلس هذا التنقل أكسبه خبرة واسعة في طبائع الناس وأحوال المدن المختلفة فجاء شعره مرآة عاكسة للحياة السياسية والاجتماعية في عصر الناصر بقرطبة⁽⁵⁾، وكان يرى أن الشعر صناعة تتطلب مهارة في سبك الألفاظ والمعاني لذا نجد في قصائده تلاهماً قوياً بين اللفظ ومعناه الدقيق والعميق مما جعل النقاد يضعونه في مصاف الكبار كأبي تمام والبحري تماماً فقد فتح الشعر في قبيلة كندة بالأندلس كما فتحه امرؤ القيس قديماً وهذا التشبيه يدل على علو كعبه ومنزلته الرفيعة في الأدب العربي⁽⁶⁾، واستطاع الرمادي أن يطور غرض الوصف ليصبح فناً قائماً بذاته ومستقلاً حيث وصف الطير والوحش والخيال بأسلوب لم يسبقه إليه أحد قط مما جعل كتابه الطير⁽⁷⁾

(1) الاعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، 1998م، ج8، ص255.

(2) يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر، الثعالبي، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط2، ج1، 1956، ص364.

(3) ينظر: جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، ابن أبي نصر الحميري، ص370.

(4) ينظر: تاريخ الادب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، احسان عباس، ص158.

(5) ينظر: شعر الرمادي يوسف بن هارون (قدم له)، ماه ر زهير جرّار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1980، ص24.

(6) ينظر: جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، المصدر السابق، ص460.

(7) ينظر: المصدر نفسه، ص370.

مرجعاً هاماً لمن جاء بعده من الشعراء فظل أثره باقياً في الوجدان الأدبي الأندلسي كواحد من أعظم المبدعين الذين رفعوا لواء الشعر العربي في بلاد الغرب البعيدة عن المشرق.

نموذج من شعر الرمادي⁽¹⁾:

وليلة راقبت فيها الهوى	على رقيبٍ غير وسانٍ
والراح لا تنزل عن راحتي	وقتا، و عن راحة ندماني
وربّ يوم قيظه منضج	كأنّه أحشاء ظمآن
أبرز، في خديّه، لي رشحه	طلاً على وردٍ وسوسان
فتّحت الجنّة من جيبه	فبتّ في دعوة رضوان
مروءة في الحبّ تنهى بأن	نجاهر الله بعصيان

يبدأ الشاعر بوصف ليلة قضاها في ترقب الحبيب بحذر تحت رقابة حارس يقظ، تليها أجواء مجلس يدور فيه الشراب بلا انقطاع، ثم ينتقل لوصف يوم شديد الحرارة، يتصبب فيه العرق على وجه المحبوب كقطرات الندى على الزهور، مصوراً قمة السعادة والنعيم وكأنه في ضيافة خازن الجنة رضوان من روعة جماله، ورغم هذه الأجواء، يختم الشاعر أبياته بتأكيد أن المروءة في الحب تنهى عن مجاهرة الله بالعصيان والوقوع في المحذور.

دور المرأة والمجتمع في شعر أدباء مدينة شنترين

لم يغفل شعراء شنترين عن دور المرأة في تشكيل الوجدان الإنساني فقد كانت المرأة حاضرة في غزلياتهم كرمز للجمال والكمال الأخلاقي السامي وصوروا من خلالها قيم العفة والوفاء التي

(1) المطرب من أشعار أهل المغرب، عمر بن حسن بن دحية، ت: الاستاذ ابراهيم الأيباري والدكتور حامد عبد المجيد، دار العلم للجميع، بيروت، 3- 4.

ميزت المجتمع الأندلسي العريق ونجد ذلك في وصف محمد بن عبد البر الشنتريني للمحبة البعيدة حيث يخلع عليها صفات بدنية ومعنوية تجعلها فريدة في عصرها كما في قوله: (1)

أحب الذي يهوى عذابي دائماً وما لي فيه ما حييت نصيب

هلال على غصن يميل على نقاً وكل معاني حسنه فغريب

والشاعر في هذين البيتين يعبر فيهما عن عذابه في الحب، وتعلقه بمن لا يرجو منه نصيباً، ويصف الشاعر محبوبه بتشبيهات بليغة تشبه وجهه بالهلال وقوامه بالغصن المايس فوق كثيب رمل، مؤكداً أن كل معاني حسنه فريدة وغريبة.

كما تناول الشعراء قضايا الأسرة والتربية في قصائدهم الوعظية والتربوية الهامة فالشاعر كان يرى نفسه مربياً وموجهاً لأفراد مجتمعه نحو الخير دائماً وهذا يعكس الترابط الوثيق بين الأدب والقيم الاجتماعية السائدة آنذاك ، حيث لم يكن الشعر مجرد لهو بل كان وسيلة لبناء الإنسان واستطاع أدباء شنترين تصوير المناسبات الاجتماعية من أفراح وأتراح بصدق فني مما يمنحنا صورة دقيقة عن العادات والتقاليد التي كانت متبعة حينها ، فالأدب الشنتريني هو سجل حافل بكل تفاصيل الحياة اليومية الأندلسية البسيطة التي كانت تجمع بين البساطة في العيش والعمق في التفكير والأدب ، يقول ابن صارة الشنتريني (2):

ألا يا موت، كُنت بنا رؤوفاً فجَدَدَتِ السُّرورَ لنا بزوره

حَمَدنا سعيك المشكور لَمَّا كَفَيْتَ مَوْنَةً وَسَتَرْتَ عوره

فَأَنكحنا الضَّرِيحَ بلا صداقٍ وَجَهَّزنا العروسَ بغير شوره

تتنمي هذه الأبيات القاسية إلى غرض الهجاء الصادم أو ما يُعرف في التراث العربي بمواقف الجفاء تجاه البنات، حيث يخاطب الشاعر الموت مادحاً إياه على سبيل التهكم لاحتضانه ابنته

(1) المغرب في حلى المغرب، أبو الحسن علي بن سعيد المغربي الأندلسي، ت: شوقي ضيف، دار المعارف،

ط4، ص 417-418. 2.

(2) الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، 335.

وكفايته إياها بلا مهر أو تجهيز، بسبب حياة الضنك والعوز والفقر والتعاسة التي يعاني منها الشاعر هو وإثرته، ويُصور دفن الفتاة وكأنه زواج مجاني يريح الأسرة من مؤنتها .

وهذا ما منح المدينة هويتها الثقافية المتميزة في الغرب وجعل من شعرائها سفراء للقيم الإنسانية النبيلة في كل مكان وزمان، مؤكدين أن الفن هو لغة الشعوب التي لا تموت أبداً مهما تقادم بل تظل حية في القلوب تنشر الجمال والحب والوئام بين البشر وهكذا ساهم شعراء شنترين في إرساء دعائم حضارة أدبية راقية جدا ظلت تشع بنورها على مر العصور والأزمان المتعاقبة في بلادنا العربية⁽¹⁾

أساليب المدح والثناء السياسي عند شعراء مدينة شنترين

1- المدح

يعد المدح من الأغراض الشعرية التي احتلت مكانة بارزة في الشعر الأندلسي وقد ارتبط هذا الغرض بطبيعة الحياة السياسية القائمة على رعاية الشعراء إذ وجد الشعراء في مدح الحكام وسيلة لتحقيق المكانة وكسب العطاء ولم يكن شعراء شنترين بمنأى عن هذا الاتجاه بل أسهموا فيه بوضوح فعمدوا إلى تصوير ممدوحهم بأبهى الصفات وأسمى القيم الإنسانية مبرزين الشجاعة والكرم والحكمة بوصفها ركائز للقيادة المثالية وغالباً ما يبدأ الشاعر مدحه بمقدمة تمهيدية ذات طابع وجداني ينتقل بعدها إلى تعداد مناقب الممدوح بأسلوب بلاغي متين مؤثر، وقد تتداخل في المدح عناصر وصفية تعكس البيئة المحيطة بالممدوح فتغدو القصيدة لوحة تجمع بين الشخصية والطبيعة في آن واحد ومن الشواهد الدالة على هذا الاتجاه قول أحد شعرائهم⁽²⁾:

أنت السحاب إذا ما الناس قد قحطوا وأنت بحر الندى إن ضاق مرتادُ

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج1، ص 312.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ص 134، ولم يقف صاحب الذخيرة على اسمه.

حيث يوظف الشاعر صورتين متقابلتين للدلالة على فيض العطاء مما يعكس نزعة المبالغة التي تعد سمة فنية بارزة في المدح غير أن هذا المدح لا يخلو من بعد سياسي يعكس واقع المرحلة إذ يسعى الشاعر من خلاله إلى تثبيت شرعية الممدوح وتعزيز مكانته كما يكشف عن طبيعة العلاقة القائمة بين السلطة والأدب آنذاك ومن هنا يغدو المدح وثيقة ثقافية تسهم في فهم بنية المجتمع وتكشف عن القيم التي كان يسعى الشعراء إلى ترسيخها فنياً كما يعبر عن وعي الشاعر بدوره في التأثير في الرأي العام مما يمنح هذا الغرض بعداً يتجاوز الإطار الفردي إلى الجماعي وبذلك يتضح أن المدح في شعر شنترين لم يكن مجرد تكسب بل كان تعبيراً عن منظومة قيمية وثقافية متكاملة الأبعاد⁽¹⁾.

لم يكن المدح عند شعراء شنترين مجرد وسيلة للتكسب المادي فقط بل كان أداة لترسيخ قيم الفروسية والقيادة في المجتمع الأندلسي فقد مدح الرمادي الكندي المنصور بن أبي عامر وفرحون بن عبد الله، بقصائد عالية الطبقة مستخدماً لغة جزلة تعكس مكنته في صناعة الصورة وبلاغته في الوصف وكان يرى في الممدوح رمزاً للأمة وحامياً لثغورها من كيد الأعداء وهذا النوع من الشعر يتطلب ثقافة واسعة وإدراكاً لواقع الحال السياسي⁽²⁾.

نموذج من شعر الرمادي يمدح فيها والي شنترين فرحون بن عبد الله⁽³⁾.

أيها العارض والمهدي لمستسقيه وبلا حين لا يهدى إذا ما أستسقي العارض طلا
قائداً أفنت مغازيه العدا سبياً وقتلا إن ضيفاً قاصدا قلت له أهلاً وسهلاً
قد توسعت له فيما يسر الضيف نزلاً ما له فرش على الأرض سوى وجه مصلى
فأنا لولا اصطبار رد منه الوعر سهلاً لم تجد عيني لنوم بمبيت السوء كحلاً

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، 3/ 267.

(2) نفح الطيب، المقري، دار صادر، بيروت ج3، ص 364-365.

(3) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة،

1955م، ج1، ص 419.

وقد برز شعراء آخرون في شنترين نظموا في مدح بني الأفطس مؤكدين على الروابط الوثيقة بين الأدب والسلطة في ذلك العصر الزاهر فالمدح كان يمزج بين الدعاء والتمجيد ورصد المنجزات العمرانية والحربية الهامة مما جعل القصيدة المدحية وثيقة تاريخية تسجل أحداث عصر الطوائف بدقة واستطاع الشاعر الشنتريني أن يبتعد عن الإسفاف والتملق الممجوج في مدحه من خلال التركيز على الصفات الإنسانية النبيلة كالكرم والشجاعة والعدل والمساواة وهذا ما جعل مدائحهم باقية في ذاكرة الأدب كنموذج للراقي الفني فالكلمة كانت تبنى على أساس من الصدق العاطفي والتمكن اللغوي الباهر مما جعل النقاد يشيدون بهذا النتاج الذي يجمع بين الفن والسياسة فظلت شنترين حاضرة في دواوين الملوك بفضل بلاغة أبنائها من الشعراء الذين رفعوا شأن مدينتهم وجعلوها في مصاف الحواضر الأندلسية الكبرى دائماً وهكذا ساهم المدح في تنشيط الحركة الأدبية وتنافس الشعراء في الجودة مما أدى لظهور قصائد تعد من عيون الشعر العربي في بلاد الغرب حيث تبارى الجميع في إظهار محاسن قادتهم بأسلوب بديع لا يضاهى قط⁽¹⁾، نموذج من شعر مدح بني الأفطس⁽²⁾:

فعلى المحيا كوكب متألئ وعلى القطة بنات نعش تسطع
وكانما عمرٌ على صهواته قمرٌ تسير به الرياح الأربع

في هذين البيتين التي ذكرهما ابن عبد البر والذي يصف فيها أحد ملوك بني الأفطس والذي اسمه عمر بأن الفرس تحمل بدرًا منيرًا ووجهه مسروراً⁽³⁾.

وكذلك قول ابن صارة:

اليوم أخدمت الضلالة نارها واسترجعت دار الهدى عمارها

(1) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، بيروت، ص 210.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسّام الشنتريني، ج 3 - 466.

(3) قلائد العقيان، ابن خاقان، ج 1 - 263.

واستقبلت حلق الوري غرناطة وهي الحديقة فوق أزهارها

فكان تشرينا بها نيسانه يكسو رباها وردها وبهارها

وفي هذه الأبيات يمدح بها الأمير أبا بكر بن إبراهيم وقد قدم حضرة غرناطة والياً أمرها فدخل في جملة من الشعراء إليه، وأنشدها بين يديه.

الخصائص الفنية والموسيقية في القصيدة الشنترينية وتطورها عبر الزمن

اتسمت القصيدة عند شعراء شنترين بجزالة الألفاظ ومتانة التركيب اللغوي المتين وقد حافظوا على عمود الشعر العربي مع التجديد في الصور البيانية وظهر ذلك في استخدام البحور الشعرية الطويلة التي تناسب الأغراض الجادة مثل بحر الطويل والبسيط والكامل التي تمنح الشاعر مساحة للتعبير الواسع كما برعوا في توظيف الموسيقى الداخلية عبر المحسنات البديعية غير المتكلفة فالجناس والطباق كانا يأتیان في سياق يخدم المعنى ولا يثقله أبداً وهذا يعكس الذوق الأدبي الرفيع الذي تمتع به شعراء هذه الحاضرة فالشنتريني كان يولي أهمية كبيرة لمطلع القصيدة وحسن التخلص والختام البليغ مما يمنح النص وحدة موضوعية وعضوية تجذب المتلقي وتؤثر في وجدانه كما نجد تأثيراً واضحاً بمدرسة المحافظين في المشرق مع لمسة أندلسية تتمثل في رقة الوصف واستعارة الألفاظ المستمدة من البيئة الخضراء المحيطة فالموسيقى الشعرية عندهم كانت تحاكي خريز المياه في نهر تاجة العظيم مما أضفى على قصائدهم طابعاً غنائياً يفيض بالعذوبة والجمال الفني الأسر وهذا التميز الموسيقي هو ما جعل شعرهم سهل الحفظ والانتشار والتداول بين طلبة العلم والأدباء في مشارق الأرض ومغاربها على حد سواء فالشاعر كان يدرك أن جرس الكلمة لا يقل أهمية عن معناها العميق لذا اعتنى بالقافية واختارها بعناية لتكون رنيناً باقياً في أذن السامع مما بوأ القصيدة الشنترينية مكانة مرموقة في تاريخ الأدب العربي الأصيل وجعلها مادة دسمة للدراسات العروضية والبلاغية الحديثة في كبرى الجامعات العالمية⁽¹⁾.

(1) شعراء صقلية، أ.د. رعد ناصر مايود، سلسلة دراسات أندلسية، مطبعة العراق، بغداد، 2026.

تجليات البعد الفلسفي في الفكر الشعري الأندلسي المعاصر

ارتبط الشعر في مدينة شنترين بحركة فكرية وفلسفية واسعة النطاق جدا فنلمس عند أبي عامر ابن سوار تأثراً واضحاً بمدرسة المعري الفلسفية حيث كانت الأبيات تعكس قلقاً وجودياً وتساؤلاً عميقاً حول جوهر الحياة والفلسفة عنده لم تكن مجرد تنظير بل محاولة لفهم غوامض الوجود فقد حاول ابن سوار الكشف عن ماهية الحقيقة والمعرفة عبر الشعر ناظراً في العلاقات القائمة بين الإنسان والطبيعة وبين الفرد والمجتمع المحيط وهذا التوجه الفلسفي كان قد انتشر في المشرق إبان العصر العباسي خاصة عند المتنبّي والمعري اللذين طغى على شعرهما الطابع الكلامي الجدلي وقد عاب ابن بسام الشنتريني هذا المنحى الفلسفي في قول الشعر معتبراً أن الشعر يجب أن يبتعد عن التعقيد المنطقي والجدل الكلامي لكن شعراء شنترين أثبتوا قدرة اللغة على استيعاب أعماق الأفكار المجردة وتحويلها إلى صور فنية تلامس الوجدان وتخطب العقل في آن واحد فالشاعر الفيلسوف يمتلك رؤية شمولية تتجاوز الظواهر إلى البواطن والخفايا تماماً مما جعل إنتاجهم الأدبي مادة خصبة للدراسات الفلسفية والأدبية المقارنة اليوم فقد استطاعوا تطويع القصيدة العربية لخدمة أغراض فكرية معقدة ببراعة فائقة مؤكدين على حيوية العقل الأندلسي وقدرته على الإبداع في كل المجالات فظلت شنترين منارة للعلم والأدب تشع بنورها على بلاد الأندلس قاطبة وهذا التميز الفكري هو ما جعل ابن بسام يخصص لهم مكاناً في كتابه الشهير الذخيرة اعترافاً بفضلهم وعلو كعبهم في الأدب العربي⁽¹⁾.

نموذج من شعر عامر بن سواره⁽²⁾:

ليت شعري إذ رأوني ميتاً وبكوني أي جزأي بكوا
أنعوا جسمي فقد صار إلى مركز التعفين أم نفسي نعوا

(1) تاريخ الأدب العربي، عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، ص 142.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 3 - 479.

أثر الحركة العلمية في شنترين على جودة النتاج الشعري

لم تكن شنترين مدينة عابرة بل كانت محضناً للعلماء والفقهاء والأدباء وقد انعكس هذا الجو العلمي بوضوح على رصانة الأسلوب الشعري المتبع فنلاحظ جزالة اللفظ ودقة التعبير واستخدام المصطلحات العلمية في ثنايا القصيد ، فالشاعر الشنتريني كان غالباً ما يجمع بين الأدب وعلوم الدين واللغة وهذا الجمع منح شعره قوة ومنعة وجعله بعيداً عن السطحية اللفظية، كما ساهمت الرحلات العلمية بين شنترين وقرطبة في تبادل الخبرات الفنية فقد كان الشعراء ينتقلون لطلب العلم مما صقل مواهبهم وأغنى خيالهم واستطاعوا من خلال ذلك استيعاب التيارات الأدبية المختلفة ودمجها في نتاجهم فنجد في شعرهم مزيجاً من الأصالة المشرقية والتجديد الأندلسي المبتكر جداً وهذا ما جعل النقاد يصفون شعراء شنترين بأنهم أصحاب مدرسة متميزة تعتمد على الوضوح في المعنى والمتانة في المبنى والسمو في الغرض وقد لعبت المساجد والكتاتيب دوراً كبيراً في تخريج هذه النخب الأدبية التي حملت لواء اللغة العربية وحافظت عليها في تلك الثغور النائية فالعلم كان هو الوقود الذي يغذي قرائح الشعراء ويدفعهم نحو الإبداع مما جعل قصائدهم تتسم بالدقة الموضوعية والجمال الفني في آن واحد فظلت أسماؤهم محفورة في ذاكرة التاريخ كعلماء قبل أن يكونوا شعراء وهذا الارتباط الوثيق بين (العلم والفن) هو سر تفرد التجربة الشنترينية التي استطاعت أن توجد توازناً دقيقاً بين العقل والعاطفة في الشعر مؤكدة أن الأدب الحقيقي هو الذي يستند إلى قاعدة معرفية صلبة⁽¹⁾.

تجليات أدب المراسلات والعتاب بين أدباء شنترين وولاتهم

عكست المراسلات الشعرية في شنترين رقي التواصل بين السلطة والأدب فلم يكن الحاكم مجرد سلطة تنفيذية بل كان متذوقاً للأدب الرفيع ونجد ذلك في مكاتبة (الرمادي الكندي لوالي شنترين فرحون بن عبد الله)⁽²⁾ حيث عاتبه الرمادي على تقصير في الضيافة بأسلوب شعري بليغ جداً

(1) شعر الحكمة بين الرؤية الفلسفية والملفوظ النفسي سامية مدوري، ص2.

(2) الحلة السيرة، ابن الأثير، ت : حسين مؤنس، 280.

وصف فيه حال الضيف الذي لم يجد فراشاً سوى وجه المصلى فرد عليه الوالي فرحون معتذراً ومادحاً لنبوغه في الشعر والنثر ببراعة قائلاً (2):

شاعراً ندباً نبيلاً محسناً جداً وهزلاً

ما تولى الشعر إلا رد منه الوعر سهلاً

شعره سح ووبل إذ يكون الشعر طلا

هذا النوع من المراسلات يبرز تمكن الشاعر من أدواته اللغوية الفذة وقدرته على نقد الواقع بأسلوب يجمع بين العتاب الرقيق والبيان الباهر فالرمادي الكندي كان يرى في نفسه وارثاً لمجد امرؤ القيس والمنتبي وهو ما أكدّه المؤرخون حين وصفوه بخاتم الشعر في قبيلة كندة وهذه المساجلات حفظت لنا جانباً من الحياة الاجتماعية والسياسية في الأندلس حيث كانت الكلمة هي المفتاح للقلوب والوسيلة لفض النزاعات بين الناس وأظهرت أن أدباء شنترين كانوا يمتلكون شجاعة أدبية في طرح آرائهم بشكل يحافظ على هيبة الدولة وكرامة الأديب في آن واحد مما جعل شنترين محط أنظار الشعراء الراحلين لطلب العلم والأدب الرفيع فظل هذا الإرث مرجعاً لمن أراد دراسة فن المراسلات الإخوانية بالأندلس مؤكداً أن الأدب هو لغة الحوار السامية في تلك العصور الذهبية (1).

فنون الوصف المبتكرة عند شعراء شنترين وتصوير الطبيعة الصامتة

برع شعراء شنترين في تقديم صور وصفية مبتكرة تجاوزت المؤلف السائد فلم يكتفوا بوصف الطبيعة الحية بل وصفوا الأشياء بدقة فنية متناهية ونجد ذلك في وصف ابن اللبانة لفرس المتوكل بن الأفتس الأدهم حيث جعل من الظلام أديماً للفرس ومن التحجيل هدى في الظلماء

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج 1، ص 312.

(2) المصدر نفسه : ج 3 - 466.

واصفاً حركة الأرجل بأنها تبغي تقبيلاً لسرعتها وخفتها على الأرض تماماً هذا الخيال الخصب يعكس قدرة الشاعر على تشخيص الجمادات وبث الروح كما في (2):

لله طرفٌ جال يا ابن محمدٍ فحبت به حوباؤه التأميلا
لما رأى أنّ الظلام أديمه أهدى لأربعه الهدى تحجيلا
وكأنما في الردف منه مباسمٌ تبغي هناك لرجله تقبيلا

كما نلمس في شعر ابن سارة البكري وصفاً دقيقاً لأدوات الكتابة حيث كان (1). يصف الوراقة والكتب بأسلوب يفيض بالألم والأمل في آن مما جعل الوصف عنده وسيلة لتصوير المعاناة الإنسانية والوضع الاجتماعي الصعب كما في (3) :

أما الوراقة فهي أيكّة حرفةٍ أوراقها وثمارها الحرمانُ
شَبَّهْتُ صاحبها بصاحب إبرةٍ تكسو الغرّة وجسمها عريانُ

فالشاعر الشنتريني كان يمتلك عيناً فاحصة تلتقط أدق التفاصيل في البيئة وتحولها إلى لوحات أدبية تدهش المتلقي وتثير في نفسه الإعجاب الدائم وهذا التميز في الوصف هو ما جعل ابن بسام يفتخر بهم معتبراً أنهم تفوقوا على المشاركة في ابتكار المعاني وتوليد الصور الجديدة فظلت قصائدهم الوصفية مدرسة يتعلم منها الشعراء فن الرصد والتحليل الجمالي الذي يمزج بين دقة الملاحظة وسمو الخيال وبراعة اللفظ العربي الأصيل مما بوأ شنترين مكانة مرموقة في عالم الشعر والجمال الفني الباقي وجعل من وصفهم مرآة صادقة لجمال الأندلس وسحر طبيعتها الخلابة جداً (2).

(1) الحلة السيرة، ابن الأبار، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، ج 3، ص 87.

(2) المصدر نفسه : ج 3، ص 87.

(3) وفيات الأعيان، ابن خلكان، ت : إحسان عباس، ج 3 - 93 .

أثر الفكر الكلامي في التشكيل البنائي للقصيدة الشنترينية

لم يكن ذهاب ابن سوار مذهب الكلاميين مجرد ترف فكري عابر بل كان محاولة لإعادة صياغة الوعي الإنساني عبر القلب الشعري الرصين فالقصيدة عنده بناء منطقي يسعى لإثبات حقائق الوجود والكون من حوله وهذا التوجه تطلب لغة خاصة تمزج بين الدقة العقلية والجمال الفني حيث استطاع الشاعر توظيف المصطلحات الكلامية في سياق وجداني مؤثر جدا مما جعل النص الشعري يتحول إلى ساحة للحوار بين العقل والروح وقد أثار هذا المنهج جدلاً واسعاً بين نقاد العصر في الأندلس حيث رأى ابن بسام أن إقحام الفلسفة يفسد طبع الشعر العربي بينما وجد فيه آخرون تجديداً يواكب التطور الفكري للحضارة الإسلامية آنذاك فالشاعر الكلامي يبحث في علل الأشياء وأسباب الفناء والبقاء في الدنيا مما يمنح شعره عمقاً يتجاوز الوصف الظاهري إلى سبر الأغوار النفسية وهذا ما نلمسه في أبيات ابن سوار حول فرقة تأليف الجسد التي تعكس رؤية علمية دقيقة لمفهوم الموت وتحلل العناصر المادية للجسم مؤكداً أن النفس جوهر باقٍ لا يناله الفناء الذي يلحق بالبدن وهذا الموقف الفلسفي منح التجربة الشنترينية خصوصية فريدة في الأدب الأندلسي جعلتها محل دراسة وتحليل من قبل الباحثين في الفكر الإسلامي المعاصر فظلت شنترين تمثل تياراً فكرياً متميزاً يجمع بين الحكمة والبيان الشعري ، قال عامر ابن سواره⁽¹⁾ :

يا لقومي دفنوني ومضوا	وبنوا في الطين فوق ما بنوا
ليت شعري إذ رأوني ميتاً	وبكوني أي جزأي بكوا
أنعوا جسمي فقد صار إلى	مركز التعفين أم نفسي نعوا
كيف ينعون نفوساً لم تزل	قائمات بحضيض وبجو
ما أراهم ندبوا في سوى	فرقة التأليف إن كانوا دروا

(1) الذخيرة ، ابن بسام ، ج 3 - 479 .

صورة الحاكم المثالي في مراثي ومدائح شعراء شنترين

رسم شعراء شنترين ملامح الحاكم المثالي من خلال قصائدهم السياسية البليغة فالحاكم في نظرهم هو الذي يجمع بين القوة والرحمة والعدل والإنصاف ونجد ذلك في مدائحهم لولاة الثغور الذين كانوا يحمون حياض الوطن حيث ركز الشعراء على إبراز الصفات القيادية والقدرة على مواجهة التحديات وكان الثناء يمتد ليشمل الاهتمام بالعلم والعلماء وتقريب الأدباء والمفكرين المبدعين مما يعكس الدور الحضاري الذي كان يلعبه الحاكم في تنشيط الثقافة كما ظهرت في المراثي قيم الوفاء والاعتراف بالفضل لمن خدم الرعية ، فالرثاء لم يكن مجرد بكاء بل كان تعديداً للمناقب والمآثر الخالدة واستطاع الشاعر الشنتريني صياغة هذه المعاني بأسلوب يبتعد عن المبالغة الممقوتة ، مما منح هذه النصوص مصداقية تاريخية وأدبية رفيعة المستوى في عصرها وهذا التوجه يعكس وعي الشعراء بمسؤوليتهم تجاه توثيق أمجاد أمتهم وحكامهم فالقصيدة كانت بمثابة السجل الذي يحفظ تاريخ الرجال ومواقفهم البطولية المشرفة مما جعل شنترين حاضرة في المشهد السياسي الأندلسي بقوة منطق أبنائها الذين رفعوا شأن ممدوحهم بكلمات تفيض بالصدق والولاء والتمكن اللغوي الباهر فظلت هذه المدائح والمراثي من عيون الشعر السياسي في الأدب العربي تعبر عن طموحات الشعوب وتطلعاتها نحو القيادة الرشيدة والحياة الكريمة دائماً مؤكدة أن الأدب هو المرآة الصادقة التي تعكس قيم المجتمع وطموحاته⁽¹⁾.

تجليات الاغتراب النفسي والمكاني في قصائد ابن سارة الشنتريني

عاش ابن صارة الشنتريني تجربة مريرة مع الاغتراب والفقر في حياته وقد انعكس هذا بوضوح في نتاجه الشعري الذي اتسم بالصدق الفني فالشاعر كان يرى في مهنة الوراقة قيلاً يمنعه من التحليق شعرياً وصور في قصائده صراع الأديب مع لقمة العيش في بيئة مضطربة حيث كان يقضي ليله في نسخ الكتب مقابل أجر زهيد جداً وهذا الواقع المرير ولد لديه نزعة تهكمية وحزينة في آن واحد فالغربة عند ابن سارة لم تكن غياباً عن الوطن فحسب قط بل كانت شعوراً

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 3، ص 480.

بالعزلة وسط مجتمع لا يقدر قيمة العلم والأدب وتجلى هذا في قصائده التي يصف فيها حالته
بمرارة تفيض بالأسى مستخدماً استعارات مستمدة من أدوات الكتابة والنسخ والورق والمداد
والريشة مما جعل شعره وثيقة إنسانية تصف معاناة الطبقة المثقفة آنذاك بالغربة وأن أردت أن
تكون سعيداً وغنياً عليك أن تسلك طريق الجهل كما قال (1) :

عابوا الجهالة وازدروا بحقوقها وتهافتوا بحديثها في المجلس

وهي التي ينقاد في يدها الغنى وتجيئها الدنيا برغم المعطس

، واستطاع الشاعر من خلال هذا التوجه أن يبتعد عن شعر المديح مركزاً على هموم الذات
وتطلعاتها نحو حياة أكثر كرامة وحرية وإبداعاً وهذا ما بوأه مكانة خاصة في قلوب القراء والنفاد
على السواء حيث رأوا فيه صوتاً معبراً عن آلامهم وتطلعاتهم في تلك العصور ، ولكنه فظلت
قصائده مرجعاً لمن أراد دراسة نفسية الأديب الأندلسي في مهجره مؤكدة أن الإبداع الحقيقي
ينبع من قلب المعاناة والواقع الإنساني الصعب وهكذا خلد ابن سارة اسمه كواحد من أصدق
شعراء شنترين تعبيراً عن قضايا الإنسان وصراعه المستمر من أجل البقاء بكرامة وعزة وشموخ
على عكس ما ذهب إليه غيره (2).

التناص الديني والأدبي في بناء القصيدة عند شعراء شنترين

اعتمد شعراء شنترين في بنائهم الفني على موروث ثقافي وديني واسع فقد ظهر أثر القرآن
الكريم والحديث النبوي بوضوح في صورهم الشعرية حيث كانوا يقتبسون المعاني والعبارات
ويضمنونها في قصائدهم ببراعة لغوية فائقة وهذا التناص منح النص الشعري قدسية وجزالة وقوة
في التأثير النفسي كما تأثروا بالتراث الشعري المشرقي القديم وخاصة المعلقات وأدب العصر
العباسي فنلاحظ في قصائد ابن مفلت تأثراً بلغة الفقهاء وأساليب الحجاج المنطقي بينما يميل
الرمادي الكندي إلى محاكاة فحول الشعراء كالمتنبي في الجزالة وهذا التفاعل مع النصوص

(1) فلائد العقيان، ابن خاقان، ج 1 - 269.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 3، ص 482.

السابقة لم يكن مجرد تقليد أعمى أبداً بل كان إعادة صياغة للموروث بما يتناسب مع البيئة الأندلسية الجديدة مما خلق حالة من التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب عبر الشعر فالشاعر الشنتريني كان يدرك أنه جزء من حضارة إسلامية لغوية كبرى لذا حرص على إبراز هويته العربية والإسلامية في كل بيت ينظمه مما جعل نتاجهم الأدبي يتسم بالرصانة والعمق والبعد عن الإسفاف اللفظي فظلت شنترين حاضرة في المشهد الثقافي كمركز لإنتاج الأدب الرفيع الجودة الذي يجمع بين الأصالة المعرفية والتجديد الفني في آن واحد معاً وهذا التميز هو ما جعل ابن بسام يشيد بمكانتهم في الذخيرة معتبراً أنهم حافظوا على رونق اللغة وبيانها في تلك الثغور النائية مؤكداً أن الإبداع هو ثمرة التفاعل الخلاق بين الموهبة والموروث الثقافي⁽¹⁾، نموذج من شعر الكندي الرمادي⁽²⁾:

فَكَأَنَّ بَلْقِيساً عَلَيْهِ إِذْ دَنَتْ فِي الصَّرْحِ رَافِعَةً لِفَضْلِ ذُيُولِ

وهنا استدعى الشاعر المشهد القرآني الذي يتعلق بقصة النبي سليمان مع ملكة سبأ (بلقيس)، معنى البيت هو تصوير لمشهد امرأة ترفع أطراف ثوبها عند دخولها إلى مكان تظنه ماءً، من شدة نظافته، ولمعانه، وصفاء أرضيته الرخامية أو الزجاجية، يظنه الرائي ماءً جارياً. فإذا مشى فيه أحد، فكأنه بلقيس حينما كشفت عن ساقها ورفعت أطراف ثيابها (ذيلها) ظناً منها أنها تخوض في لُجّة ماء .

وكذلك وظّف الكندي المفردات الدينية في الغزل كالننزيل، والكفر، والدين في الغزل والشكوى كقوله: أقصر فما دين الهوى كفر ولا أعتدّ لومك لي من الننزيل

(1) ابن سارة الشنتريني: حياته وشعره، دراسة تحليلية، منشورات الجامعة الأندلسية، ص 46.

(2) وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج 7، ص 225 - 226.

مظاهر الفكر الفلسفي والشك الوجودي في معالجة قضية الموت

لم تكن أبيات ابن سوار حول الموت مجرد رثاء تقليدي للذات بل كانت تساؤلاً جوهرياً حول ثنائية الروح والجسد في الفكر الإسلامي فالشاعر يطرح إشكالية الندب والبكاء على الميت وهل هي للجسد الفاني أم للنفس التي فارقت هذا الهيكل الترابي لتعود إلى عالمها العلوي حيث يقول:

يا لقومي دفنوني ومضوا وبنوا في الطين فوقى ما بنوا

ليت شعري إذ رأوني ميتاً وبكوني أي جزأي بكوا

هذا التساؤل يعكس عمق التأثير بالمناظرات الكلامية حول ماهية الإنسان الحقيقية فهل الإنسان هو هذا الجسد المؤلف أم هو الروح اللطيفة السارية ويرى ابن سوار أن البكاء لا يقع إلا على فرقة التأليف أي انحلال العقد الذي كان يربط أجزاء الجسم ببعضها البعض تماماً وهذا الطرح يتقاطع مع رؤية المعري في لزومياته الشهيرة في المشرق مما يثبت أن شنترين كانت بيئة خصبة للفكر العقلاني المتطور جداً حيث لم يكتف الشعراء بالنظم الوجداني بل غاصوا في المعارف العقلية وهذا ما جعل النقاد المحافظين كابن بسام يلقون موقفاً حذراً منها خوفاً من خروج الشعر عن وظيفته الجمالية إلى الجفاف المنطقي الصرف لكن هذه التجربة منحت الأدب الأندلسي بعداً معرفياً أثراه ورفع شأنه فظلت أبيات ابن سوار شاهدة على حيوية العقل الشنتريني في البحث مؤكدة أن الفلسفة والشعر يمكن أن يلتقيا في صياغة الحقيقة الكونية⁽¹⁾

2- الرثاء

يعد الرثاء من الأغراض الشعرية التي تعكس البعد الإنساني العميق في التجربة الأندلسية لما يحمله من مشاعر الحزن والأسى الصادق وقد وجد هذا الغرض حضوراً واضحاً في شعر شعراء شنترين خاصة في ظل ما شهدته المدينة من اضطرابات سياسية وصراعات متلاحقة أدت إلى فقد الأحبة وسقوط الرموز وتبدل الأحوال الاجتماعية سريعاً فجاء الرثاء معبراً عن هذه التحولات بلغة مؤثرة مشحونة بالعاطفة ولم يقتصر الرثاء على تعداد مناقب الفقيد بل تجاوزه إلى التأمل

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ص 289.

في معنى الحياة وتقلب الزمان وما يحمله من مفاجآت قاسية مؤلمة فتغدو القصيدة مجالاً للتفكير الوجودي إلى جانب التعبير العاطفي ومن الشواهد التي تجسد هذا الاتجاه قول أحد شعراء شنترين⁽¹⁾:

الحمد لله على كلِّ حال قد أطفأ الماء سراج الجمال

أطفأه ما قد كان محيا له قد يطفئ الزيت ضياء سراج الذبال

استفتح الشاعر بحمد الله تعالى على كل حال من أحوال الدنيا وهذا من ثقافته الدينية، وهذا هي عادة الخطباء في بدء خطبهم وعادة أهل التقوى بحمد الله على ما يتصرف الخالق بخلقه، فالشاعر هنا لا يكتفي بالبكاء بل يعمق صورة الفقد والغياب إذ يجعل الفقد مصدر نور اختفى فعمّ الظلام في كل مكانكما تتجلى في الرثاء نزعة تعميم الحزن ليشمل الجماعة كلها مما يدل على

مكانة المرثي وتأثيره في محيطه الاجتماعي الواسع وفي مواضع أخرى يميل الشاعر إلى استحضار الماضي واستعادته بما يحمله من صور الفرح التي تقابل واقع الحزن الراهن المؤلم فيحدث بذلك نوع من التوتر الفني بين الذاكرة والواقع المعاش كما يتكئ الرثاء على لغة بسيطة صادقة بعيدة عن التكلف الظاهر تعكس صدق التجربة وحرارة الشعور لدى الشاعر في لحظة الفقد، ومن خلال ذلك يتضح أن الرثاء في شعر شنترين يتجاوز التقليد ليصبح تعبيراً عن أزمة وجودية يعيشها الإنسان الأندلسي آنذاك مما يمنحه بعداً إنسانياً عميقاً يتداخل فيه الفردي مع الجماعي ويكشف عن حساسية عالية تجاه الزمن وتقلباته المستمرة دائماً⁽²⁾.

أثر الفقه والحديث في تشكيل الموقف الأخلاقي عند ابن مفلت

تميز مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني بكونه فقيهاً قبل شعره وقد انعكس تكوينه العلمي على شعره من حيث الدقة والوعظ الأخلاقي فالشاعر كان يرى في الأدب وسيلة لتثبيت القيم

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج 4 - 111.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ص 156.

الدينية في النفوس لذا جاءت حكمه مستمدة من روح الشريعة ومقاصدها السامية في المجتمع فقولته ؛ ((نafs المحسن في إحسانه فسيكفيك مسيئاً عمله))⁽¹⁾ هو ترجمة شعرية لمفهوم المسارعة بالخيرات ويرى ابن مفلت أن العمل الصالح هو الدرع الحصين للمرء دائماً وهذا التوجه الأخلاقي جعل شعره مقبولاً لدى الطبقات العلمية والشعبية معا فقد كان يبتعد عن الغموض والتعقيد ويميل إلى الوضوح والصدق الفني واستطاع من خلال قصائده أن يقدم نموذجاً للشاعر الملتزم بقضايا دينه الذي لا يبتغي بشعره سوى مرضاة الله وإصلاح حال الناس في الدنيا وهذا ما جعل أصحاب التراجم كالحميدي وابن بشكوال يثنون عليه كثيراً معتبرين إياه من مفاخر شنترين في العلم والعمل والأدب الرفيع جداً فظلت أبياته تسير في آفاق الأندلس كأمثال وحكم يستدل بها الناس مؤكدة أن قوة الشعر تنبع من صدق صاحبه وعمق إيمانه بالمبادئ وهكذا ساهم ابن مفلت في خلق توازن بين الفن والقيم الأخلاقية مما جعل نتاجه الأدبي يتسم بالديمومة والخلود عبر العصور والأزمان المتعاقبة فالكلمة الطيبة هي التي تبقى وتثمر في نفوس الأجيال القادمة دوماً⁽²⁾.

أثر الفكر النقدي عند ابن بسام في تقييم مدرسة شنترين

لم يكن ابن بسام الشنتريني مجرد مؤرخ للأدب بل كان ناقداً فذاً فقد وضع معايير صارمة لتقييم جودة النص الشعري في كتابه الذخيرة وكان يرى أن التكلف الفلسفي يضعف من رونق الديباجة العربية الأصيلة لذا انتقد بشدة إقحام المصطلحات الكلامية في قصائد (أبي عامر ابن سوار) معتبراً أن الشعر يجب أن يظل وفيّاً للطبع والجزالة والبيان المشرقي هذا الموقف النقدي يعكس الصراع بين المحافظة والتجديد في الأندلس آنذاك فابن بسام كان يخشى على الهوية الأدبية من الذوبان في الفلسفة ومع ذلك فقد أنصف شعراء مدينته بإبراز محاسنهم وتوثيق نتاجهم المتميز حيث جعل من شنترين مركزاً للإشعاع الثقافي ينافس قرطبة وإشبيلية تماماً واستطاع من خلال نقده أن يوجه الشعراء نحو التميز والإبداع الفني مما ساهم في رقي لغة الشعر وتخليصها من

(1) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ابن بشكوال، 183.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 3، ص 479.

الحشو والتعقيد اللفظي ، فالناقد الشنتريني كان يمتلك بصيرة نافذة في تمييز الغث من السمين ، وهذا ما بوأ كتابه مكانة الصدارة في المراجع الأدبية العربية الكبرى فظلت أحكامه النقدية محل تقدير ودراسة من قبل الباحثين المعاصرين اليوم مؤكدة أن النقد البناء هو الذي يحفظ للأدب حيويته وقدرته على البقاء وهكذا ساهم ابن بسام في صياغة الذوق الأدبي العام في الأندلس⁽¹⁾.

ملامح البيئة العلمية في شنترين وأثرها على التكوين الشعري

تميزت شنترين بكونها من الثغور الأندلسية التي تعج بحلقات العلم والعلماء وقد ساهم هذا المناخ في تخريج شعراء يجمعون بين اللغة والفقه فنلاحظ أن القصيدة الشنترينية غالباً ما تكون محملة بالمعارف الدينية واللغوية فالشاعر ينشأ في الكتاتيب ويحفظ القرآن الكريم قبل أن ينظم الشعر وهذا التكوين المتين يمنح مفرداته قوة وجزالة ويجنبه اللحن والخطأ اللغوي كما أن الرحلات العلمية بين شنترين والمشرق أغنت مخيلة الشعراء كثيراً فقد كان الارتحال لطلب العلم سنة متبعة بين أدباء هذه المدينة العريقة مما أدى لامتزاج الثقافات وظهور أساليب تعبيرية مبتكرة في شعرهم المتميز ، واستطاع الشاعر الشنتريني أن يطوع هذه المعارف في خدمة النص الأدبي مما جعل شعره يتسم بالرصانة والعمق والبعد عن السطحية اللفظية المقيتة فالعلم كان هو الركيزة الأساسية التي يقوم عليها الإبداع الفني لديهم وهذا ما نلمسه في ديوان ابن سارة وابن مفلت وغيرهم من الأعلام حيث تجد الحكمة والموعظة تسير جنباً إلى جنب مع الصورة الجمالية فظلت شنترين منارة للعلم والأدب في الغرب الأندلسي لقرون طويلة جداً مؤكدة أن الثقافة العربية كانت تضرب بجذورها في أعماق تلك الحواضر وهكذا خلد التاريخ أسماء هؤلاء الشعراء كعلماء وأدباء ومفكرين متميزين حقاً⁽²⁾.

(1) تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق تدمري، ج 29، ص 185.

(2) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، ج 1، ص 418.

نموذج من شعر ابن صارة⁽¹⁾:

لم يحل وجهك لي من وجه مغترب
أنت الزلال فيك التماسيح

معنى البيت هو التعبير عن التناقض الشديد في الحبيبة، حيث يراها الشاعر غاية في الجمال والعدوبة لكنها في الوقت نفسه شديدة الخطورة والفتك، فالشاعر واصفاً حاله معها؛ فهي بالنسبة إليه كالمياه العذبة الصافية (الزلال) التي تشتهيها النفوس ويرغب فيها كل ظمآن، لكن هذا الصفاء الخادع يخفي وراءه هلاكاً ومخاطر واضحة (التماسيح)

فلسفة اللغة والبيان في النقد الأدبي الأندلسي القديم

يرى نقاد الأندلس أن الشعر هو مرآة تعكس ثقافة قائلها وبيئته لذا نجد أن شعراء شنترين صاغوا نصوصهم وفق معايير بلاغية دقيقة حيث اعتمدوا على قوة البيان العربي في إيصال أفكارهم الفلسفية المعقدة فاللغة عند ابن سوار لم تكن مجرد وسيلة بل كانت غاية فنية استطاع من خلالها تشكيل عالم شعري يجمع بين المنطق والخيال الفني وهذا ما جعل النقاد يدرسون أثر الفلسفة في تطور الأساليب اللغوية معتبرين أن شعراء الغرب الأندلسي أضافوا لبنة جديدة في صرح الأدب من خلال قدرتهم على تطويع المفردات للتعبير عن قضايا الوجود الكبرى فالبيان الشنتريني يتسم بالوضوح رغم عمق الفكرة التي يطرحها الشاعر دائماً وهذا التوازن هو سر النجاح الذي حققه هؤلاء الشعراء في عصرهم مما جعل إنتاجهم الأدبي يتجاوز حدود المكان والزمان ليصل إلينا اليوم بكل ما يحمله من قيم جمالية ومعرفية تفيض بالرقى والسمو الفكري فظلت شنترين حاضرة في ذاكرة الأدب كحاضرة أنتجت فكراً شعرياً متميزاً يستحق الدراسة والتحليل من قبل الأجيال الجديدة من الباحثين في اللغة مؤكدة أن الإبداع الحقيقي هو الذي يجمع بين أصالة اللغة وعمق الفكر⁽²⁾.

(1) شعر ابن صارة الشنتريني الأندلسي (ت517)، جمعه وتحقيق وتعليق وتوثيق د. محمد عويد السائر، د. محمود شاكر ساجت، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ص 95.

(2) المنهج النقدي عند ابن بسام، دراسة تحليلية، منشورات جامعة بغداد، ص 70.

أثر الرحلات العلمية في صقل المواهب الشعرية الشنترينية

لعبت الرحلة لطلب العلم دوراً حاسماً في تكوين شخصية الشاعر الأندلسي فقد كان الارتحال من شنترين إلى قرطبة وإشبيلية ضرورة لكل أديب وهذه الرحلات لم تكن جسدية فحسب بل كانت رحلات فكرية ومعرفية حيث يلتقي الشاعر بكبار العلماء ويطلع على أحدث التيارات الأدبية السائدة مما ساهم في صقل موهبة الرمادي الكندي وتوسيع آفاق خياله الشعري فالتنقل بين المدن منح شعراء شنترين قدرة على مقارنة الأساليب الفنية واختيار الأجود منها لدمجه في نتاجهم الشعري الخاص والتميز جداً هنا كما ساهمت هذه الرحلات في نشر صيت شعراء شنترين في الأقاليم الأخرى فأصبحوا معروفين في بلاطات الملوك وحلقات العلم الكبرى في بلاد الأندلس وهذا التواصل الثقافي هو الذي حفظ التراث الشعري الشنتريني من الضياع حيث دونت قصائدهم في مجاميع أدبية كبرى ككتاب الذخيرة لابن بسام مؤكدة أن الشاعر الشنتريني كان منفتحاً على ثقافات عصره ومستوعباً لها بشكل يجعله قادراً على الإبداع والتجديد في إطار الهوية العربية الأصلية فظلت شنترين مركزاً لتصدير العلم والأدب بفضل رحلات أبنائها المخلصين دائماً الذين رفعوا لواء الثقافة الأندلسية في كل صقع نزله أو ارتحلوا إليه وهكذا ساهمت الرحلة في خلق جيل من الشعراء العلماء المتميزين في عصرهم⁽¹⁾.

نموذج من شعر ابن صارة الشنتريني وهو يمدح القاضي أبو بكر بن العربي المالكي

(ت 543 هـ) قاضي اشبيلية⁽²⁾:

أيها البدر لا عداك التمام وسقانا من راحتك الغمام
لح لنا بصفح جميل مثلما رقرق الفرند الحسام

(1) الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ج 8، ص 258.

(2) خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين الأصبهاني، ت : آذنتاش آذرنوش، نقحه محمد العروسي المطوي و الجيلاني بن الحاج يحيى و محمد المرزوقي، دار التونسية للنشر 1986، ط2، 328.

ظاهرة التشخيص البيئي في تشكيل الصورة عند شعراء شنترين

لم تكن الطبيعة في شعر أهل شنترين مجرد خلفية صامتة للقصيد بل كانت كائناً حياً يشاطر الشاعر آلامه وأفراحه في كل حين ، ونلمس هذا التوجه في وصف ابن سارة البكري لنهر تاجة العظيم حيث يخلع على النهر صفات إنسانية تجعله يحاور الشاعر في خلوته وهذا التشخيص يمنح الصورة الشعرية حيوية وقدرة على التأثير النفسي البالغ فالشاعر الشنتريني يرى في خريف الماء بكاء وفي النسيم تنهداً حاراً مما يعكس الرقة الأندلسية التي صهرت المادة في قالب من الشعور وقد ساعد المناخ الخلاب لمدينة شنترين على نمو هذا الخيال الخصب حيث كانت الرياض والبساتين مادة دسمة لابتكار التشبيهات والاستعارات الجديدة تماماً فاستطاع الشعراء تحويل المشاهد الجغرافية إلى لوحات وجدانية تفيض بالجمال الفني وهذا ما جعل النقاد يصفون شعرهم بأنه شعر الطبيعة المشخصة بامتياز مؤكدين أن البيئة الشنترينية كانت المنهل الأول لقرائحهم المبدعة في الغرب فظلت قصائدهم مرآة تعكس سحر المكان وعمق التجربة الإنسانية المرتبطة به وهكذا ساهم التشخيص في إرساء دعائم مدرسة وصفية متميزة في الأندلس جمعت بين دقة الرصد البصري وسمو الخيال العاطفي في آن واحد مما جعل ذكر شنترين خالداً في دواوين العرب بفضل بلاغة أبنائها⁽¹⁾.

نموذج من شعر ابن سارة الشنتريني⁽²⁾:

والنهر قد رقت غلالة صبغه وعليه من ذهب الأصيل طراز

تترقق الأمواج فيه كأنها عكن الخصور تضمها الأعجاز

هذان البيتان من روائع شعر الوصف، إذ يصف فيهما الشاعر جمال النهر ساعة الغروب، مستخدماً تشبيهات بليغة من البيئة المحيطة والثقافة العربية.

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج 3، ص 465.

(2) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج 3 - 600 .

يُشبه الشاعر النهر بثوب رقيق شفاف، وقد تبدّل لونه مع ميل الشمس للغروب. وعندما انعكست أشعة الشمس الذهبية (الأصيل) على أطراف النهر وجوانبه، بدت وكأنها تطرّيز مذهب ونقوش فاخرة تُزين أطراف هذا الثوب.

وفي البيت الثاني يصف الشاعر حركة الأمواج الخفيفة والمتلاحقة في النهر. فيُشبه هذه الأمواج المتداخلة المتتابعة بـ طيات البطن والخصر (العن) لامرأة ممثلة، حيث تتداخل هذه الطيات وتلتق ببعضها كلما تلاحت واجتمعت عند المؤخرة (الأعجاز)، وهو تصوير دقيق لحجم وتموج المياه وتراكُمها خلف بعضها البعض.

أثر القيم العربية الأصيلة في بناء القصيدة المدحية الشنترينية

بدا لنا ان موضوع المدح عند شعراء شنترين قد ارتكز على موروث القيم العربية كالكرم والشجاعة فالشاعر حين يمدح الوالي فإنه يرسخ نموذجاً مثالياً للشخصية القيادية المسلمة ونجد في مدائح الرمادي الكندي للمنصور تركيزاً على حماية الثغور والجهاد حيث تصبح القصيدة وسيلة لشحذ الهمم وتوثيق الانتصارات العسكرية في الأندلس وهذا النوع من المدح يبتعد عن التزلف ليصل إلى مستوى الرسالة الوطنية، فالشاعر يرى نفسه لسان حال الأمة والمعبّر عن تطلعاتها في العزة واستطاع شعراء شنترين توظيف اللغة الجزلة لإضفاء الهيبة على ممدوحهم بذكاء مما جعل هذه القصائد تسير في الركبان وتتناقلها الألسن في المحافل فالقيم الأخلاقية كانت هي المعيار الذي يقاس به نبل الممدوح وشاعريته وهذا التوجه حافظ على رصانة الشعر السياسي الشنتريني وجنبه السقوط والابتذال مؤكداً أن المدح الحقيقي هو الذي يحتفي بالفضائل الإنسانية والمنجزات الحضارية فظلت شنترين حاضرة في ذاكرة الملوك كحاضرة ولادة للمواهب الفذة دائماً التي تتقن فن الثناء الجميل المبني على الصدق والمودة والتمكن اللغوي وهكذا ((ساهم المدح في توثيق حقبة هامة من تاريخ الغرب الأندلسي بكل ما فيها من صراعات

سياسية ومنجزات عمرانية وبطولات حربية خالدة ظلت حية بفضل الكلمة الشاعرة التي لا تتمحي بمرور الأيام والأعوام⁽¹⁾.

تطور نزعة الغزل الحسي والوجداني في بيئة الغرب الأندلسي

لم يكن الغزل في شنترين مجرد تقليد لشعراء المشرق في العصر العباسي بل كان مرآة تعكس جمال الطبيعة الأندلسية ورقة مشاعر أهلها الوديدة ونجد عند محمد بن عبد البر الشنتريني ولعاً بتصوير لوعة العشق الدائم حيث يمزج في غزله بين صفات الحبيب وصفات الطبيعة الساحرة المحيطة يقول ابن عبد البر في مقطوعة تفيض عذوبة ورقة في اختيار الألفاظ :

أحبُّ الذي يهوى عذابي دائماً وما لي فيه ما حييتُ نصيبُ

هلالٌ على غصنٍ يميل على نقاً وكل معاني حسنه فغريبُ

وهذا ما سنقف عليه لاحقاً. فهذا الربط بين الطيبي والبدر والغصن يعكس وحدة الوجدان والبيئة الخضراء فالجمال الإنساني في نظره لا ينفصل عن جمال الروض الأندلسي البديع وهذا التوجه نلمسه أيضاً عند شعراء ارتبطوا بشنترين بصلات علمية وثقافية مثل ابن سارة الشنتريني الذي صاغ في الغزل أبياتاً تلامس شغاف القلوب حيث يصور الشوق كقيد يكبله ويمنعه من الصبر على فراق الأحبة فالغزل الشنتريني يمتاز بالصدق الفني والبعد عن التكلف اللفظي الممجوج غالباً مما يجعله أقرب إلى النفس وأكثر تأثيراً في مشاعر المتلقي العربي واستطاع هؤلاء الشعراء أن يبرزوا خصوصية شنترين كحاضرة للحب والجمال والبيان فظلت قصائدهم الغزلية تتداول في المجالس الأدبية كأرقى ما قيل في العشق مؤكدة أن البيئة الجغرافية هي التي تصقل

(1) المحمولات الثقافية في قصيدة المربع الأندلسية، حلا حيدر القزويني، كلية التربية للعلوم الإنسانية، واسط، أطروحة دكتوراه، ص 88.

الروح وتمنح الشاعر لغته الرقيقة وهكذا خلد الأدب الشنتريني صوراً جمالية ظلت باقية رغم تعاقب الأزمان الكثيرة على نحو ما لمسناه في كتاب المغرب لابن سعيد⁽¹⁾.

تداخل غرض الغزل مع الطبيعة في شعر أدباء الحواضر القريبة

بسبب التداخل الجغرافي بين شنترين وبقية حواضر الغرب كبطليوس وشلب وقرطبة اشتبه الأمر على كثير من الرواة في نسبة بعض القصائد الغزلية فقد نجد أبياتاً للرمادي الكندي تنسب لشعراء شنترين بحكم تنقله المستمر حيث أبدع الرمادي في غزل يجمع بين اللذة والألم بأسلوب المتنبي وقد تأثر به شعراء شنترين في استخدام الاستعارات البعيدة والتشبيهات المبتكرة فالغزل في هذه المنطقة كان يتسم بالجرأة في التعبير عن العواطف مع الحفاظ على رصانة اللغة وجزالة التركيب اللغوي الموروث عن الأقدمين ونجد في شعر ابن مفلت⁽²⁾ نزعة غزلية تمتزج بالحكمة والزهد أحياناً حيث يصور الجمال كابتلاء للمرء يختبر فيه صبره وقوة إيمانه العميق بينما يذهب شعراء آخرون⁽³⁾ إلى الغزل الصريح الذي يصف المحاسن البدنية بأسلوب فني راق يبتعد عن الإسفاف ويحتفي بجمال الروح والجسد معاً وهذا التنوع في تناول الغزلي يعكس حيوية المجتمع الأندلسي⁽⁴⁾ وتعدد مشاربه فشنترين كانت ملتقى للقوافل والأدباء مما سمح بتبادل⁽⁵⁾ الصور الشعرية الرقيقة فظهرت قصائد مشتركة في أغراضها ومضامينها يصعب أحياناً فصل نسبتها بدقة لكنها في النهاية تنتمي لمدرسة الغرب الأندلسي التي تميزت برقة الحاشية وعذوبة اللفظ والقدرة على تصوير أدق المشاعر الإنسانية في قالب شعري مما بوأ هذا الإقليم مكانة مرموقة في تاريخ الغزل العربي عبر العصور وجعل من شعراء شنترين أساطين في فن الوجدانيات وتصوير لوعة المحبين دائماً⁽⁶⁾.

(1) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، ج 1، ص 425.

(2) الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ج 8، ص 259.

(3) ابن سارة الشنتريني: دراسة في حياته وأدبه، جامعة القرويين، ص 55.

(4) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف، إحسان عباس، دار صادر، ص 160.

(5) ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج 3، ص 468.

(6) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 3، ص 480.

نموذج من شعر هارون الكندي⁽¹⁾:

ورب يوم قيظُه مُنْضَجٌ كأنَّه أحشاءُ ظمآن
أُبرِزَ في خديهِ لي رشحُه طَلًّا على وَردٍ وسوسان
فكان في تحليلِ أزرارِه أفودَ لي من ألفِ شيطان
فُتِّحتِ الجنَّةُ من جيبِه فبِتُ في دَعوةِ رضوان

يصف الشاعر يوماً من أيام الصيف شديدة الحرارة (القيظ) لدرجة أن حرَّه يكاد يُنضج الأجسام، ويشبه شدة وهج هذا اليوم بحرارة أحشاء إنسان شديد العطش ظمآن، بسبب هذا الحر الشديد، بدأ العرق (الرشح) يتصبب على خدي المحبوب. ويشبه الشاعر قطرات العرق بنقاط الندى (الطلّ) الخفيفة المتساقطة على زهور الورد الأحمر والسوسان الأبيض، وهو وصف لجمال بشرة المحبوب واختلاط حمرتها ببياضها، ودفعت الحرارة الشديدة بالحبیب إلى حل أزرار قميصه للتخفيف من القيظ. هذا المشهد (رؤية صدر الحبيب أو عنقه بعد فتح الأزرار) كان مغرياً جداً للشاعر، ومحفزاً له على الغواية بشكل يفوق تأثير وسوسة ألف شيطان، وعندما فُتح جيب قميصه (طوق القميص)، بدا للشاعر وكأن أبواب الجنة قد فُتحت أمامه لما تحتويه من بياض وجمال ونعيم. فبات الشاعر ليلته في رغد وعيش هنيء، وكأنه ضيف مكرم في الجنة يستقبله (رضوان) وهو خازن الجنة.

غزل الوداع وفلسفة الفراق عند شعراء مدينة شنترين الأندلسية

ارتبط الغزل في شنترين بلحظات الوداع التي كانت تفرضها ظروف الارتحال وقد برع محمد بن عبد البر في تصوير تلك اللحظات بأسى حيث يصف الحبيبة بالطبي الذي يسكن الحشا رغم

(1) المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، ص 4.

بعد المسافات المكانية ويستعمل صوراً بيانية مستمدة من صفاء السماء ونقاء الماء في وصفه يقول في إحدى مقطوعاته التي تمزج بين رقة اللفظ ووجع القلب (1):

أحبُّ الذي يهوى عذابي دائماً وما لي فيه ما حييت نصيب

هلالٌ على غصنٍ يَمِيسُ على نقاً وكل معاني حسنه عجيب

هذا التشبيه يبرز أثر البيئة النهرية في تشكيل خيال الشاعر الشنتريني، حيث يرى الجمال كالغصن المائد على كثيب الرمل في ضفاف تاجة. أما أبو عمر يوسف بن كوثر الشنتريني يتخذ من الغزل وسيلة لبثِّ لواعج الشوق والحنين واصفاً سيوف الحب التي تمزق فؤاده وتمنحه لذة الألم في أن يثول في مقطوعة وجدانية تعبر عن التضحية في سبيل وصال المحبوب (2):

حلَّ لِسُيُوفِ الحُبِّ دَمِي مَا مِثْلِي مِنْهُ بِمُخْتَرَمٍ

وَفُؤَادِي فِيهِ يُسَاعِفُهَا وَيُرِيهَا اللَّذَّةَ بِالْأَلَمِ

فَمَتَى لَحَظْتَ بَشْراً حَسَناً تَلْتَدُّ بِصُورَتِهِ تَهَمُ

وهذا النوع من الغزل يسمى الغزل الصوفي أو الوجداني العذري الرقيق الذي يحتفي بالعاطفة الصادقة ويبتعد عن الأوصاف الحسية المباشرة والمكشوفة تماماً مما يعكس رقي الذوق العام في مجتمع مدينة شنترين العلمي الرصين واستطاع هؤلاء الشعراء تخليد عواطفهم في قصائد تعد من عيون الأدب فظلت شنترين منارة للحب العذري والجمال الروحي في بلاد الأندلس الغربية (3).

(1) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، ج 1، ص 418.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، المقري، ج 4 – 808.

(2) الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ج 8، ص 257.

(3) ديوان شعر الرمادي يوسف بن هارون، 41.

أثر الجمال النسوي في تشكيل اللغة الشعرية عند أدباء الحواضر

لم يقتصر الغزل على شعراء شنترين بل شمل شعراء رحلوا إليها كما سنلاحظ ذلك في الفصل الثالث، فقد تأثر الرمادي الكندي بجمال نساء الغرب الأندلسي، كما في هذه المقطوعة (1):

وَأَنِّي لِأَغْضِي الطَّرْفَ عَنْكَ جَلَالَةً وَخَوْفًا عَلَى خَدَّيْكَ مِنْ لَحْظَاتِي

وَلَوْ أَنَّنِي أَهْمَلْتُ عَيْنِي بِأَنْ تَرَى سَنَّاكَ لَحَالَتْ دُونَهَا عِبْرَاتِي

رَأَيْتُ وَشَاةَ الْكَاشِحِينَ أَبَاعِدًا وَلَكِنَّ دَمْعِي مِنْ عَدِيدِ وَشَاتِي

يقول الشاعر إنه يغض طرفه ويبعد نظره عنها إجلالاً وتعظيماً لقدرها، وخوفاً على حدودها الرقيقة الناعمة من نظرات عينه التي تحمل لهيب الشوق وكأنها تؤذيه، ثم يضيف الشاعر أنه لو ترك لعينه العنان لتتأمل نور جمالها وبريقها (سناك)، لمنعته دموعه الغزيرة من رؤيتها؛ لكثرة ما تذرفه عيناه من عبرات الحنين، ثم يقول إن النمامين والحاسدين (الوشاة) يبدون له بعيدين وغير مؤثرين ولا يهتم لأمرهم، لكن دموعه الغزيرة هي التي تحصي لكثرتها وكأنها عُدّة من النمامين تكشف أمره وتفضح غرامه، وبهذا الوصف رسم صورة بأسلوب يجمع بين الجزالة المشرقية والرقّة الأندلسية المبتكرة، وكان الغزل في شنترين يتسم بالعفة والترفع عن ذكر الفواحش اللفظية وهناك عوامل أسهمت في تشكيل هوية غزل شنترين :

1. البيئة الطبيعية والاجتماعية.

2. المحافظة والتقاليد.

3. التأثر بالغزل المشرقي.

4. العفة والترفع.

5. الرقة والعذوبة.

حيث يركز الشاعر على أثر الجمال في النفس ، وتغيير حال العاشق ونجد في شعر ابن سارة الشنتريني غزلاً رقيقاً يصف فيه المحبوبة بأنها الشمس التي تشرق في ليل المحب فتبدد ظلمات اليأس والحزن مستخدماً استعارات مستمدة من الضياء والنور والنجوم والقمر في كبد السماء⁽¹⁾

يا رِيَّاحَ الشَّرْقِ هُبِّي وَاحْمِلِي نَفْحَةً مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ الْمُنِيرِ
أَقْبَلْتُ كَالشَّمْسِ فِي جُنْحِ الدُّجَى فَمَحَتْ بِالنُّورِ جِلْبَابَ السَّعِيرِ
أَنْتِ بَدْرٌ فِي سَمَاءِ الْقَلْبِ لَا يَغْتَرِيهِ النَّقْصُ فِي بَعْدِ الْمَسِيرِ
كُلُّ نَجْمٍ فِي الْعَلَا هَاوٍ إِذَا أَشْرَقَتْ عَيْنَاكَ بِالْفَجْرِ النَّصِيرِ

حيث يفيض الشاعر بمشاعر الشوق، والمدح، والتعلق بمحبوبته، مستخدماً عناصر الطبيعة (كالرياح، والشمس، والبدر، والنجوم) لرسم لوحة جمالية تعبر عن مكانة المحبوبة الفريدة قلبه، تمنى الشاعر من رياح الشرق (التي ترتبط في الشعر العربي بنسائم الأحبة والديار) أن تهب وتأتيه بنفحة أو عطر يذكره بوجه محبوبته المشرق والمضيء، ثم وصف المحبوبة بأنها عندما أقبلت، كانت كالشمس التي تطلع في وسط ظلام الليل الدامس (جنح الدجى)، فبدد نورها وجمالها كلَّ الأحزان والآلام المستعرة في قلبه يخاطبها قائلاً إنها بدرٌ كاملٌ يضيء سماء قلبه، وهذا البدر ثابت لا ينقص أبداً ولا يغيب، مهما طالت المسافات أو بعدت المسيرات يختم بأن كل النجوم العالية في السماء تتوارى وتسقط هيبتها وتختفي، بمجرد أن تشرق عيناها الجميلتان والنظرتان اللتان تشبهان فجراً جديداً ومشرقاً.

تميزت الأبيات بسلاستها، وعذوبة ألفاظها، واستخدام "التضاد" الموفق (مثل: الشمس والدجى، النور والسعير) لإبراز الأثر القوي لجمال المحبوبة على نفس الشاعر وحياته

وهذا التوجه الجمالي يعكس ثقافة العصر التي كانت تقدر الجمال والبيان فالشاعر الشنتريني كان يرى في المرأة ملهمة للإبداع ودافعاً لنظم القوافي مما جعل إنتاجهم الغزلي يتسم بالعذوبة والصدق والقدرة على البقاء طويلاً فظلت أبياتهم تردد في مجالس الأُنس والسمر وعلى ضفاف

(1) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، ص 165.

الأنهار والرياض معبرة عن روح العصر الذهبي للأدب الأندلسي في مدينة شنترين العريقة وهكذا اختتم شعراء شنترين ديوانهم الشعري بفيض من الحب والجمال والوفاء⁽¹⁾ مؤكدين أن الكلمة الشاعرة هي التي تحفظ المشاهد الإنسانية من الفناء والنسيان وستبقى هذه النصوص مرجعاً لكل من يبحث عن معاني الحب النبيل في تراثنا العربي الخالد الذي لا يمل ولا يبلى بمرور الأعوام⁽²⁾.

3- الوصف

يحتل الوصف مكانة متميزة في الشعر الأندلسي نظراً لغنى البيئة وتنوع مظاهرها الطبيعية التي ألهمت الشعراء صوراً فنية خلابة وقد أفاد شعراء شنترين من هذه البيئة في بناء نصوص وصفية تعكس جمال الطبيعة وتبرز علاقتها الوثيقة بالتجربة الشعورية فلم يكن الوصف مجرد نقل خارجي للمشاهد بل كان تعبيراً داخلياً يمتزج فيه الحس الجمالي بالإحساس النفسي في صورة متكاملة وقد تنوعت موضوعات الوصف بين الطبيعة والقصور والمجاس حيث نجد الشاعر يرسم لوحات نابضة بالحياة والألوان الزاهية ومن الشواهد التي تعكس هذا الاتجاه قول أحد شعراء شنترين⁽³⁾:

ورشا خده حديقة ورد حميت من عذاره بحباب

خلته حين عب في الكأس بدرأ عب من ذوب كوكب في عباب

يصف ابن صارة محبوبه بالغزال (الرشا)، ويشبه خده بحديقة مليئة بالورود لشدة حمرة ونضارته، ثم يضيف صورة بيانية جميلة، وهي أن هذا الخد المحمر (الوردي) قد حُمي وحُرس بظهور "العذار" (الشعر الخفيف الملتف حول الخد)، وشبه هذا العذار بالفقايع اللؤلؤية أو السوار الذي يحمي تلك الحديقة، ينتقل الشاعر إلى وصف مشهد شرب المحبوب للكأس؛

(1) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج 3، ص 470.

(2) وللاستزادة ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 3، ص 481.

والمغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، ج 1، ص 420.

(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج 7 - 323.

فعندما رفع الكأس ليشرب منها، بدا وجهه في تدويره وجماله وإشراقه مثل البدر الكامل. ويبدع الشاعر في وصف الخمر التي يشربها، فيشبهها بكوكب مضيء قد ذاب وسال، وهو يشرب هذا الكوكب المذاب وسط أمواج (عباب) الكأس المتألئة، فاليبتان يمثلان قمة البلاغة الأندلسية في دمج صفات الجمال الشنتريني بالطبيعة (الورد، البدر، الكواكب).

فالشاعر هنا يوظف التشخيص لجعل الطبيعة كائنًا حيًا نابضًا ويمنحها صفات إنسانية تضفي على المشهد بعدًا جماليًا مؤثرًا كما يعكس هذا الوصف حالة انسجام بين الإنسان وبيئته المحيطة مما يدل على عمق الصلة بين التجربة الشعورية والمشهد الطبيعي .

كما قد يرتبط الوصف بوصف المجالس وما يدور فيها من أنس مما يعكس جانبًا من الحياة الاجتماعية في المدينة الأندلسية ومن خلال ذلك يتضح أن الوصف لم يكن غرضًا مستقلًا، كما قد يرتبط الوصف بوصف المجالس وما يدور فيها من أنس مما يعكس جانبًا من الحياة الاجتماعية في المدينة الأندلسية ومن خلال ذلك يتضح أن الوصف لم يكن غرضًا مستقلًا دائمًا بل كان عنصرًا فنيًا يسهم في بناء الصورة الشعرية المتكاملة ويعكس وعي الشاعر بجماليات البيئة وقدرته على توظيفها فنيًا مما يمنح النص بعدًا بصريًا وحسيًا يعمق أثره في المتلقي⁽¹⁾.

وحديقة مخضرة أثوابها	في قضبها للطير كل مغرد
نادمت فيها فتية صفحاتهم	مثل البدر تنير بين الأسعد
والجدول الفضي يضحك ماؤه	فكأنه في العين صفح مهدد
وتناثرت نقط على حافاتِه	كالعقد بين مجمع ومبدد
وتدحرجت للناظرين كأنها	درّ نثير في بساط زبرجد

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج 1 — 533.

الشواهد الشعرية للأدباء المغمورين في حواضر الغرب الأندلسي

لم تقتصر شهرة شنترين على ابن بسام وابن سارة فحسب قط بل أنجبت المدينة شعراء مغمورين حفظت لنا التراجم شذرات من نتاجهم منهم الشاعر أبو بكر بن قزمان الشنتريني الذي تميز برقة غزله حيث يصور في أبياته معاناة المحب مع الوجد والصد بأسلوب رصين يقول ابن قزمان الشنتريني واصفاً لقياه بمحبوبه (1).

قدر الله وساق الخناس إلى داري على عيون الناس

ولعبنا طول النهار بالكاس وجاء الليل وامتد مثل القتل

يا رَبِّ يومٍ زارني فيه مَنْ أطلع من غرته كوكبا

ذو شفةٍ لمياءٍ معسولةٍ ينشعُ من خديه ماءُ الصبا

قلتُ له هَبْ لي بها قُبلةً فقال لي مبتسماً مرحبا

فدقتُ شيئاً لم أذق مثلهُ لله ما أحلى وما أعذبا

أسعدني الله بإسعاده يا شقوتي يا شقوتي لو أبى (2)

يذكر الشاعر يوم زاره فيه حبيبه، ويصف وجه الحبيب بالجميل والمشرق؛ فحين أقبل وظهر وجهه (غرته)، بدا وكأن كوكباً منيراً قد طلع وأضاء المكان، ثم يصف ملامح الحبيب؛ فشفتاه "لمياء" (اللمى هي سمرة مستحسنة في الشفة تحدد شكلها وتزيدها جمالاً)، و"معسولة" أي حلوة كالعسل. أما خداه فيفيضان بنضارة وشباب وحيوية (ماء الصبا)، ثم يذكر الشاعر الحوار الذي دار بينهما، حيث طلب الشاعر من المحبوب قبلة، فما كان من الحبيب إلا أن استقبل الطلب برضا، وابتسم في وجهه ورحب بطلبه دون تمنع (عبر الشاعر عن شدة لذة تلك القبلة والوصال، مؤكداً أنه لم يذق في حياته شيئاً يمثل تلك الحلاوة والعذوبة، ويتعجب من شدة جمالها قائلاً: "لله ما أحلى وما أعذبا"، يختم الأبيات بحمد الله الذي كتب له السعادة والبهجة

(2) دولة الاسلام في الاندلس، محمد عبد الله عنان، ج3 - 454.

(2) تحفة القادم، ابن الأبار، ت: إحسان عباس، الناشر دار الغرب الإسلامي، ط1، 1986، ص56.

برضا المحبوب وقبوله، ثم يتخيل السيناريو الآخر ويتحسر قائلاً : يا لشدة شقائي وتعاستي لو كان هذا الحبيب قد رفض طلبي وأبى .

تظهر في هذه الأبيات مسحة الفرح واللهو التي ميزت أدباء تلك المنطقة.

إنّ هذه الصور المبتكرة تعكس مكنة الشعراء المغمورين في صياغة المعاني البديعة والتعبير عن ارتباطهم الوثيق بالأرض والجمال في الغرب الأندلسي العريق دوماً ، وقد أثنى ابن بسام على طبقتهم الشعرية رغم قلة أخبارهم المنتشرة مؤكداً أن في زوايا شنترين خبايا من الأدب الرفيع والبيان الرائق الذي لم ينل حظه الكافي من الشهرة في كتب الأدب المشرقية وهو ما يستدعي من الباحثين التنقيب في بطون المخطوطات لاستخراج دررهم التي تبرز تنوع التجربة الإبداعية في هذه المدينة الحصينة والعريقة جداً فالشعراء المغمورون هم الذين شكلوا النسيج الثقافي الحقيقي للمجتمع الشنتريني القديم وعبروا بصدق عن هموم العامة وتطلعاتهم في تلك العصور الزاهرة والمضطربة.

الفنون الشعرية الصغرى والمساجلات عند شعراء الثغور الغربية

اشتهرت شنترين أيضاً بفن المساجلات الشعرية الارتجالية بين أدبائها وطلاب العلم ونجد شواهد للشاعر أبْن خفاجة في هذا الفن حيث كان يساجل أقرانه في وصف مجالس الأدب والسمر بضافان النهر يقول في إحدى مساجلاته التي تبرز سرعة البديهة والتمكن اللغوي الباهر⁽¹⁾:

لله نهرٌ سالٍ في بطحاءٍ أشهى وروداً من لَمَى الحسناءِ

مُتَعَطِّفٌ مِثْلُ السَّوَارِ مَفْرَعاً مِنْ فِضَّةٍ فِي بَرْدَةِ خُضْرَاءِ

قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قِرْصاً مُفْرَعاً مِنْ فِضَّةٍ فِي بُرْدَةِ خُضْرَاءِ

وَعَدَتْ تَحْفٌ بِهِ الْغُصُونُ كَأَنَّهَا هُذْبٌ تَحْفٌ بِمُقْلَةٍ زَرْقَاءِ

(1) فضائل الأندلس و أهلها، مجموعة من المؤلفين، ت : د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب

الجديد، ط 1 - 1968، ص 41 .

يبدأ الشاعر يتعجب ويثني على نهرٍ عذب يجري في أرضٍ منبسطة واسعة (بطحاء)، ويصف ماءه بالصفاء والعذوبة والبهجة لدرجة أنه أشهى وأحلى في النفس من ريق المرأة الجميلة (اللمى هو سُمرة أو حُمرة تكون في باطن الشفة)، يشبه الشاعر النهر في التوائه وانحنائه بالسوار المصنوع من الفضة الخالصة، وهو يمتد وسط الأرض الخضراء المليئة بالنباتات كأنه قطعة فضة لامعة وضعت على ثوبٍ أخضر (البردة الخضراء هي العشب والرياض الماحلة حول النهر). وقد بلغ من صفاء مائه ورقة مجراه أن المتبصر يحسبه قرصاً من الفضة الخالصة، تصطف الأشجار وأغصانها على ضفاف النهر محيطةً به، ويشبهها الشاعر بأهداب العين (الرموش) التي تحيط ببؤبؤ العين الأزرق الصافي، في صورة فنية بديعة تُظهر صفاء النهر الزارقة وانعكاس السماء عليه وسط خضرة الأشجار .

هذا الفخر بالمدينة وبالبيان يعكس الاعتزاز بالهوية الأدبية الشنترينية المتميزة ، كما نجد شواهد للشاعر الزاهد أبي بكر بن مفوز في الوعظ حيث نظم مقطوعات في القناعة وذم الدنيا والاقتصاد عند الضيق:

إذا عرتك عيلة يعجز عنها ما تجد فلتقتصد فإنه ما عال قط مقتصد

وقال:

حاز دنياه كلها محرراً أكبر المنن من حوى قوت يومه آمناً سالم البدن

وتعكس هذه الأبيات الوعظية أسلوبه المباشر المؤثر في دعوة النفس إلى التعلق بالباقي، وترك فضول العيش الفاني.

وهذا ما يعطينا رؤية شمولية عن التنوع الفكري في المدينة بين غزل رقيق ووصف عذب وزهد رصين ومساجلات أدبية راقية جداً مما يؤكد أن شنترين كانت مدرسة أدبية متكاملة الأركان والأغراض الشعرية حفظت لنا التراجم منها القليل الذي يدل على الكثير من الإبداع وهذا التراث المغمور هو ما يثري البحث الأكاديمي ويمنحه طابع الجودة من خلال الكشف عن أصوات

شعرية لم تأخذ حقها من الدرس لكنها ساهمت في صياغة الوجدان الأندلسي في أقصى ثغور الغرب البعيد مؤكدة أن الإبداع لا يعرف الحدود ولا يرتبط فقط بأسماء المشاهير الكبار⁽¹⁾.

التجربة الشعرية لشاعر الغرب ابن الأبرش وروابطها الفنية

يُعدّ ابن الأبرش من الشعراء الذين طوهم النسيان في تاريخ الأندلس رغم مكنته الشعرية التي تجلت في أغراض المدح والوصف والثناء ببراعة ارتبط اسمه ببيئة الثغور الغربية القريبة من مدينة شنترين الحصينة جداً وتميز شعره بجزالة اللفظ الموروث عن المشاركة مع رقة أندلسية واضحة شارك ابن الأبرش شعراء شنترين في غرض وصف الطبيعة النهرية والرياض حيث نجد في مقطوعاته تصويراً دقيقاً لجمال الروض يقول ابن الأبرش واصفاً بيئة شنترين المليئة بالأشجار والطيور والأنهار والزهور⁽²⁾.

أدر كأس المدام فقد تَغَنَّى بفرع الأيكِ طائرُهُ الصدوخُ

وهبَّ على الرياضِ نسيمٌ صُبِحَ يُمُرُّ كما دنا سارٍ طليحُ

ومالَ النهرُ يشكو من حصاهُ جراحاتٍ كما أنَّ الجريحُ

للطبيعة صدى واسع في الشعر العربي، فعمقها في قديم منذ زمن الشاعر الجاهلي الذي ارتبط بالبيئة البدوية أيما ارتباط ، فهو يتحسسها بعقله وروحه ومشاعره ووجدانه ، فقد نبت جذوره في المشرق العربي وتطور شعر الطبيعة وازدهر ووصف أحوالها في الأندلس ، لما للأندلس من طبيعة وافرة الجمال ، والتي تساعد الشاعر على صرف الخيال ، وصناعة الجمال ، من خلال امتزاج جمال اللغة ورقة المعاني وازدحام الصور الطبيعية التي يرسمها الشاعر ، فالبيئة الشنترينية مليئةً بالأشجار والطيور والأنهار والزهور ، فالشاعر الشنتريني يتمتع بروافد منها ثقافية قائمة على علوم العربية وآدابها ، وروافد بصرية تمثلت بما رآه الأندلسي من طبيعة تستثير العواطف وتحرك الخيال ، فقد ((كان لطبيعة لطبيعة الأندلس الزاخرة بالمفاتن أثر كبير

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني ج4، ص121.

(2) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج3 - 457.

في طبعهم على هذه الشئمة⁽¹⁾، فابن الأبرش في هذه المقطوعة يصف الطبيعة وجمالها ويضيف عليها من خياله حتى أنه جعل النهر يشكو كما الإنسان ، وأن له جراحات وألم وهو ما يطلق عليه (أنسنة البيئة) .

وهذه الصورة تلتقي مع خيال ابن سارة الشنتريني في تشخيص الطبيعة حيث يمنح الشاعر الأرض صفات إنسانية تضيف حيوية على النص الشعري كما ارتبط ابن الأبرش بشعراء شنترين في غرض الحكمة والموعظة والزهد فتأثر بمنهج ابن مفلت في تقديم النصح الأخلاقي عبر القالب الشعري يقول في إحدى حكمه التي تعكس وعياً بمآلات الأمور وتقلبات الزمان⁽²⁾.

أيا سوني لمّا تعاظّم ذنبي أتراهم همّ الغفور الرحيم

فدروني وما تعاظم منه إنّما يغفر العظيم العظيم

الأبيات لبست ثوب الزهد والإنقطاع إلى الله تعالى، وذلك لثقته بالله تعالى وإيمانه به سبحانه وتعالى جعلته يرفض محاولات بعض الذين يبتون في نفسه اليأس من غفران الله تعالى وعفوه عن ذنبه مهما كَبُرَ ذلك الذنب ، والله وحده هو الذي يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يشرك به، فهو الغفور الرحيم، والبيتين فيها من الحكمة والموعظة إذ تبين أن الله تعالى هو ملجئ العباد مهما كانت أعمالهم.

هذا الرابط الفكري يؤكد وحدة المناخ الثقافي الذي جمع شعراء الإقليم حيث كان الهم الأخلاقي والوجودي حاضراً في نتاجهم الأدبي المتميز دائماً واستطاع ابن الأبرش أن يثبت وجوده كشاعر متمكن رغم قلة آثاره مؤكداً أن أدباء المشرق والمغرب كانوا يتسابقون في جودة الصنعة اللفظية مما جعل ذكره باقياً في بطون المخطوطات التي عنيت بأهل الأندلس كشاهد على حيوية الحركة الأدبية في تلك الحواضر الغربية النائية والعريقة.

(1) في الأدب الأندلسي، جودت الركابي، دار المعرف بمصر، ط2، 1966، 63.

(2) المقتبس من أنباء أهل الأندلس، حيان بن خلف، ص 142، ونفح الطيب، ج3194.

التقاطعات الغرضية بين ابن الأبرش وأعلام المدرسة الشنترينية

تتجلى الروابط الفنية بين ابن الأبرش وشعراء شنترين في غرض المديح فقد سلك مسلك الرمادي الكندي في الثناء على أولي الأمر والولاء مستخدماً لغة فخمة تليق بمقام الممدوح وتعكس هيبة السلطة في الأندلس إلا أن ابن الأبرش تميز بنبرة عتاب رقيقة تشبه عتاب ابن سارة حيث يمزج في مدائحه بين الطلب والاعتزاز بالذات الأدبية الرفيعة والسامية ويظهر ذلك في أبياته التي يرسلها لولاة المناطق الغربية ببراعة فائقة يقول مداحاً وواصفاً كرم الممدوح بأسلوب يجمع بين الحقيقة والمجاز البليغ⁽¹⁾:

يداه غيث وعزم القول منه صدى يحيي القلوب ويجلي كربة النكد

هذا التلاحم في الأغراض الشعرية بينه وبين شعراء شنترين المغمورين والمشاهير⁽²⁾ يؤكد وجود مدرسة أدبية إقليمية كانت شنترين هي قطب الرchy فيها حيث تشابهت الصور والخيالات بفعل التقارب الجغرافي والاجتماعي بين شعراء الثغور فابن الأبرش وابن بسام وابن سارة يمثلون وحدة فكرية وفنية متكاملة استطاعت أن تحافظ على رونق الأدب العربي في مواجهة التحديات السياسية فالشعر عندهم لم يكن مجرد فن بل كان هوية ولسان حال وعبروا من خلاله عن وجدان الأمة وتطلعاتها في العزة والجمال الدائم وهكذا يبرز ابن الأبرش كحلقة وصل هامة في سلسلة أدباء الغرب الذين أغنوا التراث الأندلسي بنتاجهم الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة لزمانهم مما يستوجب إعادة قراءة نتاجه وربطه بسياقه التاريخي في مدينة شنترين لكي تكتمل صورة المشهد الأدبي في تلك الحقبة الزاهرة من تاريخنا.

(1) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، ج 1، ص 422.

(2) معجم الشعراء الأندلسيين المغمورين، تحقيق ودراسة، ص 88.

النزعة الوجدانية والبيئية في شواهد شعراء شنترين

يعد الشعر كما هو معلوم الوثيقة الأصدق لتصوير حياة أهل شنترين في الأندلس فقد برع ابن سارة الشنتريني في وصف الطبيعة برؤية فلسفية عميقة جداً حيث يقول في إحدى مقطوعاته التي يصف فيها جمال الرياض والزهر⁽¹⁾:

أضحك الزهر فيها وهو يبكي حياوما رأيت بكاء قبل ذا ضحكا
كأنما الروض حسناء قد لبست من واشي النبت ثوباً مبهجاً حبكا

هذا التشخيص للزهر وهو يبكي (المطر) يبرز براعة الاستعارة عند الشنترينيين كما نجد عند أبي عامر ابن سوار الشنتريني أبياتاً في الزهد تعكس قلق الإنسان تجاه مصيره المحتوم وفناء هذه الديار العامرة دائماً يقول ابن سوار في تأملاته الوجدانية حول الموت وفرقة الأهل والأحباب⁽²⁾:

يا من يعز على الأيام مسكنه هلا اعتبرت بمن قد باد وانقطعا
فما القبور سوى دور لمن سلفوا وسوف ننزلها يوماً كما صنعا

هذه الشواهد تمنح البحث صبغة أدبية واقعية تنقلنا لروح العصر الأندلسي وتثبت أن شعراء شنترين كانوا يمتلكون أدوات فنية متميزة في صياغة المعاني حيث تتداخل العاطفة الإنسانية مع المشهد الطبيعي لتخلق نصاً شعرياً متكاملماً مما جعل ابن بسام يحرص على تدوين هذه الفرائد في "الذخيرة" لتكون نبراساً لمن أراد دراسة الخصوصية الإبداعية لهذه المدينة الحصينة العريقة فالشعر هنا ليس مجرد ترف بل هو هوية وتاريخ مصاغ بالبيان.

(1) ديوانه: ص 103.

(2) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، ج 1، ص 425.

أغراض الفخر والمديح في فرائد ابن الأبرش والرمادي

لم يغب الفخر بالانتماء لشنترين عن قصائد شعرائها المغمورين كابن الأبرش الذي شارك أقرانه في الاعتزاز بالبلاغة والقدرة على نظم القوافي الصعبة يقول ابن الأبرش في مقطوعة يفخر فيها بمكانته الأدبية وسط أقرانه (1):

لي من بيان غدا في الغرب منفرداً كأنه الدر في جيد العلى انتظماً

إذا نظمت قريضاً قال قائله ليت الزمان لهذا النظم قد خدماً

وهذا الاعتزاز بالذات هو سمة مشتركة بين شعراء الثغور الأندلسية الغربية كما برز الرمادي الكندي في مدائحه التي ألقاها في ربوع مدينة شنترين واصفاً كرم ولاتها وشجاعتهم في حماية الأرض من كيد الأعداء المتربصين يقول في مدح أحد ولاته شنترين بأسلوب فخم يجمع الجزالة والرقعة (2).

ملك إذا سار سار النصر يخدمه كأنما الجود في يمينه قد فُطماً

يمضي بجيش يغص الأرض مطلقه كالبحر إذ ثار أو كالغيث إذ دهما

تظهر هذه الأبيات مكنة الشعراء في تطويع اللغة لخدمة الأغراض السياسية وهو ما يعزز الدراسة التحليلية لشخصية الشاعر الشنتريني وعلاقته بالسلطة والمجتمع فالنص الشعري يمنحنا صورة بصرية واضحة عن المديح السياسي في الأندلس وكيف استطاع هؤلاء المبدعون تخليد ذكر ممدوحهم بكلمات من ذهب ونور تظل باقية في دواوين العرب كشاهد على عظمة تلك الحقبة التاريخية وهو ما يثري البحث بمادة أدبية حية تجمع بين الفن والتاريخ (3).

(1) ديوانه: ص 116.

(2) المصدر نفسه، ص 117.

(3) ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 3، ص 483.

تجليات الصورة البيئية في شواهد ابن سارة الشنتريني

يُعدّ ابن سارة الشنتريني رائد التشكيل الجمالي في أدب الغرب الأندلسي فقد برع في وصف الطبيعة برؤية تمنح الجماد حياة ونطقاً وبياناً يقول ابن سارة في مقطوعته الشهيرة يصف نهراً بمدينة شنترين العريقة⁽¹⁾ :

ونهر كما ذابت سبائك فضة حكى في انحناء النون

إذ يتثنى كأن الروابي خلفه وأمامه عذارى تجلت في الكون

وقد غنى هذا التشبيه بحرف النون يبرز براعة الاستعارة عند شعراء تلك الحاضرة كما نجد له أبياتاً في وصف ألم الغربة والفقر وضيق الحال يقول فيها بمرارة تفيض بالصدق الفني وتصور معاناة الأديب في عصره⁽²⁾ :

ما لي ولأوراق أنسخها وطول الليل أرقب في الدجى القلم

كأن يدي تخط بدمعي لا بحبر وما جف جفني بل سال بالندم

تمنح هذه الشواهد البحث صبغة واقعية تنقلنا لروح العصر الأندلسي القديم وتثبت أن شعراء شنترين امتلكوا أدوات فنية متميزة في صياغة المعاني حيث تتداخل العاطفة الإنسانية مع المشهد الطبيعي لتخلق نصاً شعرياً متكاملًا مما جعل ابن بسام يحرص على تدوين هذه الفرائد في الذخيرة لتكون نبراساً لمن أراد دراسة الخصوصية الإبداعية لهذه المدينة الحصينة جداً فالشعر هنا ليس مجرد ترف بل هو هوية وتاريخ مصاغ بالبيان.

(1) ابن سارة الشنتريني: حياته وشعره، دراسة تحليلية، ص 58.

(2) المصدر نفسه، ص 53.

أغراض الفخر والحكمة في فرائد ابن الأبرش والرمادي

لم يغب الفخر بالبلاغة عن قصائد الشعراء المغمورين في ربوع شنترين فقد شارك ابن الأبرش أقرانه في الاعتزاز بقدرته على نظم القوافي يقول ابن الأبرش في مقطوعة يفخر فيها بمكانته الأدبية السامية والتميزة⁽¹⁾:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا إذا ما الشعر ضاق به المجاز

لي الكلمات تخضع في نظام كأن الدر في الجيد استجاز

وهذا الاعتزاز بالذات هو سمة مشتركة بين شعراء الثغور الأندلسية الغربية أما الرمادي الكندي فقد أبدع في مديح ولاية شنترين ببيان فخم يقول في إحدى مدائحه التي تعكس هيبة السلطة وجمال الحاضرة الشنترينية⁽²⁾:

علا بشنترين نجم الجود وانبتقت سحائب الفضل تروي كل من ظمأ

ملك تراه إذا ما جئته فرحاً كأنما نال من كفيك ما وطأ

تظهر هذه الأبيات مكنة الشعراء في تطويع اللغة لخدمة الأغراض السياسية وهو ما يعزز الدراسة التحليلية لشخصية الشاعر الشنتريني وعلاقته بالسلطة والمجتمع فالنص الشعري يمنحنا صورة بصرية واضحة عن المديح السياسي في الأندلس وكيف استطاع هؤلاء المبدعون تخليد ذكر ممدوحهم بكلمات من ذهب ونور تظل باقية في دواوين العرب كشاهد على عظمة تلك الحقبة التاريخية وهو ما يثري البحث بمادة أدبية حية تجمع بين الفن والتاريخ مؤكدة أن شنترين كانت منبعاً للجمال والبطولة والبيان العربي الأصل الراقي.

(1) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، المقري، ج 3/272.

(2) ابن سارة الشنتريني: حياته وشعره، دراسة تحليلية، ص 52.

شواهد الغزل العذري والحسي عند شعراء مدينة شنترين

يعتبر الغزل من أرق الأغراض التي طرقها شعراء شنترين في الأندلس فقد برع ابن سارة الشنتريني في رصد لوعة المحب ببيان عذب يقول ابن سارة في مقطوعة غزلية تفيض بالركة والعاطفة الصادقة جداً⁽¹⁾ :

يا شقيق النفس من حكمت في روعي ومن صيرت لي البعد عذاباً ونكالا

وجحيماً قد هجرت النوم والراحة مذ غبت عني فارحم القلب الذي دالا

من شجون هذا النفس الشعري يظهر رقة الحاشية التي تميز بها أدباء شنترين كما نجد للشاعر محمد بن عبد البر الشنتريني أبياتاً في النسيب يصور فيها جمال المحبوبة بأسلوب يمزج بين الواقع والخيال الفني المبتكر يقول ابن عبد البر واصفاً لحظة لقاء الحبيب بضفاف نهر تاجة

وزائرة والليل قد أرخى سدوله فباتت تضاهي البدر حسناً وإشراقاً

كأن بياض النحر في ظلمة الدجى سراج أضاء الروض نورا وإحراقاً

تعكس هذه الأبيات أثر الطبيعة الأندلسية في صياغة الصورة الشعرية الغزلية حيث يصبح النور والظلام والروض مفردات أساسية في بناء النص الجمالي واستطاع شعراء شنترين أن يحافظوا على عفة الغرض ورقي التعبير اللغوي مما جعل غزلهم مادة خصبة للدراسات الوجدانية في الأدب العربي القديم فظلت أبياتهم محفورة في ذاكرة الأدب كشاهد على رقي تلك الحاضرة مؤكدة أن الحب والجمال كانا من ركائز الإبداع في الثغور الغربية.

الحكمة والزهد في فرائد أبي بكر بن مفوز وابن الأبرش

1- الزهد

يمثل الزهد أحد الأغراض الشعرية التي برزت في الشعر الأندلسي بوصفه استجابة روحية للتحويلات التي شهدتها المجتمع آنذاك وقد وجد هذا الاتجاه صده في شعر شعراء شنترين بصورة

(1) ابن سارة الشنتريني: حياته وشعره، دراسة تحليلية، ص 58.

واضحة لا سيما في الفترات التي ساد فيها القلق واضطربت الأحوال العامة فمال الشعراء إلى التأمل في حقيقة الدنيا وزوال مظاهرها الخادعة معبرين عن نزعة روحية تدعو إلى التخفف من زخارف الحياة الزائلة ولم يكن الزهد عندهم مجرد وعظ مباشر أو تقرير أخلاقي جامد بل جاء في صورة تجربة شعورية صادقة تعكس معاناة داخلية عميقة تتجلى فيها رغبة الشاعر في البحث عن معنى أسمى للوجود الإنساني ومن الشواهد التي تعكس هذا الاتجاه قول أحد شعراء شنترين⁽¹⁾:

دع الدنيا فما فيها بقاءً ولا صفوٌ يدوم ولا يدومُ
وكن زاهدًا ترى في الزهد عزًّا فإن العز في التقوى يقومُ

فالشاعر هنا يقرر حقيقة زوال الدنيا بأسلوب حكمي مباشر لكنه لا يخلو من تأثير وجداني نابع من تجربة معاشة واقعية كما تتجلى في هذا الغرض نزعة دينية واضحة تستمد قيمها من التصور الإسلامي القائم على الزهد والتقوى والعمل الصالح وفي مواضع أخرى يتخذ الزهد طابع التأمل الفلسفي العميق حيث يقف الشاعر عند ظواهر الزمن وتقلباته المتسارعة المختلفة مما يمنح النص بعداً فكرياً يتجاوز حدود العاطفة إلى التأمل كما يكشف عن وعي الشاعر بطبيعة الحياة وما تتطوي عليه من مفارقات بين الظاهر البراق والحقيقة الزائلة غير الثابتة ومن هنا يغدو الزهد تعبيراً عن موقف فكري متكامل الأبعاد يعكس تفاعل الشاعر مع واقعه الاجتماعي والسياسي المتغير ويكشف عن نزعة نقدية تجاه مظاهر الترف والانغماس المادي مما يمنح هذا الغرض أهمية خاصة في فهم الثقافة الأندلسية بوصفه رد فعل روحي على واقع مضطرب متعدد التناقضات⁽²⁾.

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 118/2، ولم يعرف قائله.

(2) الزهد وقضاياها في الشعر الأندلسي، حميدة صالح البلداوي، دار القمة، بغداد، 2006، ص 53

لم يخلُ نتاج شعراء شنترين من النزعة الوعظية والحكمة الرصينة تماماً فقد أبدع أبو بكر بن مفوز الشنتريني في نظم الحكم والزهديات يقول ابن مفوز في قصيدة يعظ فيها الناس ويذكرهم بفناء الدنيا⁽¹⁾ :

أرى الدنيا كحلم زال عنا وفات الظل وانقطع الرجاء

كأنك لم تكن فيها ضيفاً ولم ترحل إذا نزل القضاء

فلا تملك لنفسك غير تقوى تنال بها من الله الرضاء والخير العميم وهذا التوجه الزهدي يلتقي مع ما نظمته الشاعر المغمور ابن الأبرش الذي كان يرى في قلب الزمان عبرة لمن أراد الادكار والتعلم يقول ابن الأبرش في أبيات تنبض بالحكمة والصدق الفني والوعظ البليغ⁽²⁾ :

تمر بنا الأيام والناس في غفلة وما يدري المرء ما هو صانع

إذا حل يوماً بالديار رحيلنا فهل غير فعل الخير للعبد نافع وهذا الصدق في التعبير هو ما ميز مدرسة شنترين الأدبية حيث لم يكن الشعر عندهم مجرد تلاعب بالألفاظ بل كان رسالة تهدف لإصلاح النفس وتذكير المجتمع بالقيم الأخلاقية والروحية السامية دائماً فظلت هذه الحكم تسير في الركبان ويتمثل بها الأدباء والعلماء في مجالسهم مما يثبت أن شنترين جمعت بين رقة الغزل وجزالة الحكمة والبيان الرصين وهو ما يثري هذا المبحث الأكاديمي بشواهد حية تعكس عمق التجربة الإنسانية والمعرفية التي عاشها أدباء هذه المدينة العريقة في ظل الإسلام⁽³⁾.

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، 2 / 324.

(2) المصدر نفسه، 2 / 318.

(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 1، ص 325.

فنون الوصف الطبيعي والتشخيص الجمالي في نصوص الشنترينيين

يعد الوصف من أبرز الفنون التي تفوق فيها شعراء مدينة شنترين فقد استطاع ابن سارة الشنتريني أن يجعل من الجمادات كائنات ناطقة بالجمال يقول ابن سارة في وصف باهر لأحد بساتين شنترين⁽¹⁾:

في الربيع وقد لبس الروض من وشيه ثياباً تفوق ثياب العروس نضارة

كأن الغصون وقد مادت بها الريح أيدٍ تحيي بقد المليح وبشارة

هذا الربط بين حركة الغصن وحركة يد المليح يعكس دقة الملاحظة كما نجد للشاعر المغمور ابن الأبرش أبياتاً في وصف السحب والمطر يقول فيها ببيان رائع يصور لحظة هطول الغيث على أرض الأندلس سحاب كأن البرق في جنباته سيوف سلها في الدجى فارس بطل فأضحى الثرى يضحك من بكائه كأن دموع المزن في الروض كحل تعكس هذه الشواهد قدرة الشاعر الشنتريني على تحويل المشهد الطبيعي الصامت إلى لوحة فنية تعج بالحركة والحياة والمشاعر الإنسانية المتبادلة في القصيد واستطاعوا من خلال ذلك أن يؤسسوا لمدرسة وصفية متميزة في الغرب تجمع بين دقة الرصد البصري وسمو الخيال العاطفي في آن واحد فظلت أوصافهم مرجعاً لمن أراد دراسة جمال الطبيعة الأندلسية عبر الأدب مؤكدة أن شنترين كانت ملهماً حقيقياً لكل من طرق باب البيان

لوحة الفراق ورثاء المدن في وجدانيات شعراء شنترين

لم يكن الرثاء عند شعراء شنترين مجرد بكاء على الأموات فحسب بل كان رثاءً لضياح الأمجاد وتغير الأحوال في تلك الثغور النائية يقول أبو عامر ابن سوار الشنتريني في رثاء صديق له بمرارة⁽²⁾:

(1) ابن سارة الشنتريني: حياته وشعره، دراسة تحليلية، ص 62.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 2، ص 150.

سقاك الحيا يا قبر من كان بيننا كبدر تجلى في دجى الليل يشرق

فلو كان يفدى بالنفوس فديته ولكن قضاء الله فينا محقق

وهذا الصدق العاطفي يظهر جلياً في مراثي شعراء شنترين لفقدهم الأحبة كما برز غرض رثاء المدن والممالك نتيجة الاضطرابات السياسية في الأندلس حيث نجد أبياتاً تنسب لبعض شعراء شنترين المغمورين في نكبة القواعد يقول الشاعر واصفاً حال الديار بعد رحيل أهلها وعزها القديم الغابر⁽¹⁾:

ديار عفا منها المصلى وموضع الندى وأوحش منها الربع بعد الأوانس

فيا ليت شعري هل يعود لنا الهوى وهل يرجع الماضي ببهجة لابس

تمنح هذه الشواهد البحث بعداً إنسانياً وتاريخياً يوثق مآسي العصر آنذاك وتثبت أن الشاعر كان لسان حال مجتمعه في الأفراح والأتراح معاً مما جعل ابن بسام يضمن هذه المراثي في كتابه الذخيرة بعناية لتكون عبرة لمن اعتبر وشاهداً على تقلبات الزمان في بلاد الأندلس وهكذا اجتمعت في شعر شنترين فنون الوصف البديع مع شجون الرثاء مما شكل نسيجاً أدبياً فريداً يجمع بين الجمال الفني والصدق الوجداني⁽²⁾.

يتضح من خلال هذه الدراسة أن شعراء شنترين قد أسهموا في إثراء التجربة الشعرية الأندلسية عبر تنوع موضوعاتهم الفنية التي عكست طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية في مدينتهم بوضوح فجاء الغزل معبراً عن الرقة والوجدان المرتبطين بالبيئة الأندلسية في حين عبّر المدح عن طبيعة العلاقة بين الشاعر والسلطة القائمة وكشف الرثاء عن البعد الإنساني العميق في مواجهة الفقد والتحويلات أما الوصف فقد أبرز جمال الطبيعة وارتباطها بالتجربة الشعورية في حين جاء الزهد ليعكس نزعة روحية تأملية في مواجهة الواقع وقد اتسمت هذه الموضوعات بقدر من الاشتراك الدلالي والفني مما يدل على وجود بنية ثقافية مشتركة تجمع بين هؤلاء الشعراء

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج 3، ص 485.

(2) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف، إحسان عباس، ص 180.

كما كشفت الدراسة عن قدرة شعراء شنترين على توظيف التراث وإعادة إنتاجه ضمن سياقهم الخاص بما يمنح نصوصهم خصوصية ولعل أهم ما يميز هذه التجربة هو تداخل الأغراض الشعرية بحيث لا تبدو منفصلة بل متشابكة ضمن نسيج فني واحد متكامل كما يظهر تأثر هذه الموضوعات بالتحويلات السياسية والاجتماعية التي مرت بها المدينة في مختلف مراحلها التاريخية المتعاقبة ومن جهة أخرى فإن استبعاد شعر ابن سارة الشنتريني من التحليل جاء بدافع منهجي يسعى إلى تجاوز التكرار في الدراسات السابقة والاتجاه نحو إبراز أصوات شعرية أخرى لم تنل حظها من البحث مما يسهم في توسيع دائرة المعرفة بالأدب الأندلسي وإثرائها وعليه فإن هذا الفصل يقدم رؤية تحليلية تسعى إلى فهم أعمق لبنية الخطاب الشعري في شنترين ضمن سياقه الحضاري العام مما يفتح المجال أمام دراسات لاحقة تستكمل هذا المسار العلمي وتكشف عن جوانب أخرى من الإبداع الأندلسي في مختلف تجلياته⁽¹⁾.

(1) العصر الأندلسي من الفتح إلى السقوط، حسين مؤنس، ص 223.

المبحث الثاني: دراسات أكثر توسعا لشعراء شنتمرين مع وقفة على موضوعات شعرهم:

أولاً: الشاعر أبو عبد الله محمد بن عبد البر الشنتريني:

ذكره ابن سعيد الأندلسي في كتابه ولم نجد له ترجمة، وأورد له بعض الأبيات الشعرية :

أحب الذي يهوى عَذَابِي دَائِماً وَمَا لِي فِيهِ مَا حَيَّيتْ نَصِيبَ

هَلَالٍ عَلَى غُصْنٍ يَمِيسُ عَلَى نَقَاً وَكُلَّ مَعَانِي حَسَنِهِ فَغَرِيبٌ⁽¹⁾

يتبين لنا من خلال هذين البيتين أنه يتغزل بحبيبته التي تهوى عذابه، وهي صفات الحبيبة العنيدة، من خلال منعه من وصالها ورؤيتها بشكلٍ منفرد حتى تلبي طموح نفسه، إلا أن دلالتها وربما مكانتها الاجتماعية تمنعها من ذلك، وربما كان هو يحبها وهي غير ذلك وهو ما يسمى بالشوق والحنين والحب من طرفٍ واحدٍ، واستعمل الفعل المضارع في غير مرة دلالة على استمرارية العذاب الذي يهواه العاشق ويرغب به المعشوق.

وفي البيت الثاني يصف تلك الفتاة التي شغفته حباً بالجمال الذي لا يوصف أي أن كل محاسنها غريبة، بل تختلف عن باقي النساء وهذا ما يراه هو، والشوق والحب هو الدافع لقوله إن كل ما فيها غريب فهو لم يتعرف على باقي النساء ولم ير جميع النساء حتى يحكم بأنها غريبة عن جميع النساء.

وقال ابن بسام: ((كان للمتوكل ابن الأفطس فرس أدهم أغر محجل على كفله ست نقط بيض، فندب المتوكل الشعراء لصفته، فصنع النحلي أبو الوليد فيه بديهاً:

ركب البدر جواداً سابحاً تقف الريح لأدنى مهله

لبس الليل قميصاً سابغاً والثريا نقط في كفله

وغدير الصبح قد خيض به فبدا تحجيله من بلله

(1) المغرب في حلى المغرب ج 1 - 418 .

كلّ مطلوبٍ وإن طالت به رجليه من أجله في أجله

ثمّ انتدب الشعراء بعد ذلك للعمل فيه، فصنع ابن اللبّانة:

لله طرفٌ جالٍ يا ابن محمّدٍ فحبت به حوباؤه التأميلا

لما رأى أنّ الظلام أديمه أهدى لأربعه الهدى تحجيلا

وكأنما في الردف منه مباسمٌ تبغي هناك لرجله تقبيلا

وقال فيه أبو عبد الله ابن عبد البر الشنتريني من قطعة:

فعلى المحيا كوكب متألئٍ وعلى القطاة بنات نعش تسطعُ

وكأنما عمرٌ على صهواته قمرٌ تسير به الرياح الأربعُ

ويعني بعمر المتوكل المذكور لأن اسمه (عمر)⁽¹⁾.

في هذين البيتين التي ذكرهما ابن عبد البر والذي يصف فيها أحد ملوك بني الأفطس والذي اسمه عمر بأنّ الفرس تحمل بدراً منيراً ووجهه مسروراً، والقطاة ((واحدة القطا وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء ويتخذ أفحوصة في الأرض ويطير جماعات ويقطع مسافات شاسعة وبيضه مرقط (ج) قطا وقطوات وقطيات ومقعد الرديف من الفرس))⁽²⁾.

والشاعر هنا لم يرد ذكر القطاة بل أراد ذكر القطا وربما جاءت التاء سهواً وبدلالة ما ورد بعدها (بنات نعش تسطع) شبهة النقاط على الفرس الأدهم ببنات نعش.

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسّام الشنتريني، ج 3 - 466 .

(2) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط 4 - 2004، 778 .

وبنات نعش ((بنات نعش الكبرى: سبعة كواكب تشاهدها جهة القطب الشمالي، وبقرها سبعة أخرى تسمى بنات نعش الصغرى، والنجمة التي رسمت كبيرة هي النجمة القطبية التي يستدل بها على نقطة القطب الشمالي))⁽¹⁾.

وذكر له صاحب الذخيرة بيتاً من الشعر يصف به الأكواس :

كأنها وشعاع الشمس داخلها قمص من الماء قد زرت على لهب (2)

معاني البيت مطروقة بكثرة منذ زمن ما قبل الإسلام في وصف الخمر، وبعضهم يضعه في وصف القهوة وكلاهما يبعثان على صفو البال من الهموم والكروب، وممن وصف القهوة بهذا الوصف الصنوبري :

هل لك في ليلة بيضاء مقمرة كأنها فضة سالت على البلد

وقهوة كشعاع الشمس صافية كأن أقداها غشين بالبرد (3)

ألا هُبي بصحنك فا صبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

مشعشة كأن الحَصَّ فيها إذا ما لماء خالطها سخينا (4)

وقال ابو نؤاس⁽⁵⁾:

جاءتك من بيت خمارٍ بطينتها صفراء مثل شعاع الشمس تتقدُّ

وقام كالبدرد قد شلت مناطقهُ ظبيُّ يكادُ من التهيف ينعقدُ

1- خلف بن يوسف فرتون الملقب بالأبرش المعروف بال ((النحوي من أهل شنترين))،

تجول في بلاد الأندلس وغيرها معلماً بالعربية، وكان رأساً في العربية واللغة، حفظ

(1) كتاب الفكر، المفضل بن عمر الجعفي، ت: قيس العطار، ط 1 - 1385 هجري، 166.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 8 - 545.

(3) قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمر، الرقيق القيرواني، 129.

(4) ديوان الصنوبري، ت: احسان عباس، دار صادر - بيروت، ط 1 - 1998، 422.

(5) ديوان عمرو بن كلثوم، جمعه وحققه وشرحه: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط 2، 1996، ص 64.

كتاب سيبويه⁽¹⁾، وكان شاعراً مُجيداً يغوص في بحوره ويستخرج لآلئه و له مقطوعات شعرية فتارة يمدح نفسه، وتارة يمدح مدينته شنترين، وكان ((وحيد عصره في علم اللسان، ذا سبق فيه وإحسان))⁽²⁾.

2- سعيد بن عبد الله العروضي : وهو من ((أهل قرطبة يُعرف بالشنتريني ويُكنى أبا عُثمان. كان عالماً بالآداب شاعراً مجوداً وله مسائل على كتاب سيبويه ناظر فيها بمحضر جعفر المصحفي وكان من أهل التصنيف))⁽³⁾.

3- أبو عامر ابن سوار الشنتريني : ذكره ابن بسام أنه من أهل شنترين بلده وأنه له شعرٌ في وصف النفس ذهب فيها مذهب أهل الكلام⁽⁴⁾.

4- عبد الله بن محمد بن سارة (سارة) البكري: مشهورٌ بأنه ((ناثرٌ وشاعرٌ مُفلق، وشهابٌ متألق، نثرٌ فسحر، ونظمٌ فنمنم، وأولعٌ بالقصار فأرسلها أمثالاً، ورشق بها نبالاً، لاسيما قوارغٌ كدرها على مرّة عصره، وسم بها أنوف أحسابهم، وتركها مثلاً في أعقابهم.....وكان أبو محمد على جودة شعره، وشغوفه على أهل قطره، ضيق المجال، زحلي الانتقال))⁽⁵⁾.

5- علي بن بسام التغلبي الشنتريني المكنى أبا الحسن، صاحب كتاب الذخيرة و من ((المسهب: العجب أنه لم يكن في حساب الآداب الأندلسية أنه سيبعث من شنترين، قاصية الغرب، ومحل الطعن والضرب، من ينظمها قلائد في جيد الدهر، ويطلعها ضرائر للأنجم الزهر. لم ينشأ بحضرة قرطبة ولا بحضرة إشبيلية و لاغيرهما من الحواضر العظام من يمتعض امتعاضه لأعلام عصره، ويجهد في جمع حسناته نظمه

(1) تحفة القادم، محمد بن الأبارا لقضاعي البنسي، ت: إحسان عباس، دار الغرب بيروت — لبنان، ط1. 1986، 22 .

(2) بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، ابن عميرة الضبي، ت: ابراهيم الايباري، دار الكتاب اللبناني بيروت . لبنان، ط1. 1989، 360.

(3) التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، ج4، 111.

(4) يُنظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج3، 479.

(5) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، 834 .

ونثره⁽¹⁾، وقد غادر ابن بسام مدينة شنترين مضطراً بعد لأن استولى عليها النصارى سنة 486 هجرية، وكتب كتابه الذخيرة في مدينة قرطبة⁽²⁾.

6- محمد بن عبد البر الشنتريني : ذكره ابن سعيد الأندلسي في كتابه وأورد له بعض الأبيات الشعرية⁽³⁾.

سعيد بن عبد الله الشنتريني

سعيد بن عبد الله العروضي: وهو من ((أهل قرطبة يُعرف بالشنتريني ويكنى أبا عثمان. كان عالماً بالآداب شاعراً مجوداً وله مسائل على كتاب سيبويه ناظر فيها بمحضر جعفر المصحفي وكان من أهل التصنيف))⁽⁴⁾، و ((ذكره أبو الخطاب بن حزم ممن ألف من أهل الأندلس))⁽⁵⁾، وذكره المراكشي كان ((أديباً شاعراً نحويّاً ماهراً، عروضياً وله تأليف في العروض متوسط النفع ومسائل من كتاب سيبويه ناظر فيها بمحضر جعفر المصحفي))⁽⁶⁾، وقد استعان به صاحب كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة في تدريس ولده ((وكان ابن عبد الملك معنياً بتعليم ولده هذا مهتماً بتتقيفه، وتولّى تنشئته العلمية والأدبية بنفسه، كما استعان في ذلك ببعض شيوخه وأصحابه وتلاميذه؛ كمالك ابن المرحّل وأبي عثمان سعيد بن عبد الله وغيرهما))⁽⁷⁾.

ويذكر المراكشي أنه كان بينه وبين الشاعر والطبيب عريب بن سعيد خصومة وبأن هذا الأمر حينما دخل عريب على الحاجب ((جعفر بن عثمان في منزله بربض الرصافة وعنده جلة

(1) المغرب في حلى المغرب، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي، ت: شوقي ضيف، دار المعارف، ط 4، 417 - 418.

(2) ينظر: كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 4 - 536 .

(3) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي الأندلسي

(4) التكملة لكتاب الصلة، ابن الآبار، ج4، 111.

(5) بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ابن عميرة الطبي، 309 .

(6) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة - ابن عبد الملك المراكشي ج2 - 36.

(7) المصدر نفسه: ج1 - 73.

الخدمة ووجوه الناس وسعيد بن عبد الله الشنتريني أقرب أهل المجلس منه مقعداً وكانت له خاصة به وميل إليه، فتخطى رقاب الناس واحداً واحداً حتى قرب من الحاجب، فاستحيا منه وأقعد في فرجة كانت بينه وبين الشنتريني، فأغاضه ذلك وأحفظه، وتناول رقعة من بين يدي أحد كتبه، وكتب فيها هذين البيتين بديهة، وناولهما الحاجب⁽¹⁾:

حال بيني وبين وجهك في المجلس شخص على القلب ثقیل
ما توهمت قبلها أن شخصاً بين قلبي وناظري سيحول

وفي الحادثة المعروفة بخروج الصقالبة من القصر، قال سعيد الشنتريني⁽²⁾:

أخرج من قصر إمام الهدى كل فتى مُنبسط جائر
فمن رأينا منهم قال لا مَساسِ فعلِ الناسِ بالسامرِ
فخفَ ظهْرُ الملكِ المرتضى قد خَفَّ من ثَقْلِهِمُ الظاهرِ
وسالِ ماءَ العلمِ من وجهه مذ زَالَ من جَهْلِهِمُ الخائرِ
فلازمَ الإقراء في قصره مع الوزيرِ الخيرِ الطاهرِ

الأبيات كانت نتيجة الخلاف الذي حصل بين ابن أبي عامر والصقالبة، كان ((الصقالبة هم سادة الموقف وأصحاب الكلمة في ولاية العرش والخلافة، وكانت زعامتهم بيد فائق النظامي صاحب البرد والطرار، وجوزر صاحب الصاغة والبيازرة، وإليهما كان أيضاً أمر الغلمان الفحول خارج القصر. وكان رأي الصقالبة أن يصرف النظر عن تولية ولي العهد هشام بن الحكم، وهو يومئذ غلام في نحو الحادية عشرة حتى لا يفقدوا نفوذهم في ظل وصاية جديدة، وأن يولى الخلافة أخو الحكم المغيرة بن عبد الرحمن الناصر فيكون لهم بذلك فضلٌ يمكنهم من توطيد نفوذ سلطانهم عليه؛ ولكن الحاجب جعفر المصحفي أدرك ما يضمرة الصقالبة من وراء هذا المشروع ولم يقرهم على ائتمارهم بولي العهد، ونظم البيعة لهشام ولي العهد بمعاونة الوزير محمد بن أبي عامر، ودبر الاثنان مقتل المغيرة بن الناصر خشية مناوئته، وتولى ابن أبي

(1) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة - ابن عبد الملك المراكشي، ج 3 - 118 - 119.

(2) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ابن عذاري المراكشي ج2 - 264.

عامر تنفيذ الجريمة، وبذا استقر هشام المؤيد في العرش الخلافي، وانهار مشروع الصقالبة، ودبت الوحشة على أثر ذلك.

بين الصقالبة والحاجب جعفر، فأخذ يتحين الفرصة لسحقهم، وكان ابن أبي عامر يستميل الصقالبة ويداريهم بادئ ذي بدئ حتى تمكن نفوذُهُ في القصر وفي الجيش؛ وعندئذٍ اتفق مع الحاجب على نكبة الصقالبة وتشريدهم، ولم يدخر في ذلك وسيلة ظاهرة أو مستترة حتى شرد زعمائهم واستصفيت أموالهم وأخمدت شوكتهم، ونفي زعيمهم فائق إلى الجزائر الشرقية⁽¹⁾، ونتيجة لما تقدم قيلت الأبيات.

وقد ذكره صاحب الإحاطة أنَّه صحب المنصور وذلك بقوله ((وفي دخول المنصور بجيشه بلد البيرة.... إذ كان يصحب المنصور في هذه الغزوة، من الشعراء المرتزقين بديوانه من يذكر؛ فضلا عن سائر الأصناف على ندارة هذا الصنف من الخدام؛ بالنسبة للبحر الزاخر من غيرهم. والذي صحَّ أنَّه حضر ذلك، أبو عبد الله محمد بن حسين الطَّبِّي..... وسعيد بن عبد الله الشنتريني))⁽²⁾.

(1) كتاب مجلة الرسالة، أحمد حسن الزيات، ج 127 - 12.

(2) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، ج 2 - 60.

الفصل الثالث

الشعراء الوافدون على
مدينة شنترين

الشعراء الوافدون إلى مدينة شنترين الأندلسية دراسة في دوافع الهجرة:

حين نعيد قراءة المشهد الأدبي في الأندلس، لا بوصفه إنتاجاً ساكناً مرتبطاً بمواضع محددة، بل باعتباره حركة دينامية تقوم على الانتقال والتفاعل، تتكشف لنا ظاهرة لافتة تتمثل في هجرة الشعراء بين المدن الأندلسية، وما ينتج عنها من تشكّل ثقافي جديد. ومن بين هذه المدن تبرز مدينة شنترين بوصفها مركزاً استقطب عدداً من الشعراء الوافدين، الذين حملوا معهم تجاربهم وخبراتهم وأساليبهم الفنية، ليعيدوا إنتاجها في سياق جديد.

إن هذا البحث يسعى إلى إعادة توظيف المادة الواردة في كتاب الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، من خلال تحويل زاوية النظر من "شعراء صقلية" إلى "الشعراء الوافدين إلى شنترين"، بوصفها مدينة أندلسية احتضنت هذا التنوع الثقافي. وبذلك لا يكون التغيير مجرد إحلال جغرافي، بل إعادة تأويل للظاهرة الأدبية بوصفها ظاهرة هجرة ثقافية.

ويهدف هذا الفصل إلى:

- الكشف عن دوافع هجرة الشعراء إلى شنترين
- وتحليل الأنساق الثقافية المضمرة في نصوصهم
- وبيان أثر البيئة الجديدة في تشكيل الخطاب الشعري

التمهيد: شنترين بوصفها فضاءً ثقافياً

أولاً: المدينة في الجغرافيا الثقافية للأندلس

سبق وان قلنا: تُعد مدينة شنترين واحدة من المدن الأندلسية التي اكتسبت أهمية استراتيجية وثقافية في غرب الأندلس، وقد تميزت بموقعها القريب من طرق التجارة والأنهار، مما جعلها نقطة التقاء بين الحواضر الكبرى. ولم تكن المدينة مجرد موقع جغرافي، بل كانت فضاءً حضارياً يتفاعل فيه الإنسان مع السلطة والعلم والأدب.

وقد أسهم هذا الموقع في جعلها: محطة استقرار للشعراء وملأداً للهاربين من الاضطرابات ومركزاً لإعادة إنتاج الثقافة. وقد أدى سقوط جزيرة صقلية بيد النورمان الى هجرة كبيرة من سكانها ولاسيما الشعراء والمتقنين منهم واتخذوا من مدينة شنترين ملاذاً لهم اعتقاداً منهم انها سنبقى صامدة فضلاً عن بعدها الجغرافي عن الحواضر الأندلسية العربية الإسلامية في جنوب الأندلس⁽¹⁾.

ثانياً: ظاهرة الهجرة الأدبية في الأندلس

لم تكن الهجرة في الأندلس ظاهرة طارئة، بل كانت جزءاً من البنية الثقافية للمجتمع، وقد اتخذت أشكالاً متعددة، منها:

1. الهجرة الطوعية: حيث كان الشاعر ينتقل طلباً للعطاء في بلاط الأمراء أو بحثاً عن بيئة أدبية أكثر ازدهاراً أو رغبة في إثبات الذات.
2. الهجرة القسرية: وقد فرضتها الحروب وسقوط المدن والصراعات بين ملوك الطوائف أو بسبب التحولات السياسية، وفي هذا السياق، برزت شنترين بوصفها مدينة استقبال ثقافي تستوعب هذه الهجرات.

(1) الإسلام والمسلمون في صقلية، حامد زيدان، في ظل الحكم النورماني، مجلة كلية الآداب، جامعة

القاهر، ج36 / ج37 مطبعة جامعة القاهرة 1981، 123.

أما دوافع هجرة الشعراء إلى شنترين:

- الدوافع السياسية

شهدت الأندلس، خاصة في عصر الطوائف، حالة من التمزق السياسي، حيث تنازعت المدن والدويلات السلطة، مما أدى إلى اضطراب الحياة العامة، وكان الشعراء من أكثر الفئات تأثرًا بذلك.

وقد دفعت هذه الظروف كثيرًا من الشعراء إلى مغادرة أوطانهم الأصلية بحثًا عن مدن أكثر استقرارًا أو الالتحاق ببلاطات جديدة⁽¹⁾، ومن هنا يمكن فهم انتقال عدد من الشعراء إلى شنترين بوصفه هجرة اضطرارية تحمل في طياتها شعور الفقد والحنين كما بينا.

ويظهر هذا بوضوح في النصوص التي تتكرر فيها ثيمات الشكوى والحنين إلى الوطن أو استدعاء الماضي، ومن الدوافع أيضًا ما كان اقتصاديًا إذ لم يكن الشعر في الأندلس منفصلًا عن الواقع المادي، بل كان في كثير من الأحيان وسيلة للارتزاق، مما جعل الشاعر مرتبطًا بالبلاط.

وقد سعى الشعراء إلى التقرب من الحكام نيل العطاء ضمان الاستقرار المعيشي وفي هذا الإطار، يمكن النظر إلى شنترين بوصفها مركزًا اقتصاديًا أدبيًا يوفر للشاعر فرصة العيش الكريم، وقد انعكس ذلك في كثرة المدائح التي توجه إلى الأمراء والقادة والشخصيات النافذة

وتبرز أيضًا الدوافع الثقافية إلى جانب السياسة والاقتصاد، إذ كان للثقافة أثر مهم في حركة الشعراء، إذ كان الشاعر يبحث عن: مجالس علمية بيئة أدبية خصبة تفاعل مع شعراء آخرين

وقد عُرفت شنترين باحتضانها:

1. مجالس أدبية مناظرات شعرية بيئة ثقافية متنوعة

2. مما جعلها جاذبة للشعراء الوافدين.

الشعراء الوافدون - قراءة في الأصول والانتماء

أولاً: تصنيف الشعراء (وافد / محلي)

اعتماداً على المادة الأصلية في الذخيرة لابن بسام، يمكن إعادة تصنيف الشعراء إلى:

1. شعراء محليون (مقيمون في شنترين)

2. شعراء وافدون من مدن أندلسية أخرى أو أقاليم مجاورة

وهذا التصنيف لا يقوم فقط على الجغرافيا، بل على الإحساس بالانتماء حضور ثيمة الغربة

الإشارة إلى موطن سابق

1- نموذج الشاعر الوافد:

من خلال إعادة قراءة التراجم، يمكن ملاحظة أن بعض الشعراء الذين نُسبوا إلى بيئات أخرى يمكن إعادة تأويلهم بوصفهم شعراء وافدين إلى شنترين، شاعر ذو أصل شامي، أبو الفتح أحمد بن علي الشامي فإن نسبته (الشامي) تشير إلى أصل غير أندلسي أو هجرة سابقة وبذلك يمكن اعتباره شاعراً وافداً حمل معه ثقافة مغايرة

- أثر الهجرة في تشكيل الهوية الشعرية

لم يكن انتقال الشاعر مجرد تغيير في المكان، بل كان: تحولاً في الهوية وإعادة تشكيل للخطاب الشعري وقد نتج عن ذلك: ومزج بين ثقافتين وتعدد في المرجعيات وظهور أنساق جديدة

يتبين من خلال هذا العرض أن مدينة شنترين لم تكن مجرد فضاء جغرافي، بل كانت مركزاً لاستقبال الشعراء الوافدين، الذين حملوا معهم تجاربهم المختلفة، وأسهموا في تشكيل مشهد شعري متنوع. وقد كانت دوافع هجرتهم متعددة، تراوحت بين القسر والاختيار، وبين السياسة والاقتصاد والثقافة⁽¹⁾.

(1) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي، تحقيق محمد حسن (القاهرة: دار الكتب،

المبحث الأول: البنية الحجاجية في شعر الشعراء الوافدين إلى مدينة شنترين

مقاربة تداولية ثقافية

إذا كان الشعر الأندلسي يُقرأ غالباً في إطار جمالي صرف، فإن إعادة النظر فيه من زاوية حجاجية تكشف عن طبقات عميقة من الخطاب، حيث يتحول النص الشعري إلى أداة إقناع، ومجال لتبرير المواقف، وبناء الشرعية، سواء كانت شرعية عاطفية أم اجتماعية أم سياسية. وتزداد أهمية هذا المنظور حين يتعلق الأمر بالشعراء الوافدين إلى شنترين، إذ يجد الشاعر نفسه في موقع يتطلب منه الدفاع عن ذاته، وتأكيد حضوره، وإقناع الآخر بقيمته داخل مجتمع جديد⁽¹⁾.

ومن هنا، فإن الخطاب الشعري لا يُفهم بوصفه تعبيراً وجدانياً فحسب، بل بوصفه فعلاً حجاجياً يسعى إلى التأثير في المتلقي، وتوجيه نظرتهم، وإعادة تشكيل موقع الشاعر في البنية الاجتماعية.

الحجاج العاطفي بوصفه أداة للإقناع

يُعدّ الحجاج العاطفي من أبرز الآليات التي يوظفها الشاعر الوافد، حيث يلجأ إلى إثارة مشاعر المتلقي، واستدراج تعاطفه، من خلال تصوير معاناته، وإبراز حجم الألم الذي يعانيه نتيجة الفراق أو الغربة.

ويتجلى ذلك في قول الشاعر الكاتب القاضي:

يا عذبة الريق عودي بعض مرضاك وعلليه برشفٍ من ثناياك

وسائليه متى عهد المنام به فقد نفى النوم عن عينيه عيناك¹

(1) تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين إحسان عباس، (بيروت: دار الثقافة، 1979)،

في هذا النص، لا يكتفي الشاعر بوصف حالته، بل يسعى إلى إقناع المحبوب (أو المتلقي) بضرورة الاستجابة له، عبر بناء خطاب قائم على الاستعطاف و التوسل.

تصوير المعاناة الجسدية (فقدان النوم)، وهذا اللون من الحجاج يعكس وضع الشاعر بوصفه: طرفاً ضعيفاً يسعى إلى استعادة التوازن من خلال التأثير العاطفي.

الحجاج القائم على المفارقة والتضاد

من الآليات الحجاجية البارزة أيضاً اعتماد الشاعر على بناء المفارقة، حيث يقيم تناقضاً بين صورتين، ليبرز من خلاله موقفه ويقنع المتلقي بصدقته.

ويتجلى ذلك في قول الشاعر⁽¹⁾:

جسمك من ماءٍ فما لي أرى قلبك جلموداً على الناس؟

يقوم هذا النص على مفارقة واضحة بين الليونة (الماء) والقساوة (الجلمود).

وهذه المفارقة لا تهدف إلى الزخرفة البلاغية، بل تؤدي وظيفة حجاجية، إذ: تكشف تناقض المحبوب وتدفع المتلقي إلى تبني موقف الشاعر، كما تعكس هذه البنية إحساس الشاعر بالخذلان ومحاولته تفسير هذا الخذلان منطقياً وقد يكون الحجاج بالتعالي وإعادة بناء الذات.

في سياق آخر، يلجأ الشاعر إلى بناء خطاب حجاجي يقوم على التعالي، حيث يعيد تشكيل صورته بوصفه كياناً متفوقاً، في محاولة لإقناع الآخر بقيمته، ويتجلى ذلك في قول تاج الدولة الصقلي⁽²⁾:

هيهات يؤلمني الزمان فاشتكي وهو الذي من سطوتي يتألم

وعزيمتي ما إن يُثلم غربها خطبُ على أن الحديد يُثلم

(1) ينظر: الحجاج في الشعر الاندلسي، عصر الطوائف، بشرى عطية، مجلة التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، ع(2) لعام 2016، ص213.

(2) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن قطاع الصقلي، 33.

في هذا النص، لا يدافع الشاعر عن نفسه بطريقة مباشرة، بل يعيد تعريف علاقته بالزمن ويضع نفسه في موقع الهيمنة فالوظيفة الحجاجية هنا إقناع المتلقي بأن الشاعر ليس ضعيفاً رغم معاناته وهذا يعكس صراعاً داخلياً ورغبة في تثبيت الهوية داخل مجتمع جديد وقد يكون الحجاج بالتشبيه الكوني وتوسيع الدلالة⁽¹⁾.

يعتمد بعض الشعراء على توسيع الصورة إلى مستوى كوني، بحيث تتحول التجربة الفردية إلى تجربة شاملة، وهو ما يمنح الخطاب قوة إقناعية أكبر.

والفينا أن هناك نوع من الحجاج بالسرد الضمني للتجربة ففي بعض النصوص، لا يلجأ الشاعر إلى الإقناع المباشر، بل يعتمد على سرد تجربة ضمنية، يترك من خلالها للمتلقي أن يستنتج الموقف⁽²⁾.

كما في قول الأمير جعفر بن الطيب الكلبى⁽³⁾:

ما الصبر بعد فراقكم من شاني رحل الغزاء برحلة الأظعان

يقدم الشاعر هنا مشهداً مختزلاً ودون شرح مباشر فالوظيفة الحجاجية هي دفع المتلقي إلى المشاركة في بناء المعنى وهذا النوع من الحجاج أكثر تأثيراً، لأنه يعتمد على إشراك المتلقي في العملية التأويلية.

أما البنية الحجاجية وسلطة المتلقي فإنها تكشف أن الشاعر الوافد لم يكن يكتب في فراغ، بل كان يضع في اعتباره: متلقيًا جديدًا وسلطة اجتماعية مختلفة⁽⁴⁾.

(1) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي، ص2.

(2) ينظر: الحجاج في الشعر الاندلسي، مصدر سابق، ص213.

(3) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي، ص2.

(4) ينظر: الروابط والعوامل الحجاجية وأثرها في النثر الاندلسي: مقارنة حجاجية، رسالة أي القاسم

الزرزورية، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، ع(11)، لسنة 2022، ص550.

ومن هنا، فإن الخطاب الشعري يتشكل في ضوء: محاولة كسب هذا المتلقي سواء كان: أميرًا ام محبوبًا ام جمهورًا عامًا وهذا ما يفسر تنوع الأساليب الحجاجية بين (التوسل والتعالي والمفارقة والتجميل).

يتضح من خلال مما تقدم أن الشعر عند الشعراء الوافدين إلى شنترين لم يكن مجرد تعبير وجداني، بل كان خطابًا حجاجيًا معقدًا، يسعى إلى إقناع المتلقي، وتثبيت موقع الشاعر داخل المجتمع الجديد. وقد تنوعت الآليات الحجاجية بين العاطفة، والمفارقة، والتعالي، والتشبيه الكوني، والسرد الضمني، مما يعكس وعيًا عميقًا بطبيعة الخطاب ووظيفته. ومن ثم، فإن دراسة هذا الشعر من منظور حجاجي تفتح آفاقًا جديدة لفهمه بوصفه ممارسة ثقافية فاعلة، لا مجرد إنتاج جمالي.

وارى من نافلة القول الإشارة إلأن صاحب الذخيرة أورد شعراء وفدوا إلى شنترين وبثوا من هناك لواعجهم في الغربة مثل :

فالشاعر ابن عمار الأندلسي في الفخر السياسي وخدمة السلطة⁽¹⁾

أنا والله أصلُ المجدِ من عَرَفَ اسمي ومن سعى في الغُلا لم يَعُدْ عن رَسمي

إن الملوكَ إذا ما استنجدوا وجدوا رأيي سديدًا وسيفي غيرَ منثلم

يمثل النص نموذج الشاعر الموظف سياسيًا، الذي يربط ذاته بخدمة الملوك، وهو قريب جدًا من نموذج الوافد الذي يكتسب مكانته عبر السلطة.

النص الثالث: ابن دراج القسطلبي (في الفخر الحربي) ⁽²⁾

سريتُ بهم حتى تفرَّقَ جمعُهُم وخَلَّفْتُ في أرجائِهِم كلَّ هالكِ

إذا ما التقينا كان أولُ ضربةٍ تُفرِّقُ بينَ الهامِ قبلَ المشارِكِ

(1) ديوانه، ص73

(2) ديوانه، ص210.

يعكس هذا النص طبيعة الشعر في بيئة الثغور حيث (الفخر = قتل العدو) (المجد = النصر العسكري) وهو ما يتقاطع مع وظيفة إمارة شنتمرية⁽¹⁾.

ذكرتُ صقليةً والدمعُ يسبقني إلى الفؤاد فيُبكيه ويُبكي

كانتُ منازلنا فيها وقد جُعلت نارُ الفراقِ بها في القلبِ تُضني

يعد هذا النص من أهم الشواهد لأنه يمثل شاعرًا وافيًا فعليًا يجمع بين الغربة الذاكرة والاندماج لاحقًا في الأندلس، وهو أقرب نموذج يمكن إسقاطه على وافي شنتمرية.

تكشف النصوص الواردة في الذخيرة عن أن الشاعر الوافد في عصر الطوائف لم يكن كائنًا هامشيًا، بل عنصرًا فاعلاً في تشكيل الخطاب السياسي والثقافي للإمارات. فهو يبدأ غريبًا مثقلًا بالحنين، كما عند ابن حمديس، ثم لا يلبث أن يندمج في بنية السلطة، متحوّلًا إلى لسانها، كما عند ابن عمار، أو مشاركًا في تمثيل قوتها العسكرية، كما في نماذج الفخر الحربي. ومن ثم فإن الغرض الشعري الأبرز لا ينفصل عن هذا التحول، إذ يتشكّل من ثلاث مراحل: الغربة، فالاندماج، فالتماهي مع السلطة، وهي بنية يمكن تطبيقها على شعراء شنتمرية الوافدين في ظل بني رزين⁽²⁾.

تحولات الخطاب الشعري عند الشعراء الوافدين إلى مدينة شنترين

دراسة في البنية النفسية والجمالية:

إذا كانت ظاهرة انتقال الشعراء إلى مدينة شنترين تمثل تحوّلًا مكانيًا في الظاهر، فإنها في جوهرها تمثل تحوّلًا عميقًا في البنية النفسية والإبداعية للشاعر. ذلك أن الشاعر الوافد لا ينقل تجربته كما هي، بل يعيد تشكيلها في ضوء معطيات البيئة الجديدة، مما يؤدي إلى ظهور خطاب شعري يتسم بالتوتر، والازدواج، والتداخل بين الماضي والحاضر. ومن هنا، فإن النص

(1) ديوانه : ص 228.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عباس، ج 1، ص 370-

الشعري يغدو وثيقة نفسية وثقافية تكشف عن تجربة الاغتراب بوصفها تجربة مركبة، تتداخل فيها مشاعر الفقد مع محاولات التكيف⁽¹⁾، على نحو ما سنرى في الصفحات اللاحقة.

المبحث الثاني: الأغراض الشعرية عند الشعراء الوافدين إلى شنترين دراسة في الأنساق الثقافية المضمرة

إذا كانت هجرة الشعراء إلى شنترين تمثل ظاهرة اجتماعية وثقافية، فإن انعكاسها الأعمق يتجلى في تحولات الخطاب الشعري، ولا سيما في الأغراض التي تناولها الشعراء. إذ لم تعد هذه الأغراض مجرد أنماط موروثية، بل تحولت إلى خطابات محمّلة بتجربة الاغتراب والانتقال.

ومن هنا، فإن دراسة الأغراض الشعرية عند الشعراء الوافدين لا تنفصل عن السياق النفسي للهجرة التحولات الاجتماعية، تفاعل الذات مع المكان الجديد.

المطلب الأول: الغزل بوصفه خطاب اغتراب

1. الغزل وتحول الوظيفة

لم يعد الغزل عند الشعراء الوافدين مجرد تعبير عن الحب، بل أصبح: وسيلة للتعبير عن الفقد و الحنين، فالشاعر لا يخاطب المرأة وحدها، بل يخاطب الوطن من خلالها فضلا عن ماضيه المفقود وذاته.

2. الغزل بوصفه شكوى وجودية

يقول القاضي أبو إسحاق المعافري⁽²⁾:

كتبْتُ لما فنى دمعي ومصطبري إليك أشكو صباباتي وأسقامي

ما زال تبكي لما تمليه من حرقى عليك مقلة قرطاسي وأقلامي

(1) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي، ص 88.

(2) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي، ص 88.

يتجاوز النص كونه غزلاً تقليدياً ليصبح خطاب شكوى أو تعبيراً عن احتراق داخلي.

النسق المضممر بوصف الكتابة بديلاً عن الجسد فالشاعر لم يعد يملك حضوراً مباشراً، فيعوض ذلك بالنص، وهذا يتناسب مع حالة الشاعر الوافد الذي فقد موضعه الأول.

3. الغزل وتحول الصورة الكونية

يقول أحد الشعراء الذين وفدوا المدينة وربما هو المعافري نفسه كما ذهب صاحب الذخيرة :

أرى بدرين قد طلعا على غصنين في نسق

فهذا البدر في غسق وهذا الشمس في شفق

فالصورة هنا تتقل الجمال من الجزئي إلى الكوني أما النسق المضممر فهو تعويض النقص الواقعي عبر تضخيم الصورة وهو ما يعكس رغبة الشاعر في خلق عالم بديل يعوّض فيه فقدان الاستقرار، وقد يكون الغزل بوصفه تجربة الفقد.

يقول أحد الشعراء: ما كنت أحسب للمنية ثانياً فإذا الفراق هو الحمام الثاني⁽¹⁾

فيتحول الفراق هنا إلى معادل للموت أم النسق المضممر (الفقد = الفناء)، (الغربة = موت معنوي) ، وهذا يعكس بوضوح: تجربة الشاعر الوافد الذي يعيش موتاً رمزياً خارج موطنه، وقد يكون شكل الغزل بين السلطة والهوية ففي بعض النصوص، يظهر الغزل مرتبطاً بالسلطة⁽²⁾:

هيهات يؤلمني الزمان فاشتكي وهو الذي من سطوتي يتألم

فهذا ليس غزلاً عاطفياً خالصاً، بل غزل مشوب بروح الفروسية والسلطة، فيغدو النسق المضممر فالشاعر يحاول الحفاظ على صورته رغم فقدانه لمكانه الأصلي، أي يعيد بناء ذاته داخل المجتمع الجديد، وغالباً ما تساوت الغزل والطبيعة في شنترين.

(1) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي: ص 1.

(2) المصدر نفسه: ص 1.

الطبيعة هنا ليست مجرد زخرفة، بل انعكاسا للبيئة الجديدة ام نسقها المضمّر محاولة الاندماج في المكان وإعادة تشكيل الجمال وفق البيئة الجديدة وهذا يدل على تفاعل الشاعر الوافد مع طبيعة شنترين، الأنساق الثقافية في شعر الوافدين.

المطلب الثاني: الوافدون إلى مدينة شنترين الأندلسية

1) الدراسات النقدية وأثرها في فهم الشعر

لم تعد الدراسات النقدية الحديثة تقف عند حدود الوصف البلاغي ولا تكتفي بتحليل الصور والاستعارات والبنى اللغوية الظاهرة فقط بل تجاوزت ذلك إلى استنطاق البنية العميقة للنصوص الشعرية والكشف عن الأنساق الثقافية التي تتحرك خلف اللغة والتعبير إذ صار النص الشعري يُقرأ بوصفه خطاباً ثقافياً معقداً ومركباً تتداخل فيه الذات الفردية مع المرجعيات الاجتماعية والتاريخية ومن هنا برز مفهوم النسق المضمّر بوصفه أداة تحليلية فعالة تكشف ما يخفيه النص أكثر مما يعلنه في مستواه السطحي (فالقصيد لم تعد مجرد تعبير وجداني مباشر عن الحبل غدت نظاماً دلاليّاً يحيل إلى شبكة من القيم والمعاني تتصل بالسلطة والمجتمع والهوية والتمثيلات الجمالية والثقافية وهذا التحول النقدي أسهم في إعادة قراءة الشعر الأندلسي بعيداً عن الأحكام التقليدية التي حصرت الغزل في العاطفة إذ أصبح الغزل فضاءً لإنتاج المعنى الثقافي المركب والمتعدد وتجلّى ذلك في شعر الوافدين إلى المدن الأندلسية الجديدة ومنها مدينة شنترين (1).

التي شكلت فضاءً لتحول التجربة الشعرية حيث لم يعد الغزل مجرد حنين أو شوق فردي بسيط بل أصبح خطاباً يعكس صراع الذات مع المكان الجديد ويكشف عن توتر العلاقة بين الذاكرة والواقع والتحول وعليه فإن دراستنا هذه تنطلق من رؤية نقدية حديثة تجمع بين التحليل الفني

(1) المشهد الثقافي الأندلسي، رعد ناصر الوائلي، مطبعة الرفاه، بغداد، ط1، 202، ص86.

والقراءة الثقافية للنصوص الشعرية مستندة إلى مفهوم النسق المضمّر في قراءة شعر الغزل بما يتيح الكشف عن الأبعاد الخفية التي لا يصرح بها النص.

يفد الشعراء من الأندلس إلى مدينة شنترين حاملين تجاربهم الشعرية، وقد مثّلت هذه المدينة فضاءً جديداً لتجديد القول الشعري وتحوّله وفي هذا السياق، نستحضر نموذجاً من شعر الشاعر ابن حمديس، الذي يُفترض في هذا المبحث أنه حلّ بمدينة شنترين بعد اغترابه، فأنشد من شعره ما يعكس الحنين والتجربة الوجدانية العميقة (1).

ومن ذلك قوله (2):

يا ليل طال سراك والوجد لا ينطفي والقلب بين لظى الشوق لم يكتفِ
أخفي الأسى وأرى دمعي يبوح به كأنه في الحشا ناراً بلا طرفِ

إنّ هذا النص، في سياق وفود الشاعر إلى شنترين، يكشف عن انتقال التجربة من فضاء صقلي إلى أندلسي جديد، حيث تتخذ معاني الاغتراب بعداً مزدوجاً: اغتراب المكان والذاكرة (3). ومن الشعراء الذين يُفترض وفودهم إلى شنترين كذلك القاضي أبو إسحاق إبراهيم المعافري، الذي جمع بين الفقه والشعر، فكان شعره تعبيراً عن ذاتٍ مثقفةٍ تحاول أن توازن بين العقل والعاطفة في بيئة جديدة. يقول (4):

كتبْتُ لما فنى دمعي و مصطبري إليك أشكو صباباتي وأسقامي
ما زال تبكي لما تمليه من حرقى عليك مقلّة قرطاسي وأقلامي

(1) ينظر: ابن حمديس حياته وشعره سعد اسماعيل شلبي، مكتبة غريب، ط1، 1978، ص210.

(2) المصدر نفسه : ص93.

(3) ابن القطاع الصقلي، الدرّة الخطيرة في شعراء الجزيرة، تحقيق محمد حسن، ص 45.

(4) نفسه، ص95.

يتجلى في هذا النص، بعد نقله إلى فضاء شنترين، أن الكتابة تتحول إلى بديل وجودي عن الحضور، فكأن الشاعر، بعد وفوده، لم يجد إلا النص وطناً.⁽¹⁾

ويبرز ضمن الوافدين إلى شنترين الأمير تاج الدولة، الذي تمثل أشعاره نموذجاً لذائقة البلاط، وقد انعكست تجربته الجديدة في تصوير الجمال بصورة كونية.
يقول:

أرى بدرين قد طلعا على غصنين في نسق

لدى ثوبين قد صبغا صباغ الخد والحدق

فهذا البدر في غسق وهذا الشمس في شفق

إنّ نقل هذا النص إلى سياق شنترين، يجعل من المدينة فضاءً لتجلي الرؤية السلطانية للجمال، حيث يتحول المحسوس إلى كوني، والجزئي إلى مطلق⁽²⁾.

ومن الشعراء الذين يمكن عدّهم ضمن الوافدين إلى شنترين الأمير أبو أحمد جعفر الكلي، الذي عبّر عن تجربة الفقد بوصفها معادلاً وجودياً للموت.

يقول:

ما الصبر بعد فراقكم من شاني رحل الغزاء برحلة الأظعان

ما كنت أحسب للمنية ثانياً فإذا الفراق هو الحمام الثاني

في هذا السياق، تصبح شنترين محطةً لإعادة إنتاج الحزن، لا تجاوزه، وكأنّ الفراق ينتقل مع الشاعر أينما حلّ⁽³⁾.

(1) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي، ت: محمد حسن، ص 88.

(2) ينظر: شعراء صقلية، رعد ناصر مايود، دار العراق، بغداد، 2026، ص 23.

(3) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي، ص 2.

ومن النماذج اللافتة كذلك، شعر أبي عبد الله اللخمي، الذي يمزج بين الغزل والوظيفة البلاغية التمهيدية للمديح، وقد يُفترض أنه أنشد ذلك بعد قدومه إلى شنترين.
يقول:

يا عذبة الريقِ عودي بعضَ مرضاكِ وعلّيه برشفٍ من ثناياكِ
وسائليه متى عهدُ المنامِ بهِ فقد نفى النومُ عن عينيه عيناكِ

إن هذا الغزل، في سياق شنترين، لا يُقرأ بوصفه تعبيراً وجدانياً خالصاً، بل بوصفه أداة فنية تستعيد تقاليد القصيدة العربية⁽¹⁾.

ومن الشعراء الذين يُفترض انتقالهم إلى شنترين الشاعر ابن الخالة، الذي لم يكن الشعر عنده وسيلة تكسب، بل تجربة ذاتية عميقة.
يقول⁽²⁾:

صددتُ بوجهي عن حبيبي تستراً وأبديتُ نكراً في الهوى وتغيرا
وفي كبدي من لاعج الشوق جمرةً غدا لفحها بين الجوانح مضمرا

إنّ هذا النص، في سياق الوفود، يكشف عن صراع داخلي بين الإفصاح والكتمان، وهو صراع يتجدد في كل انتقال مكاني⁽³⁾.

ومن الشعراء الوافدين كذلك ابن الطوبي، الذي تتجلى في شعره الأنساق الجمالية المرتبطة بالطبيعة، يقول⁽⁴⁾:

أماطت قناع الحسن عن وجهها الغضّ فلاح سناً أبهى من البدر إذ يفضي

(1) الدرّة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي، ص 156 .

(2) المقتطف من أزهار الطرف، ابن سعيد المغربي، ص 214

(3) المصدر نفسه، ص 215.

(4) النخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج 3، ص 412.

وراحت الأنفاس مسكًا يفوح من ثنايا كعود ضُمَّ في درة فضي

إنَّ هذا النص، بعد نقله إلى شنترين، يجعل من الطبيعة وسيطاً بين الجسد والروح، في تجربة شعرية تتجاوز المكان الأصلي⁽¹⁾.

ومن النماذج التي تعبّر عن الغزل العتابي قول أحد الوافدين:

يا قاسي القلب ألا رحمةً تنالني من قلبك القاسي

جسمك من ماءٍ فما لي أرى قلبك جلموداً على الناس

إن هذا الخطاب، في سياق شنترين، يكشف عن توتر العلاقة بين العاشق والمحبيب، وهو توتر يتخذ بعداً اجتماعياً جديداً في البيئة الأندلسية.

ومن الشعراء الذين يُتصوّر انتقالهم إلى شنترين أبو الفتح أحمد بن علي الشامي، وهو ممن تدل نسبتهم على وفودٍ من المشرق أو الأندلس، وقد حمل معه أساليب البلاغة التقليدية إلى البيئة الجديدة، يقول⁽²⁾:

هيهات يصفو العيش والقلب مكتئبٌ والدهر يرمي الفتى بالهم والنصب

أبكي على زمنٍ ولّى ولم يعدِ كأنه في المدى طيفٌ من السحب

إن هذا النص، بعد إسقاطه على فضاء شنترين، عكس تحوّل الحنين من مكانٍ محدد إلى حالةٍ وجودية عامة، تجعل المدينة الجديدة امتداداً للذاكرة لا بديلاً عنها.

ويُعدّ أبو الفضل أحمد بن علي الفهري من الأسماء التي يُحتمل وفودها إلى شنترين، وقد تميّز شعره بمزج الوصف بالغزل، في إطارٍ يعكس بيئة حضرية مترفة، يقول⁽³⁾:

سقاني الهوى كأساً من السحر والفتنِ فأصبحتُ لا أدري أفي صحوٍ أم وسنِ

(1) المصدر نفسه، ج3، ص512.

(2) المقتطف من أزاهر الطرف، ابن سعيد المغربي، ص 219.

(3) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي، ص 167.

إذا ما بدا وجهه لاح بدر في الدجى كأن الضياء به يحيي عيون الزمن

إن هذا التصوير، في سياق شنترين، يؤكد استمرار الذائقة الجمالية الأندلسية، حيث يبقى التشبيه الكوني أحد أبرز أدوات التعبير⁽¹⁾.

ومن الوافدين الذين يُبرزون النزعة التأملية والتفكير العميق أبو علي أحمد بن محمد بن القاف، الذي يتخذ من العزلة وسيلة للتعبير عن الخيبة التي أصابته يقول⁽²⁾:

ولمّا رأيتُ الناس لا خيرَ عندهم صددتُ وبيت الله عن صحبة الناس

وصرتُ جليسَ الفكرِ مادمت فيهم وأعملت حسن الصبر فيه مع الياس

وفي سياق شنترين، يتحوّل هذا التفكير والتصبر إلى خطاب جماعي، يعكس شعور الوافدين بفقد الجماعة الأولى الذين ينسجمون مع فكرهم وتوجهاتهم.

ومن الشعراء الذين امتزج فيهم الفقه بالشعر أبو العباس أحمد بن محمد اللخمي، الذي يمثل نموذج المثقف الوافد إلى شنترين، يقول⁽³⁾:

فلا أنتم للعهد ترعون حقه ولا السلم يرجى آخر الدهر منكم

فإن تقطعوا حبلي فإني واصل وإن تنقضوا عهدي فإني مبرم

يُظهر الشاعر التناقض بين سلوك وفائه وسلوك غدرهم. فهو يعلم أنهم أهل غدر ولا أمان لهم، لكنه يرفض أن ينزل إلى مستواهم الأخلاقي، فيؤكد أنه سيظل متمسكاً بالوصل والعهد حتى لو قطعوا هم كل حبال القرب ونقضوا كل المواثيق إن هذا النص، في سياق المدينة الأندلسية، يعبر عن حضور الأزمات الاجتماعية والاختلاف بين طبقات المجتمع الذي يخضع للنزعات النفسية.

(1) ابن زول الاندلس، دراسة جمالية، احمد _____، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة واسط،

2025، ص 23.

(2) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي، ص 1.

(3) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي، ص 181.

ومن النماذج التي تعبّر عن وصف الطبيعة شاعرٌ وافدٌ لم يُثبت اسمه بدقة، غير أن نصّه يعكس أثر البيئة الجديدة في تشكيل الصورة.

يقول⁽¹⁾:

تسقينني الكروم على ثَمالٍ من الندى فيغدو المساء ربيعَ قلبي وناظري

وأبصرُ في الأنهار سرَّ الحياة إذا جرت كأنّها في المدى روحٌ تسافرُ في الدهرِ

إن هذا الوصف، في شنترين، يؤكد انتقال الشاعر من ذاكرة البحر إلى ذاكرة البساتين، وهو تحول دلالي مهم في شعر الوافدين⁽²⁾.

ومن الشعراء الذين عبّروا عن صراع الذات الشاعر محمد بن محمد إسحاق وهو أحد الوافدين من بيئة علمية ، وقد اتخذ من الحكمة إطاراً للتعبير الشعري، يقول⁽³⁾:

ومن شعر الغزل الوافد إلى شنترين نصٌّ يعكس تداخل الحسي بالروحي:

أحبك حب الماء في أرض قفرة بهاجرة ظمآن ظل مُهجرا

وإني كمن قد غالب الشوق صبره وأورثه الأشجان أن يتصبّرا

إن هذا التشبيه، في سياق المدينة، يجعل من المحبوب شرطاً للوجود، وهو امتداد للنسق الرمزي في الغزل الأندلسي⁽⁴⁾، ومن الشعراء الذين عبّروا عن الفخر الذات يأحد الوافدين من طبقة الأمراء:

هيهات يؤلمني الزمان فأشتكي وهو الذي من سطوتي يتألم

(1) المصدر نفسه، ص 190.

(2) الأدب العربي في صقلية الإسلامية، علي أبو زيد، ص 88.

(3) المحمدون من الشعراء، جمال الدين الققطي، ت: حسن معمري، دار اليمامة، 1970، 88

(4) المقتطف من أزهار الطرف، ابن سعيد المغربي، ص 214.

في السياق نفسه ونحن نتتبع شعراء مدينة شنترين، يتحوّل هذا الفخر إلى إعلان حضور، يثبت به الوافد مكانته في المجتمع، ومن الشعراء الذين عبّروا عن التجربة الوجدانية في إطار اجتماعي الشاعر ابن عبدون الفهري⁽¹⁾:

وكم عذل العذال في حبكم ولم أجد للعذل في قلبي المستهام موضعا

ولو أبصروا ما في الحشا من لوعة لصاروا في حكم الهوى لي أتبعوا

في شنترين، يتحوّل العذل إلى خطاب اجتماعي، يعكس رقابة الجماعة على العاطفة الفردية. ومن النصوص التي تعبّر عن الجمال المتعالي:

سبحان من صاغك دون الوري بدرأ على غصن من الآس

إن هذا النص، في سياق شنترين، يعكس نزعة تقديس الجمال، التي تتجاوز حدود الحس إلى المطلق⁽²⁾،

ومن الشعراء الذين جمعوا بين الحنين والوصف ابن بسّام :

ألا بادر فلا ثانٍ سوى ما عهدت الكأس والبدر التمام

ولا تكسل برؤيته ضباباً تفص به الحديقة والمدام

الأبيات تحمل حكمة تدعو إلى الإيجابية والمبادرة وعدم الاستسلام للعقبات الصغيرة (التي رمز لها بالضباب)، لأن خلفها جمالاً ينتظر من يسعى إليه. وهكذا تحول الشعر الحنين في شنترين، إلى بناء شعري رصين،⁽³⁾ وكذلك قول هارون الكندي⁽⁴⁾:

أحمامة فوق الأراكة تنثني بحياة من أبكاك ما أبكاك

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 2 - 258 .

(2) ديوان ابن الطوبي، ص 88.

(3) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرئ، ج 3 - 20.

(4) الجزيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 5 - 347.

أما أنا فبكيت من حرق الهوى وفراق من أهوى، أنت كذاك
وقال أيضا (1) :

تكلّني أن أعتب الدهر أنها لجاهلة من لي بأعتاب محنق
وقالت: تضرّ الدهر يجمع بيننا فقلت لها : من لي بظنّ مُحَقِّف
ولكنني فيما زجرتُ بمقلةٍ زجرتُ اجتماع الشمل بعد التفرق
فقد كانت الأشفار في مثل بعدنا فلما التقت بالطيف قالت سنلتقي
أباكيةً يوماً ولم يأت وقتهُ سينقذ قبل اليوم دمك فارفقي

يتبين من خلال هذه النصوص أن الشعراء الوافدين إلى شنترين لم يكونوا مجرد ناقلين لتجاربهـم السابقة، بل أعادوا تشكيلها في ضوء البيئة الجديدة.

فقد تحوّل الغزل إلى خطابٍ ثقافي، والرتاء إلى تعبيرٍ عن فقد الجماعة، والوصف إلى مرآة للبيئة الأندلسية، والحكمة إلى محاولة لفهم التحولات.

وبذلك، فإن شعر الوافدين إلى شنترين يمثل مرحلةً انتقالية في الأدب الأندلسي، تتداخل فيها الذاكرة مع الحاضر، وتتشكل فيها هوية شعرية جديدة.

(1) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرئ، ج4 - 408.

المطلب الثالث: الدراسة النقدية، النسق المضمّر في شعر الغزل وسواه من الأغراض الأخرى:

1) نسق الاغتراب في الغزل

يتضح من خلال هذه القراءة أن الغزل في شعر الوافدين لا يمكن فهمه ضمن إطاره العاطفي التقليدي فقط بل ينبغي النظر إليه بوصفه خطاباً ثقافياً مركباً تتداخل فيه الأنساق المضمرة المرتبطة بالاغتراب والهوية والسلطة والجمال والصراع الاجتماعي والتحول الحضاري وبذلك فإن شعر شنترين يمثل مرحلة انتقالية مهمة في تطور الشعر الأندلسي من التعبير الفردي البسيط إلى الخطاب الثقافي العميق متعدد الدلالات.

نموذج من شعر ابن حمديس (1):

لم يدر ما ألقى من الحب لا حِلي العين والقلب

شوقي وكربي ما درى بهما فإليه يا شوقي ولا كرب

ويقصد في هذين البيتين أن الإنسان الذي يخلو قلبه من الحب (الأحي) لا يمكنه أبداً أن يفهم حجم المعاناة والعذاب الذي يعيشه الشخص المحب.

وقال أيضاً:

فارتكم وفراقكم صعب لا الجسم يحمله و لا القلب

قُتل البعاد فما أشير به حتى نمزق بيننا القرب

ومعنى البيتين أن مرارة الفراق وألم البعد والفراق ثقيلٌ لدرجة تعجز طاقة الإنسان عن احتمالها، فلا جسده يقوى على تحمله من شدة الضعف واللوعة، وإنه لم يترك وسيلة لمعالجة هذا البعد أو تقريب الوصال ، حتى انتهى الأمر بتمزق وانقطاع رابطة القرب واللقاء التي كانت تجمعهم.

(1) ديوان ابن حمديس، ت : احسان عباس، دار صادر بيروت، ص 8 - 26.

2) نحو قراءة نسقية لشعر الغزل

لم يعد النقد الأدبي الحديث يقف عند حدود التحليل البلاغي الذي يكتفي باستنطاق الصور والاستعارات والتراكيب اللغوية بل اتجه نحو الكشف عن البنى الثقافية العميقة الكامنة التي تشكل النص وتوجّه دلالاته في مستويات غير معلنة ومن هنا برزت أهمية القراءة النسقية بوصفها أداة تحليل تسعى إلى تفكيك العلاقة بين الظاهر النصي والمضمّر الثقافي حيث يغدو النص الشعري فضاءً لتقاطع الخطابات والمرجعيات ولا سيما في شعر الغزل الذي طالما عُدّ خطاباً وجدانياً صرفاً، غير أن الدراسات الحديثة أثبتت أن هذا التصور قاصر إذ إن الغزل يحمل في طياته أنساقاً مضمرة متعددة الأبعاد تتصل بالسلطة والهوية والتمثلات الجمالية والاجتماعية، وبذلك يتحول من مجرد تعبير عن الحب إلى خطاب ثقافي يعكس بنية المجتمع وتحولاته العميقة في لحظات التغير⁽¹⁾.

وقد أسهمت المناهج النقدية الحديثة، ولا سيما النقد الثقافي في إعادة قراءة النصوص الشعرية بوصفها حوامل للنسق حيث لم يعد النص معزولاً عن سياقه الحضاري والتاريخي بل أصبح جزءاً من منظومة ثقافية تتفاعل مع السلطة ومع البنية الاجتماعية والاقتصادية والرمزية في آن واحد⁽²⁾.

وفي هذا الإطار، تكتسب دراسة شعر الوافدين إلى شنترين أهمية خاصة، إذ تمثل هذه المدينة فضاءً لتحول التجربة وانتقالها من سياق إلى آخر، بما يفرض إعادة تشكيل المعنى حيث تتداخل الذاكرة بالمكان الجديد في إنتاج النص الشعري ومن هنا فإن الغزل في هذا الشعر لا يُقرأ بوصفه غزلاً تقليدياً بل بوصفه خطاباً يعكس أزمة الذات في مواجهة التحول⁽³⁾.

(1) النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغدامي، ص 45

(2) مدخل إلى النقد الثقافي، عبد الله الغدامي، ص 72

(3) تحولات الخطاب الشعري، صلاح فضل، ص 118

3) نسق الكتابة بوصفها بديلاً عن الحضور

في نص القاضي المعافري يتخذ الغزل بعداً مختلفاً تماماً إذ تتحول الكتابة إلى وسيلة تعويض عن غياب المحبوب ، غير أن النسق المضمّر يشير إلى غياب أعمق من ذلك وهو غياب الذات عن موطنها الأصلي ومحيطها الثقافي فالقرطاس والأقلام لا يمثلان مجرد أدوات تعبير عادية بل يصبحان وطناً رمزياً يعيد الشاعر بناء ذاته داخله وبذلك فإن الغزل هنا يتجاوز البعد الوجداني المباشر ليصبح خطاباً عن العزلة والبحث عن هوية بديلة في فضاء ثقافي جديد يفرض شروطه على الشاعر⁽¹⁾.

كتبتُ لما فنى دمعي ومصطبري إليك أشكو صباباتي وأسقامي

ما زال تبكي لما تمليه من حرقى عليك مقلة قرطاسي وأقلامي

يقول الشاعر إنه لجأ إلى الكتابة والشكوى بالرسائل لمحبيه بعد أن نفذ صبره وجفت دموعه من كثرة البكاء ، لعلّه يبيته أشواقه وأوجاعه ، ويضيف مبالغاً في وصف حرقه أشعاره: إن أوراق قرطاسه وأقلامه لتكاد تبكي هي الأخرى من شدة ما تمليه عليها من حرارة لوعته ووجده.

4) نسق التجميل السلطاني في الغزل

في شعر تاج الدولة يبدو الغزل أقرب إلى الوصف الجمالي غير أن النسق المضمّر يكشف عن رؤية سلطانية للعالم حيث يتحول الجمال إلى صورة كونية تتجاوز الفردية ويصبح المحبوب تمثيلاً للانسجام الكوني والسلطة الرمزية فالبدر والشمس ليسا مجرد تشبيهات بل أدوات تمثيل تعكس ذائقة البلاط ورؤيته للعالم من موقع الهيمنة، وهكذا يتحول الغزل إلى خطاب يعكس سلطة الذوق الرسمي ويعيد إنتاج القيم الجمالية المرتبطة بالبنية السلطانية⁽²⁾.

أرى بدرين قد طلعا على غصنين في نسق

(1) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي، ص 88 .

(2) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن دراج القسطل، ص 112

فهذا البدر في غسق وهذا الشمس في شفق

البيتان يمتلآن صورة جمالية تجمع بين بياض الوجوه (البدر والشمس)، ورشاقة الأجسام (الغصنين)، والتباين البديع في الألوان بين السواد والظلمة (الغسق) والحمرة والإضاءة (الشفق)، والبيتان يمتلآن قمة الغزل الوصفي، إذ وظّف عناصر السماء (البدر، الشمس، الغسق، الشفق) وعناصر الأرض (الأغصان) ليخلق لوحة جمالية تبرز حسن وجمال من يصفهم.

5) نسق الكتمان والصراع الداخلي

في نص ابن الخالة يتجلى الغزل بوصفه صراعاً نفسياً داخلياً بين الرغبة في الإفصاح والخوف من الانكشاف الاجتماعي فالظاهر هو صدود وتغير في سلوك العاشق لكن النسق المضمّر يكشف عن احتراق داخلي عميق يتمثل في صورة الجمرة الكامنة داخل الجوانح وهذا يعكس بنية ثقافية تضغط على التعبير العاطفي وتفرض على الذات أن تعيش ازدواجية بين الداخل والخارج وبذلك يصبح الغزل خطاباً عن القمع الاجتماعي للعاطفة وليس مجرد تعبير بريء عن الحب والهيّام⁽¹⁾.

صددتُ بوجهي عن حبيبي تستراً وأبديتُ نكراً في الهوى وتغيراً

وفي كبدي من لاعج الشوق جمرةً غداً لفحها بين الجوانح مضمرًا

يدل البيتان على معاناة المحب الذي يجبره الخوف أو الظروف على إخفاء حبه العامر خلف قناع من الجفا والصدود، بينما يشتعل قلبه من الداخل بنيران الشوق الحارقة.

6) نسق الجسد والطبيعة

في شعر ابن الطوبى يتداخل وصف الجمال مع الطبيعة غير أن النسق المضمّر يكشف عن بعد رمزي عميق حيث تصبح الطبيعة وسيطاً لتجريد الجسد من ماديته وتحويله إلى كيان روحي متجاوز للحدود الحسية وهذا يعكس نزعة أندلسية تميل إلى تذويب

(1) المقتطف من أزهار الطرف، ابن سعيد المغربي، ص 214

الفروق بين الإنسان والطبيعة في إطار جمالي موحد وبذلك فإن الغزل هنا لا يصف الجسد فقط بل يعيد تشكيله ضمن رؤية كونية شاملة⁽¹⁾.

أماطت قناع الحسن عن وجهها الغضّ فلاح سنّاً أبهى من البدر إذ يفضي

وراحت الأنفاس مسكاً يفوح من ثنايا كعودٍ ضُمّ في درّة فضي

يصف الشاعر طيب رائحة المحبوبة، فيقول إنّ أنفاسها المتتابعة تحولت إلى رائحة مسكٍ تفوح من بين أسنانها وثغرها العذب، ويُشبهه فمها في طيبه وجماله بعود بخورٍ فاخرٍ ثمينٍ وضع داخل لؤلؤة بيضاء نقية كالفضة.

7) نسق التوتر الاجتماعي في الغزل العتابي

في نص الغزل العتابي يظهر الخطاب موجّهاً للمحبيب غير أن النسق المضمّر يكشف عن توتر اجتماعي أوسع حيث يصبح العاشق في مواجهة قيم الجماعة وضغوطها ويتحول المحبوب إلى رمز للسلطة العاطفية القاسية وبذلك فإن الغزل يعكس صراعاً بين الفرد والمجتمع في بيئة جديدة تتشكل فيها علاقات اجتماعية مختلفة⁽²⁾، كما في قول الرمادي⁽³⁾:

بحثٌ بحبي ولو غرامي يكون في صخرة لباحا

ضيعتم الرشد من محبٍ ليس يرى في الهوى جناحا

لم يستطع حمل ما يلاقي فشقّ أثوابه وصاحا

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج3، ص 412

(2) المقتطف من أزهار الطرف، ابن سعيد المغربي، ص 219.

(3) ديوانه: ص 60.

ويجسد هذا المعنى ابن خفاجة أيضاً في قوله (1):

وَإِنْ سَقَمِي لَمِنْ طَرْفٍ بِهِ سَقَمٌ خُلُوٍ مِنَ الْكُحْلِ مَمْلُوءٍ مِنَ الْكَحْلِ
أَشْكُو الظَّمَاءَ وَرَيْيَ فِي حَصَى بَرْدٍ لَوْ بَلَّ مِنْ غُلِّي أَبْلَثُ مِنْ عَلِّي
فَمَنْ لَصَبَّ يَبِيتُ اللَّيْلَ يَسْهَرُهُ مُقَلَّبَ الْقَلْبِ بَيْنَ الْيَأْسِ وَالْأَمَلِ

8) نسق تقديس الجمال

في بعض النصوص يتحول المحبوب إلى كيان شبه مقدس حيث تتجاوز أوصافه حدود الواقع إلى المطلق واللا محدود والنسق المضمّر هنا يعكس نزعة ثقافية نحو تأليه الجمال وجعله قيمة عليا تتجاوز الإنسان والطبيعة معاً وهذا يعكس تأثيرات فلسفية وجمالية عميقة في تشكيل الذائقة الأندلسية في بيئة حضرية مترفة كما في (2) :

يَا ضَارِباً يَوْسُفًا فِي حُسْنِهِ مَثَلًا جَلَّ ابْنُ أَفْعَلٍ عَنْ مِثْلٍ وَعَنْ مِثْلٍ

يخاطب الشاعر من يضرب المثل بالنبي يوسف عليه السلام في الجمال، ليقول إن محبوبي (الذي يمدحه بصيغة التفضيل "ابن أفعل" أي الأجل والأبهى) قد تجاوز وتنزه (جلّ) عن أن يُشبه بأحد، أو أن يُضرب له شبيهاً ومثلاً.

يتضح من خلال هذه القراءة أن الغزل في شعر الوافدين لا يمكن فهمه ضمن إطاره العاطفي التقليدي فقط بل ينبغي النظر إليه بوصفه خطاباً ثقافياً مركباً تتداخل فيه الأنساق المضمرة المرتبطة بالاغتراب والهوية والسلطة والجمال والصراع الاجتماعي والتحول الحضاري وبذلك فإن شعر شنترين يمثل مرحلة انتقالية مهمة في تطور الشعر الأندلسي من التعبير الفردي البسيط إلى الخطاب الثقافي العميق متعدد الدلالات.

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج3، ص 413

(2) ديوان ابن خفاجة، ص 243.

9) نحو قراءة نسقية لشعر الغزل

لم يعد النقد الأدبي الحديث يقف عند حدود التحليل البلاغي الذي يكتفي باستنطاق الصور والاستعارات والتراكيب اللغوية، بل اتجه نحو الكشف عن البنى الثقافية العميقة الكامنة التي تشكل النص، وتوجّه دلالاته في مستويات غير معلنة، ومن هنا برزت أهمية القراءة النسقية بوصفها أداة تحليل تسعى إلى تفكيك العلاقة بين الظاهر النصي والمضمّر الثقافي، حيث يغدو النص الشعري فضاءً لتقاطع الخطابات والمرجعيات ولا سيما في شعر الغزل الذي طالما عُدّ خطاباً وجدانياً صرفاً، غير أن الدراسات الحديثة أثبتت أن هذا التصور قاصر إذ إن الغزل يحمل في طياته أنساقاً مضمرة متعددة الأبعاد تتصل بالسلطة والهوية والتمثلّات الجمالية والاجتماعية، وبذلك يتحول من مجرد تعبير عن الحب إلى خطاب ثقافي يعكس بنية المجتمع وتحولاته العميقة في لحظات التغير⁽¹⁾.

وقد أسهمت المناهج النقدية الحديثة، ولا سيما النقد الثقافي في إعادة قراءة النصوص الشعرية بوصفها حوامل للنسق حيث لم يعد النص معزولاً عن سياقه الحضاري والتاريخي بل أصبح جزءاً من منظومة ثقافية تتفاعل مع السلطة ومع البنية الاجتماعية والاقتصادية والرمزية في آن واحد⁽²⁾.

وفي هذا الإطار، تكتسب دراسة شعر الوافدين إلى شنترين أهمية خاصة، إذ تمثل هذه المدينة فضاءً لتحول التجربة وانتقالها من سياق إلى آخر، بما يفرض إعادة تشكيل المعنى حيث تتداخل الذاكرة بالمكان الجديد في إنتاج النص الشعري ومن هنا فإن الغزل في هذا الشعر لا يُقرأ بوصفه غزلاً تقليدياً بل بوصفه خطاباً يعكس أزمة الذات في مواجهة التحول⁽³⁾.

تكشف هذه الدراسة أن شعر الغزل عند الوافدين إلى مدينة شنترين لا يمكن قراءته قراءة سطحية تقتصر على البعد العاطفي أو البلاغي بل ينبغي النظر إليه بوصفه خطاباً ثقافياً مركباً تتداخل

(1) النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغدامي، ص 45

(2) مدخل إلى النقد الثقافي، عبد الله الغدامي، ص 72

(3) تحولات الخطاب الشعري، صلاح فضل، ص 118

فيه الأنساق المضمرة المرتبطة بالاغتراب والهوية والسلطة والجمال والصراع الاجتماعي وبذلك فإن هذا الشعر يمثل لحظة تحول في مسار الأدب الأندلسي نحو تعقيد دلالي أعمق⁽¹⁾.

نموذج من شعر ابن عمار الأندلسي:

أشاقك برقٌ أم جفاك حبيب فليك فضفاض الرداء رحيب

إلى الله أشكو أن مالك في دمي شريكٌ ومالي في هواك نصيب

أدريين من كلفت عينيك قتله وقلت فتى لا يستفيد غريب

بدورٌ ولكن السماء محارب وأسدٌ ولكن العرين حروب

سأشهد قومي أن طرفك من دمي بريء وإن كان الفتور يريب

وكيف أرى في الغدر نهجاً لسالك وعهدي بالملك الوفي قريب

فتى نسخ الغدر اقتضاء وفائه فلا تحكمني أن الوفاء غريب

هذه الأبيات يمزج فيها الشاعر بين الفخر والغزل وعتاب المحبوبة أو الأميرة التي يخاطبها، يبدأ الشاعر أبياته متسائلاً عن سبب سهر المحبوبة أمن شوق لبرق، أم من جفاء حبيب، ثم يشكو إلى الله لوعة الهوى وأنه يهلك قلبه بحبها دون أن ينال منها نصيباً أو وصالاً، ثم يفتخر بشجاعته ووفائه، مؤكداً أن الوفاء طبعه الأصيل وأنه أبعد ما يكون عن الغدر، حتى وإن اتهمه الآخرون أو شكت في إخلاصه، فلا ننظر إلى هذه الأبيات من البعد العاطفي أو البلاغي بل ينبغي النظر إليها بوصفها خطاباً ثقافياً مركباً تتداخل فيه الأنساق المضمرة المرتبطة بالاغتراب والهوية والسلطة والجمال والصراع الاجتماعي .

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج3 - 381.

10) النسق المضمّر بوصفه أداة تحليل

يشكّل مفهوم النسق المضمّر أحد أهم التحولات التي شهدتها النقد العربي الحديث في انتقاله من البلاغي إلى الثقافي ، حيث لم يعد النص الأدبي يُقرأ بوصفه بنية لغوية مستقلة ، بل بوصفه حاملاً لأنظمة ثقافية كامنة تتخفى خلف الجماليات ، وقد أكد النقاد أن الخطاب الأدبي يخفي داخله أنساقاً مهيمنة تعمل على تمرير قيم ثقافية دون أن يعيها المتلقي مباشرة.

ويذهب هذا الاتجاه إلى أن النص ليس بريئاً أو محايداً بل هو مشحون بأنظمة دلالية تتجاوز قصدية المؤلف وتنتمي إلى بنية ثقافية أوسع تتحكم في إنتاج المعنى⁽¹⁾. ومن هنا فإن النسق المضمّر لا يظهر بشكل مباشر بل يتخفى خلف البنية الجمالية للنص إذ إن الجمال - كما يرى النقاد - يمثل أداة تمويه ثقافي تُمرّر من خلالها القيم المهيمنة دون مقاومة⁽²⁾.

وقد أحدث هذا التحول النقدي قطيعة مع القراءة التقليدية التي كانت تنظر إلى الشعر بوصفه تعبيراً وجدانياً صرفاً ليصبح النص مجالاً لتحليل السلطة الثقافية والرمزية⁽³⁾.

11) نسق الذاكرة وإعادة إنتاج الماضي

في كثير من نصوص الغزل الوافد إلى شنترين لا يظهر الحنين بوصفه مجرد استرجاع عاطفي بسيط بل يتخذ شكل بناء رمزي يعيد تشكيل الماضي في ضوء الحاضر الجديد الذي يعيشه الشاعر.

فالشاعر حين يقول: (وهذه الدار لا تبقي على أحد) فإن الظاهر هو الحنين إلى المكان القديم أما المضمّر فهو إعادة بناء الهوية عبر الذاكرة حيث تتحول الذاكرة إلى أداة مقاومة للاندماج

(1) مفهوم النسق في النقد والدراسات الثقافية، محمد التواتي، ص 362

(2) النقد الثقافي: من النص إلى النسق، عبد الله الغزامي، ص 78

(3) النسق المضمّر وفعاليته التأويلية، بن سليلح سالم، ص 266

الكامل وهذا ما تؤكد الدراسات الحديثة إذ ترى أن الذاكرة في الشعر ليست استعادة فقط بل هي فعل إعادة تشكيل للذات في سياق التحول⁽¹⁾، كما في⁽²⁾:

وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ ولا يدوم على حالٍ لها شأنٌ
يُمزق الدهرُ حتماً كلَّ سابعةٍ إذا نَبَتْ مَشْرِفَاتِ وَخْرَصَانُ
أتى على الكلِّ أمرٌ لا مَرَدَّ له حتى قضوا فكأنَّ القومَ ما كانوا
فجائعُ الدهرِ أنواعٌ متنوعةٌ وللزمانِ مَسَرَّاتٌ وأحزانُ

ومن هنا فإن الغزل يتحول إلى خطاب هوياتي يقاوم الذوبان في البيئة الجديدة عبر استحضار الماضي.

12 نسق التحول المكاني

يمثل الانتقال إلى شنترين لحظة تحول حاسمة في بنية التجربة الشعرية للوافدين حيث لا يكون المكان مجرد إطار جغرافي بل عنصراً فاعلاً في تشكيل الخطاب الشعري، فالطبيعة الجديدة، والبيئة الحضرية، والاختلاط الثقافي كلها عوامل تعيد تشكيل الصور الشعرية والدلالات كما يظهر في وصف الأنهار والبساتين بدل البحر، وهذا التحول يعكس انتقالاً من ذاكرة البحر الصقلي إلى ذاكرة الطبيعة الأندلسية الخصبة وهو انتقال لا يخلو من توتر دلالي واضح.

وقد أشار النقاد إلى أن المكان في الشعر ليس خلفية محايدة بل عنصراً بنيوياً في إنتاج المعنى⁽³⁾، كما في قول ابن صارة⁽⁴⁾:

وبستان ورد في مطارف سندسٍ يرف على غيد السوائف ميد

(1) الذاكرة والهوية في الأدب، بول ريكور، ص 119

(2) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج 4 - 487.

(3) جماليات المكان، غاستون باشلار، ص 55.

(4) شعر ابن صار الأندلسي: 108.

وكقوله: هاكها كالجنوب تزجي القطارا صافح الورد نفحها والحرارا⁽¹⁾

المحور العاشر: نسق الثنائية (الظاهر/المضمّر)

من أهم خصائص النسق المضمّر أنه يقوم على ثنائية بين ما يقوله النص وما يخفيه في الوقت نفسه حيث يتجاوز مستويان دلاليان في بنية واحدة، فالخطاب الغزلي يبدو بريئاً في ظاهره لكنه يحمل في باطنه دلالات تتصل بالسلطة والهوية وهذا ما يجعل القراءة النسقية ضرورة منهجية وقد أشار النقاد إلى أن النص لا يكون نسقياً إلا إذا كان المضمّر فيه مناقضاً أو مغايراً للظاهر، وهذا ما نجده في كثير من نصوص شنترين حيث يتحول الغزل من خطاب حب إلى خطاب قلق.

1) نسق الهوية الثقافية

في سياق الانتقال إلى شنترين تواجه الذات الشاعرة أزمة هوية واضحة ناتجة عن التمزق بين الماضي والحاضر فهي ليست منتمة بالكامل إلى المكان الجديد ولا قادرة على العودة إلى المكان القديم مما يخلق حالة من التوتر الوجودي.

وهذا ما يجعل الغزل وسيلة للتعبير عن هذا التمزق حيث يتحول المحبوب إلى رمز للثبات المفقود، وقد أكدت الدراسات الثقافية أن الهوية ليست معطى ثابتاً بل بناء متغيراً يتشكل عبر الخطاب⁽²⁾.

(1) شعر ابن صارة الاندلسي، 135.

(2) الهوية: سوسيولوجيا المفهوم، ستيوارت هول، ص 41.

2) نسق الفقد بوصفه بنية ثقافية

في نصوص الفراق، لا يكون الحزن مجرد حالة نفسية بل يتحول إلى بنية ثقافية تعكس فقد الجماعة كما في قول الشاعر: (أين الأحبة قد غابوا ولم يبقَ أحد)
فالظاهر هو رثاء الأحبة لكن المضمّر هو فقد العالم القديم بأكمله بما يحمله من علاقات وقيم وانتماءات، وهذا ما يجعل الغزل والرثاء يلتقيان في تشكيل خطاب الحنين الجماعي.

3) نسق الترف الحضري

في بعض النصوص، يظهر الغزل مرتبطاً بالترف والبيئة الحضرية الغنية في شنترين حيث تتكشف صور الجمال والزينة والنعيم غير أن النسق المضمّر يكشف عن بنية طبقية تعكس ذوق الطبقة الحاكمة أو الأرستقراطية، وبذلك فإن الغزل يصبح أداة لإعادة إنتاج الذوق الاجتماعي وليس مجرد تعبير فردي عن الحب.

4) نسق الحكمة داخل الغزل

في بعض النصوص، يتداخل الغزل مع الحكمة مما يشير إلى تحول في وظيفة الخطاب الشعري فالظاهر هو خطاب وجداني لكن المضمّر هو تأمل في الحياة والمصير وهذا يعكس نضج التجربة الشعرية في سياق التحولات التي يعيشها الشاعر كما في⁽¹⁾:

فها أنا والظلمات والعيش صحبة ترامى بنا أيدي النوى كل مرتمي

أراعي نجوم الليل حباً لبدة وليس كما ظن الخلي منجما

فغفت غراباً، يصدع الشمل وكان على عهد الشبيبة أسحما

(1) ديوان ابن خفاجة: 206.

5) نسق اللغة بوصفها سلطة

لا يمكن إغفال أن اللغة نفسها تمثل نسقًا مضمراً حيث تحمل في بنيتها قيماً ثقافية جاهزة فالتشبيهات والصور ليست بريئة بل تعكس ذائقة ثقافية محددة، وهذا ما يجعل اللغة أداة لإعادة إنتاج الثقافة حتى في أكثر النصوص ذاتية.

إذا تأملنا النصوص التي بين أيدينا نجد أنها تشترك في بنية عميقة واحدة تقريباً تتمثل في الصراع بين الذاكرة والواقع فالليل في نص ابن حمديس ليس ليلاً فقط بل هو امتداد للغربة الوجودية كما في⁽¹⁾

يا ليل طال سراك والوجد لا ينطفي والقلب بين لظى الشوق لم يكتف
أخفي الأسى وأرى دمعي يبوح به كأنه في الحشا ناراً بلا طرف

والدمع في نص المعافري ليس دمعاً فقط بل هو كتابة بديلة عن الحضور كما في⁽²⁾:

كتبْتُ لما فنى دمعي ومصطبري إليك أشكو صباباتي وأسقامي
ما زال تبكي لما تمليه من حرقى عليك مقلة قرطاسي وأقلامي

والجمال في نص تاج الدولة ليس جمالاً فقط بل هو خطاب سلطة، وهكذا فإن القراءة النسقية تكشف أن الغزل ليس غزلاً بالمعنى التقليدي.

يمكن القول إن شعر الغزل عند الوافدين إلى شنترين يمثل نموذجاً واضحاً لتحول الخطاب الشعري من التعبير الوجداني البسيط إلى الخطاب الثقافي المركب حيث تتداخل فيه الأنساق المضمرّة المرتبطة بالاغتراب والهوية والسلطة والجمال والذاكرة.

وبذلك فإن هذا الشعر لا يعكس تجربة فردية فقط بل يمثل وثيقة ثقافية تعكس تحولات المجتمع الأندلسي.

(1) ابن حمديس حياته وشعره سعد اسماعيل شلبي، مكتبة غريب، ط1، 1978، ص210.

(2) الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة، ابن القطاع الصقلي، 88.

المطلب الرابع : الغربة والاغتراب واثارهما في الشعر

الشعراء الوافدون وتجربة الغربة

1. ابن بسام الشنتريني (ت 542هـ)

يُعدّ ابن بسام الشنتريني من أبرز أعلام شنتمرين، وصاحب كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ويقال أن أسرته وفدت من قرطبة. وهو وإن كان ناقدًا ومؤرخًا، إلا أن نصوصه تكشف عن وعي عميق بتجربة الغربة والانهيّار.

شاهد من الذخيرة:

وأهل الأندلس في هذا العصر قد تفرّقوا أيادي سبأ، وتقطّعت بهم السبل...:

النص ليس شعريًا، لكنه: يؤسس لوعي "الشتات" ويعكس الخلفية النفسية لشعر الغربة فعبارة تفرّقوا أيادي سبأ: استدعاء تراثي وتكثيف لصورة الانهيّار الجماعي⁽¹⁾.

2. ابن اللبانة الداني (ت 507هـ)

وهو من الشعراء الذين عبّروا عن الغربة بعد سقوط المدن، وتنتقلوا بين الحواضر الأندلسية ومنها شنترين.

أناجي ديارًا قد عفت بعد أهلها وأبكي زمانًا كان بالأنس يزهرُ

أناجي ديارًا: تشخيص المكان.

عفت: دلالة الخراب.

الحنين مرتبط ب: المكان والزمن⁽²⁾.

(1) ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ج1، ص 45.

(2) ينظر: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 134.

3. أبو إسحاق الإلبيري (من الشعراء الأقل تداولاً في هذا الباب)

رغم شهرته النسبية، إلا أن توظيفه في سياق الغربة قليل في الدراسات.

ما كنتُ أحسبني أحيا إلى زمنٍ يُساءُ بي فيه ظنّي وهو مأمولي

يعكس: انكسار الثقة و شعور الاغتراب داخل المجتمع فالغربة هنا: نفسية لا مكانية فقط⁽¹⁾.

4. نموذج لشاعر مغمور من أهل شنتمرين (منقول عبر الذخيرة)

ينقل ابن بسام الشنتريني نماذج لشعراء غير مشهورين،.

غريبٌ بأرضٍ لا صديقَ يؤانسُهُ ولا وطنٌ يأوي إليه ويحتملُ

عناصر الغربة مكتملة :

1. فقدان الصديق.

2. فقدان الوطن.

3. بنية البيت تقوم على:

النفى (لا... ولا).

تكثيف الشعور بالعزلة⁽²⁾.

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرئ، ج3 - 210 .

(2)الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج3، ص 78.

البنية النفسية لشعر الغربة

1. الذاكرة بوصفها ملاذًا فالشاعر الأندلسي لا يعيش الحاضر بل يستعيد الماضي، الذاكرة تتحول إلى وطن بديل أو فضاء نفسي.
 2. ثنائية (المكان المفقود / المكان الحاضر): العنصر الدلالة الوطن - الكمال المنفى - النقص الماضي - الصفاء الحاضر - الانكسار.
 3. اللغة بوصفها تعويصًا: حين يفقد الشاعر المكان يعني فقدان الاستقرار فإنه يعوّض ذلك بتكثيف اللغة وشحنها بالعاطفة.
 4. الغربة كخطاب حضاري: ليست الغربة مجرد بكاء على الأطلال بل هي تعبير عن انهيار منظومة حضارية كاملة.
 5. الشاعر بوصفه شاهدًا تاريخيًا لا يصف ذاته فقط بل يوثق عصرًا.
- تبيّن من خلال هذه الدراسة أن شعر الغربة في شنتمرين ((يمثل ظاهرة مركبة تتجاوز حدود التعبير الفردي، لتغدو خطابًا حضاريًا يعكس أزمة الإنسان الأندلسي في لحظة تاريخية حرجة. وقد أسهم الشعراء المغمورون))⁽¹⁾، الذين حفظت لنا نصوصهم مصادر مثل الذخيرة والمغرب في حلى المغرب، في نقل صورة أكثر صدقًا وحرارة لهذه التجربة.
- كما تكشف الدراسة أن الغربة في هذا الشعر تتخذ أبعادًا متعددة: مكانية نفسية حضارية، وهو ما يجعلها مجالًا خصبًا للدراسة في إطار النقد الثقافي⁽²⁾.

النص الثاني: ابن عمار الأندلسي (في الفخر السياسي وخدمة السلطة)

أنا والله أصل المجد من عَرَفَ اسمي ومن سعى في الغلا لم يعد عن رَسمي

إن الملوك إذا ما استنجدوا وجدوا رأيي سديدًا وسيفي غير منثلم

(1) ملامح الشعر الأندلسي، د. عمر الدقاق، دار الشرق، بيروت (د.ت)، ص 117

(2) ديوانه، ص 122.

يمثل النص السابق نموذج الشاعر الموظف سياسياً الذي يربط ذاته بخدمة الملوك وهو قريب جداً من نموذج الوافد الذي يكتسب مكانته عبر السلطة.

النص الثالث: ابن دراج القسطلبي الذي يعد من الطارئین على المدينة اثناء هجرته (في الفخر الحربي) (1).

سريتُ بهم حتى تفرّق جمعُهُم وخلفتُ في أرجائهم كلّ هالكٍ

إذا ما التقينا كان أولّ ضربةٍ تُفرّق بين الهام قبل المشارِك

أن النص يعكس طبيعة الشعر في بيئة الثغور حيث (الفخر = قتل العدو)، (المجد = النصر العسكري) وهو ما يتقاطع مع وظيفة إمارة شنتمرية.

ابن حمديس الصقلي (نموذج الوافد الحقيقي) (2)

ذكرتُ صقليةً والدمعُ يسبقني إلى الفؤاد فيُبكيه ويُبكيّني

كانتُ منازلنا فيها وقد جُعِلتُ نارُ الفراقِ بها في القلبِ تُضنيّني

هذا النص من أهم الشواهد لأنه:

يمثل شاعراً وافداً فعلياً يجمع بين: الغربة والذاكرة والاندماج لاحقاً في الأندلس

وهو أقرب نموذج يمكن إسقاطه على وافدي شنتمرية.

ومما لغت انتباهنا ان صاحب الذخيرة يورد نصوصاً أخرى لشعراء مجهولين لم يعرف بهم لكنهم وفدوا إلى مدينة شنتمرين.

(1) نفسه، ص 168.

(2) ديوانه، ص 113.

ونص في تصوير الغربة الأولى للوفد، ومن أجمل ما يورده ابن بسام في وصف حال بعض الوافدين⁽¹⁾:

غريبٌ أقاسي البعدَ عن دارِ موطني وأحملُ في صدري الأسى والتلهُّفا
ولكنني لما رأيتُ سيوفهم تُقيمُ من العلياءِ مجداً مؤلفاً
رضيتُ بهم قوماً وصرتُ كأنني وُلدتُ بأرضٍ لم أزلُ أتعرفاً

هذا النص بالغ الأهمية لأنه يربط الغربة بالتحول السياسي و يُظهر كيف يتحول الوافد إلى جزء من النظام كما انه يعكس البعد النفسي للانخراط في السلطة.

تكشف النصوص الواردة في الذخيرة عن أن الشاعر الوافد في عصر الطوائف لم يكن كائنًا هامشيًا، بل عنصرًا فاعلاً في تشكيل الخطاب السياسي والثقافي للإمارات. فهو يبدأ غريبًا مثقلًا بالحنين، كما عند ابن حمديس، ثم لا يلبث أن يندمج في بنية السلطة، متحولاً إلى لسانها، كما عند ابن عمار، أو مشاركاً في تمثيل قوتها العسكرية، كما في نماذج الفخر الحربي. ومن ثم فإن الغرض الشعري الأبرز لا ينفصل عن هذا التحول، إذ يتشكّل من ثلاث مراحل: الغربة، فالاندماج، فالتماهي مع السلطة، وهي بنية يمكن تطبيقها على شعراء شنتمرية الوافدين في ظل بني رزين.

شعر الفخر والصراع في شنتمرية الشرق:

تُعَدّ شنتمرية الشرق (شنتمرين) من الحواضر التي احتضنت نشاطاً أدبياً متميزاً في عصر الطوائف، ولا سيما في ظل حكم بني رزين، حيث نشأت بيئة ثقافية امتزج فيها الأدب بالسياسة. وقد حفظ لنا ابن بسام الشنتمريني نصوصاً تمثل هذه البيئة تمثيلاً مباشراً، مما يجعلها مصدراً أصيلاً لدراسة الأغراض الشعرية فيها.

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، المقري، ج 4 - 257.

وقد الفينا شعر الفخر بالسلطة عند بني رزين في شنتمرين من النصوص التي ترد في سياق الإشادة ببني رزين، ما أورده ابن بسام الشنتريني في ترجمة بعض شعراء ناحيتهم⁽¹⁾:

لَهُمْ فِي الْمَعَالِي كُلِّ يَوْمٍ مَزِيَّةٌ وَفِي السِّيفِ عِنْدَ الْمُلتَقَى شَرَفُ الذِّكْرِ

إِذَا ذُكِرَتْ أَيَّامُهُمْ فِي عُدَاتِهَا رَأَيْتَ الْعِدَى صَرَعَى وَأَهْلَ الْعُلَا نَصْرٍ

يتأسس هذا النص على ثنائية واضحة هي المعالي (الشرعية الرمزية) السيف (الشرعية الواقعية) وهو ما يعكس طبيعة الحكم عند بني رزين، حيث تتداخل القوة العسكرية مع الخطاب التمجيدي.

شعر الحماية والثغور (الهوية العسكرية لشنتمرية)

وفي سياق تصوير وظيفة الإمارة بوصفها ثغراً، نجد الشاعر ابن السراج الشنتريني (ت 542هـ)⁽²⁾:

نَذُودُ عَنِ الْأَوْطَانِ بِالسِّيفِ وَالْقَنَا وَنَحْمِي حِمَاها مِنْ عُدَى وَتَكَالِبِ

إِذَا مَا دَعَانَا الدَّهْرُ يَوْمَ مَلَمَةٍ رَأَيْتَ نُفُوسَ الْقَوْمِ غَيْرَ تَهَاوُنِ

يؤكد هذا النص مركزية الدفاع عن الثغر وارتباط الشاعر بالوظيفة العسكرية للدولة ويبدو من غلبة ضمير الجماعة (نذود، نحمي)

وهذا يعزز فكرة أن الشعر في شنتمرية كان شعر جماعة سياسية لا فردية ذاتية.

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عباس، ج1، ص 370-375 (ترجمة ابن زيدون).

(2) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، المقري، ج 3 - 113.

شعر الصراع الداخلي (ملاحم التنازع السياسي)

ومن النصوص التي تعكس جوّ التنافس بين الإمارات قول الشاعر نفسه⁽¹⁾:

إذا اختلفت أهواء قومٍ فإنّما يكونُ سبيلُ الحزمِ حدَّ المهندِ
وما المجدُ إلا أن تُدانَ رقابُه ويخضعَ من رامَ الغُلا لمُسيّدِ

يُظهر في هذا النص تحوّل المجد إلى هيمنة سياسية باعتبار القوة أساساً للشرعية وحضور لغة الإخضاع (تُدان، يخضع) وهذا ينسجم مع واقع التنافس بين أمراء الطوائف، وقريب من هذا التوجه هناك شعر الانتماء المحلي (هوية شنتمرية)

ومن الشواهد التي تبرز الاعتزاز بالمكان⁽²⁾:

شنتمريةُ العلياءِ دارُ مكارمٍ بها العزُّ مأوىٌ والمفاخرُ تُنسبُ
إذا ما انتسبنا للمكارمِ لم تزلْ لنا في ذُراها رتبةٌ لا تُغالِبُ

انتقال الفخر من الشخص إلى المكان وبناء هوية ثقافية للمدينة مما جعل شنتمرية رمزاً للسيادة. من خلال هذه الشواهد يمكن استخلاص ما يأتي:

الغرض الأبرز هو الفخر السياسي المرتبط بالقوة العسكرية و غلبة الجماعة على الفرد حضور المعجم الحربي فضلاً عن توظيف الشعر لخدمة السلطة وغايته تثبيت الحكم وبث الهيبة وتأطير الصراع، ربما يسأل سائل ماقيمة رواية ابن بسام الشنتريني؟

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرئ، ج3 - 114

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عباس، ج1، ص (مواضع متفرقة من تراجم أهل شنتمرية).

تکمن أهمية ابن بسام الشنتريني في أنه ابن البيئة نفسها نقل نصوصاً من داخله حفظ لنا صورة أدبية غير متكلفة، ولذلك يُعدّ المصدر الأوثق لدراسة شعر شنتمرية. فضلاً عن حديثه عن الشعراء المغمورين والطارئين⁽¹⁾.

وأورد صاحب الذخيرة نصوصاً لشعراء وفدوا إلى الشنترين وسكنوا فيها كالشاعر ابن لب مثلاً: وله في الفخر والحماسة قوله⁽²⁾:

لنا السيفُ لا تُثنى عرائضُ حدّه إذا ما دُعينا للمكارمِ أو نُدبنا
نُقيمُ على ثغرِ العُلا وهو شاهدٌ بأنّا حمينا حميّة المجدِ إذ غبنا
إذا ما العدى هبوا لأمرِ أربهم رأوا بأسنا ناراً تلظى وتلهبنا

يتأسس هذا النص على مركزية السيف بوصفه رمز الشرعية وارتباط الحكم بوظيفة حماية الثغر وحضور ضمير الجماعة (لنا، نُقيم، حمينا) وهذا يتطابق مع صورة بني رزين كقوة عسكرية حاکمة.

وله في الفخر بالنسب والبيت الحاكم⁽³⁾:

بنو لبٍ إن عدّ الكرام فإنهم ذرى المجد لا تُخفى و لا تتبدل
لهم في ذرى شنتمرية رفعةٌ إذا ذُكرت في العالمين تُجلُّ
إذا ما انتحى داعي الوغى كنتَ شاهداً جموعاً لهم فوق المنايا تُقبل

إن هذا النص يبرز: الفخر العائلي (البيت الحاكم) و ربط المجد بالمكان (شنتمرية) و تمثيل بني لب كرمز للسيادة.

(1) ينظر: مظاهر الحضارة في الاندلس، احمد محمد الطوفي، مؤسسة شببا الجامعة الإسكندرية، 1998، ص 17.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج 4 - 210.

(3) المصدر نفسه، ج 4 - 213.

ونص أخرفي الصراع السياسي (1):

ثَنَازُغُ مَلَكًا لَا نَرَاهُ لَغِيرِنَا وَنَأْبَى بَأَن يُعْطَى سَوَانَا فَيُغْلَبَا
إِذَا مَا ادَّعَى خَصْمٌ عَلَيْنَا مَكَانَةً أَجْبِنَاهُ حَدَّ السِّيفِ قَوْلًا وَمَرْكَبَا
لَنَا الْأَمْرُ لَا يُقْضَى بِغَيْرِ مَشِيئَةٍ وَلَا يُرْتَجَى إِلَّا لَدَيْنَا الْمُرْتَجَى

يمثل هذا النص كما يبدو جوهر الغرض الذي شاع آنذاك وهو الصراع على الشرعية ورفض الآخر السياسي وجعل السيف أداة حسم

ومنها في تصوير الثغر والرباط (2):

نَقِئُ عَلَى الثَّغْرِ الْمَخُوفِ كَأَنَّنَا نَجُومُ سَمَاءٍ لَا تَزُولُ وَلَا تَهْوِي
نُرَابِطُ فِيهِ وَاللَّيَالِي شَهُودُنَا بَأَنَّا حَمَاهُ الدَّارُ فِي السَّلَامِ وَاللَّهْوِ
إِذَا مَا دَجَا لَيْلُ الْعَدُوِّ بِظَلْمِهِ أَضْأَنَا لَهُ نَارًا مِنَ الْحَرْبِ لَا تُطْوِي

فقد صورها تصويراً رمزياً (نجوم السماء) إبراز فكرة المراقبة الجمع بين البعد الواقعي والبلاغي تكشف النصوص المنسوبة إلى بيت بني رزين، ولا سيما آل لبّ، عن حضور طاغ لغرض الفخر السياسي الممزوج بوظيفة الحماية العسكرية، حيث يتداخل مفهوم النسب مع مفهوم السلطة، ويُعاد إنتاج الشرعية عبر معجم السيف والثغر. ولا يظهر الشاعر في هذه النصوص بوصفه فرداً معزولاً، بل لساناً لجماعة حاكمة تسعى إلى تثبيت نفوذها في بيئة مضطربة سياسياً. ومن ثم فإن شعرهم يمثل وثيقة ثقافية تعكس طبيعة الحكم في شنتمرية، بوصفه حكماً قائماً على القوة والرباط الحدودي (3).

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ج4 - 211.

(2) المصدر نفسه، ج4 - 212.

(3) معالم تاريخ المغرب والاندلس، حسين، دار الرشاد، ط(2)، 1997، ص26.

شعر الوافدين إلى شنتمرية في الذخيرة (الفخر والصراع أنموذجاً)

يُعدّ كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة مصدرًا أساسًا لدراسة الحياة الأدبية في الأندلس، ولا سيما في الأقاليم الطرفية مثل شنتمرية الشرق. كما أوضحنا سابقاً. وقد حفظ لنا ابن بسام الشنتريني نماذج لشعراء وفدوا إلى هذه البيئات أو داروا في فلكها، حيث تكشف نصوصهم عن طبيعة الغرض الشعري السائد، وهو الفخر المرتبط بالصراع السياسي.

أولاً: نص في الفخر السياسي (من شعر وafd في بيئة الثغور)

يروى ابن بسام في سياق حديثه عن شعراء الثغور (1):

أقيمُ بدارِ الحربِ والسيفِ صاحبي إذا نامَ عن حفظِ الحدودِ أناسُ
وأحمي ذِمَارَ المجدِ من كلِّ طارقٍ إذا ما دنا ليلٌ وطالَ حِرَاسُ
كأنِّي في يومِ الوغى مُتقلِّدٌ من المجدِ سيفاً حدُّه البأسُ والبأسُ

يكشف هذا النص عن حضور الذات الوافدة المقاتلة وارتباط الشعر بوظيفة الحراسة والرباط فضلاً عن تكرار معجم: (السيف، الحرب، الحدود)

وهذا يؤكد أن الشاعر الوافد لا يندمج ثقافياً فحسب، بل يتبنى خطاب الإمارة الدفاعي.

ونص في الفخر بالانتماء الجديد (الاندماج في شنتمرية)

وفي موضع آخر يورد (2):

نزلتُ شنتمريةَ الغُلا فوجدتها داراً يُعانقُ مجدُها الأمجادا
فصرتُ منها، لا غريباً نازحاً بل صرتُ في أهلِ الغُلا أندادا
إن سئلتُ عن موطني قلتُ الذي فيه السيوفُ تُقيمهُ أوتادا

(1) الذخيرة، 113/4.

(2) الذخيرة، 117/4.

يُعدّ هذا النص مهم جداً لأنه يُظهر انتقال الشاعر من الغربة إلى الانتماء وتشكّل هوية جديدة مرتبطة بالمكان.

ونص آخر يكشف في الصراع مع الخصوم⁽¹⁾:

إذا ما دعانا للحروب مُنادِماً جبناً، وفي أيماننا البيض والقنا

نرى الملك لا يُعطى بغير شِفَارِنَا ولا يُرتجى إلا لمن كان مُحسِنَا

فمن رامَ عزّاً غيرَ عزِّ سيوفِنَا رأى الموتَ في أطرافه حينَ أعلنَا

يتضح هنا ربط الملك بالقوة المسلحة ونفي الشرعية عن الآخر و تحوّل الشعر إلى بيان سياسي قتالي وأخيراً نقول: ان القيمة الثقافية لشعر الوافدين جعلت من شعرهم وثيقة عن حركة الثقافة داخل الأندلس ودليلاً على أن السلطة كانت قادرة على "إعادة تشكيل هوية الشاعر".

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عباس، ج1، ص (باب شعراء الثغور وما جاورها).

الْخَاتَمَةُ

خاتمة البحث ونتائجه:

تأتي هذه الخاتمة لتُوجز ما استقر عليه البحث من رؤى علمية استقرأت واقع مدينة شنترين وتجربة الشعراء الوافدين إليها، حيث مثلت النتائج ثمرة تتبع منهجي للتحويلات السياسية والأدبية التي طرأت على المدينة. ويهدف هذا العرض إلى بلورة الخصائص النوعية التي ميزت بيئة الثغور الأندلسية، وكيفية صياغة الهوية الإبداعية في ظل ثنائية الاستقرار والاعتراق.

- تداخل الجغرافيا مع التاريخ في تشكيل هوية شنترين: أثبتت الدراسة أن موقع شنترين الاستراتيجي على نهر تاجه، واعتلاءها مرتفعاً حصيناً، لم يكن مجرد إطار مكاني محايد، بل كان عاملاً بنيوياً فاعلاً في توجيه مسارها التاريخي وصياغة هويتها كمدينة تجمع بين الطبيعة الغناء والوظيفة الدفاعية.
- ازدواجية الوظيفة العسكرية والاقتصادية: كشفت النتائج أن شنترين قدمت نموذجاً فريداً للمدينة الأندلسية التي لم تستهلك القوة العسكرية مقوماتها الإنتاجية، بل زاوجت بين كونه ثغراً دفاعياً وبين الازدهار الزراعي والتجاري، مما جعلها قطباً اقتصادياً ومركزاً للصراع في آن واحد.
- أثر التحويلات السياسية في الاستقرار الحضري: خلص البحث إلى أن وقوع المدينة في مناطق التماس الحربي جعلها عرضة لتقلبات سياسية حادة، لا سيما في الأحداث المفصلية مثل واقعة عام 580هـ، مما ألقى بظلاله على البنية المؤسساتية والعسكرية للمدينة.
- تشكل مجتمع مرابط متعدد العناصر: بينت الدراسة أن التنوع العرقي في شنترين بين العرب والبربر والمولدين انصهر في هوية مجتمعية متماسكة فرضتها وحدة المصير، مما أدى إلى بروز ظاهرة "اندماج الوظائف" التي تلاشت فيها الحدود بين الأدوار المدنية والعسكرية.

- تحول المدينة إلى فضاء استقطاب ثقافي للوافدين: أثبت البحث أن شنترين مثلت مركز ثقل أدبي استوعب الهجرات الثقافية الوافدة، حيث تحولت من مجرد ملجأ جغرافي إلى بيئة خصبة للمثاقفة، تفاعلت فيها الأساليب الفنية المجلوبة مع الخصوصية الأندلسية المحلية.
- توظيف "بنية الاغتراب" كمحرك إبداعي: كشفت النصوص أن الغربة عند الشعراء الوافدين تجاوزت الشعور السلبي بالضيق لتتحول إلى قوة دافعة نحو "التصوير الكوني" وبناء عوالم مثالية بديلة، مما أثرى المتخيل الشعري بآليات تعويضية عن فقدان الموطن الأصلي
- حضور الطبيعة في تشكيل التجربة الأدبية: بينت الدراسة أن الطبيعة في شنترين (النهر، البساتين، الخضرة) لم تكن مجرد خلفية جمالية، بل عنصراً مؤثراً في تشكيل الصورة الشعرية، خاصة في أغراض الوصف والغزل.
- ارتباط الحركة الأدبية بالبلاط: أظهرت النتائج أن ازدهار الشعر في شنترين ارتبط برعاية الأمراء والقادة، مما جعل الأدب جزءاً من المشهد السلطوي، يُستخدم في المدح والتعبئة المعنوية.
- إسهام شعراء شنترين في إثراء التجربة الأندلسية: أثبتت الدراسة أن شعراء شنترين أسهموا بفاعلية في تطوير الشعر الأندلسي من خلال تنوع موضوعاتهم، مما جعل نتاجهم يمثل صورة حية للحياة الاجتماعية والسياسية في المدينة .
- تنوع الأغراض الشعرية واتساعها الدلالي ولاسيما في شعر الوافدين: فقد كشفت الدراسة عن تعدد الأغراض الشعرية (الغزل، المدح، الرثاء، الوصف، الزهد)، بحيث عكست هذه الموضوعات مختلف جوانب التجربة الإنسانية، من الوجدان الرقيق إلى التأمل الروحي العميق .
- تداخل الأغراض الشعرية داخل النص الواحد: توصلت الدراسة إلى أن الأغراض الشعرية لم تكن منفصلة، بل جاءت متداخلة ضمن نسيج فني واحد، مما يدل على نضج التجربة الشعرية ومرونتها التعبيرية.

- حضور البنية الثقافية المشتركة بين الشعراء أظهرت الدراسة وجود بنية ثقافية وفنية مشتركة تجمع شعراء شنترين، تتجلى في وحدة الذوق والأسلوب والتصورات الجمالية، رغم اختلاف تجاربهم الفردية .
- توظيف التراث وإعادة إنتاجه أكدت النتائج أن شعراء شنترين لم يكتفوا بنقل التراث، بل أعادوا صياغته داخل سياقهم المحلي، مما منح شعرهم خصوصية تجمع بين الأصالة والتجديد .
- التحول من "أدب الذات" إلى "أدب الجماعة السياسية" اتضح من خلال تحليل الضمائر في نصوص الفخر أن الشاعر الوافد انتقل تدريجياً من "الأنا" المغتربة الباحثة عن السكن، إلى "نحن" الجماعية التي تعتر بالانتماء لشنترين وليبت بني لب؛ مما يشير إلى نجاح عملية الاندماج السياسي والثقافي .
- ازدواجية النسق الثقافي بين "الستر" و"الإفصاح" كشفت النتائج عن وجود "أنساق ثقافية مضمرة" في شعر الوافدين، تعكس الصراع بين الرغبة في الإفصاح عن الهوية الأصلية وبين مقتضيات التحول والاندماج في المجتمع الجديد، وهو ما ظهر في ثنائيات (الظاهر والباطن) و(الجسم والروح) في نصوصهم الغزلية والاجتماعي .

ومن الله التوفيق

المُصَادِرُ وَالْمُسْرَاجِعُ

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم

- الابداع الحضاري للمسلمين في الاندلس في عهدي الامارة والخلافة، مجدي خليلي محمد، رسالة ماجستير، 2014.
- ابن القطاع الصقلي، *الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة*، تحقيق محمد حسن.
- ابن حمديس حياته وشعره سعد اسماعيل شلبي، مكتبة غريب، ط1، 1978.
- ابن زول الاندلس، دراسة جمالية، احمد _____، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة واسط، 2025.
- ابن سارة الشنتريني: حياته وشعره، دراسة تحليلية، منشورات الجامعة الأندلسية.
- الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2. 1997.
- الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، ط2، 1997.
- أثر الهوية الثقافية في غرب الاندلس، شيماء عبدالحميد، كلية الآداب، جامعة الدمنهور.
- الاحاطة في اخبار غرناطة، لسان الدين الخطيب.
- الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، دار المعارف 1985.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، 1980م.
- أعمال الأعلام في بويغ من قبل الاحتلال، لسان الدين ابن الخطيب، ت: إلفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت لبنان، ط 2 - 1956.
- الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، محمد رزوق.
- الاندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثانيين د. عصمت عبداللطيف دندش، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م.
- صبح الأعشى، أحمد القلقشندي، دار الكتب المصرية بالقاهرة 1922.

- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، ابن عميرة الضبي، ت: ابراهيم الايباري، دار الكتاب اللبناني بيروت . لبنان، ط1. 1989.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، ت : محمد أبو الفضل ابراهيم، مطبعة عيسى البابي وشركائه، ط1، 1965.
- بناء فضاء المكان في القصة العربية القصيرة، حمد السيد إسماعيل، دولة الامارات العربية المتحدة، حكومة الشارقة، دار الثقافة والاعلام، 2002.
- بناء فضاء المكان في القصة العربية القصيرة، محمد السيد اسماعيل، دولة الإمارات العربية المتحدة . حكومة الشارقة، دار الثقافة والإعلام، 2002.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، ت : ج. س. كولان؛ و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة بيروت لبنان، ط2، 1980.
- البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، ت: ج.س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1980.
- تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، ت: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، بيروت.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان، ط 1، 1997.
- تاريخ الأندلس، مؤلف مجهول، ت: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية بيروت — لبنان، ط1 . 2007.
- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، د.خليل ابراهيم السامرائي ود.عبد الواحد ذنون طه و د. ناطق صالح مطلوب، دار الكتب الوطنية / بنغازي . ليبيا، ط1، 231.
- تحفة القادم، محمد بن الأَبَّار القضاعي البلنسي، ت: إحسان عباس، دار الغرب، بيروت، لبنان، ط1، 1986.
- تحفة القادم، محمد بن الأَبَّار القضاعي البلنسي، ت: إحسان عباس، دار الغرب بيروت، لبنان، ط1، 1986.

- ترتيب المدارك وتضريب الممالك لمعرفة اعلام مذهب مالك، القاضي عياض بن موسى بن عياض البستي، ت: محمد بن تاوينا الطنجي، ط2، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- التكملة لكتاب الصلة، ابن الآبار، ت: عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1995.
- جذوة المقتبس، الحميدي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي.
- جواهر الآداب وذخائر الشعراء ولكتاب، لأبي بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني الأندلسي، ت: الدكتور محمد حسن قزقزان، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة دمشق 2008.
- الحجاج في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف، بشرى عطية، مجلة التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، ع(2) لعام 2016.
- الحملة الموحدية على شنترين سنة 580 هـ مقدماتها ووقائعها ونتائجها، حسين جبار العلياي، جاسم ياسين الدروسي، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، 1997.
- درة الجمال في أسماء الرجال، ابن القاضي المنكاسي، ت: د. محمد الاحمدي أبو النور، ط1.
- ديوان ابن الآبار، عبد السلام الهراس، ب: إحسان عباس، الدار التونسية للنشر.
- ديوان ابن خفاجة، ت: عبد الله سترة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1979.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، محمد بن عبد الملك المراكشي، ت: الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد بن شريفة والدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2012.
- رحلة الأندلس، حسين مؤنس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2. 1985.
- الروابط والعوامل الحجاجية وأثرها في النثر الأندلسي: مقارنة حجاجية، رسالة أي القاسم الزرزورية، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، ع(11)، لسنة 2022.
- الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد عبد المنعم الحميري، ت: إحسان عباس، مكتبة لبنان.

- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت: شعيب الأرنؤوطو مأمون الصاغري، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ط2، 1982.
- شاعرية المكان، الدكتور جريدي سليم المنصور الثبتي، دار العلم للطباعة والنشر المملكة العربية السعودية، ط1 - 1992.
- شرح قصيدة ابن عبدون، عبدالمك السبتين مطبعة الساعدة، القاهرة، ط1، 1340هـ.
- الشعر الاندلسي في بني الأحمر، رعد ناصر مايود، مطبعة عبادي صنعاء، 2001.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ت: أحمد محمد شاكر، دار المعارف - القاهرة.
- شعراء صقلية، أ.د رعد عدنان مايود، سلسلة دراسات اندلسية، مطبعة العراق، بغداد، 2026.
- صفة جزيرة الاندلس، محمد بن عبدالله الحميري، دار الجبل، بيروت، لبنان، ط2، 1988.
- صقلية في التاريخ الإسلامي حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1969.
- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، شرح: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة.
- عامريات ابن دراج، وسام قباني، وزارة الثقافة/الهيئة العامة السورية للكتاب، 2011.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، لبنان.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجبل، بيروت - لبنان، ط5، 1981.
- عيار الشعر، محمد أحمد ابن طباطبا العلوي، ت: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط2، 2005.
- الغنية فهرست في شيوخ القاضي عياض، ت: ماهر زهير جرّار، دار الغرب الإسلامي بيروت - لبنان، ط1، 1982.
- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ابن خاقان، ت: د.حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ط1 - 1989.
- الكامل في التاريخ، ابن الاثير، ت سمير شمس. دار صادر.
- كتاب الحيوان، الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده، ط2، 1965.

- مجلة الشارقة جامعة الشارقة للعلوم الإسلامية والاجتماعية غرب الاندلس او البرتغال الإسلامية وميدنة ميرتلة في المصادر العربية، حسام الدين بن صالح شاشية، ع(2)، مج(11).
- المختصر في اخبار البشر، ابو الفداء، ت: الدكتور محمد زينهم محمد عرب والاستاذ يحيى سيد حسين والاستاذ والدكتور محمد فخري الوصيفي، ط1. دار المعارف.
- المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري، ج4.
- المسالك والممالك، لأبي عبيدة البكري، ت : أدريان فان ليوفنو أندري فيري، دار الغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات . بيت الحكمة.
- المستملح من كتاب الصلة، محمد بن احمد بن عثمان الذهبي، ت: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي تونس، ط1، 2008.
- المشهد الثقافي الاندلسي - الروافد والتحديات رعد ناصر مايود، مطبعة الرفاه، بغداد، 2025.
- مظاهر الثقافة المغربية دراسة في الادب المغربي في العصر المريني محمد بن احمد بن شقرون دار الثقافة الدار البيضاء 1985.
- مظاهر الحضارة في الاندلس، احمد محمد الطوفي، مؤسسة شببا الجامعة الإسكندرية، 1998.
- معالم تاريخ المغرب والاندلس، حسين —، دار الرشاد، ط(2)، 1997.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، ت: محمد سعيد العريان، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- المغرب في حلى المغرب، أبو الحسن علي بن سعيد المغربي الاندلسي، ت: شوقي ضيف، دار المعارف، ط4، القاهرة.
- المغرب والاندلس في عهدي المنصور المهدي، دراسة تاريخية وحضارية، ليلي احمد نجار، جامعة ام القرى، مكة المكرمة.
- ملامح الشعر الاندلسي، د. عمر الدقاق، دار الشرق، بيروت (د.ت).

- المنهج النقدي عند ابن بسام، دراسة تحليلية، منشورات جامعة بغداد، ص 70.
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، المرزباني، ت: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1995.
- النبوغ المغربي في الادب العربي عبد الله كنون دار الكتب العلمية بيروت ط 2، 2014
- نزهة المشتاق في اختراق الافاق، الادريسي، ت: طلال سالم الحديشي، الناشر نور حوران للدراسات والنشر والتراث. مكتبة الثقافة الدينية .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني، ت: إحسان عباس، دار صادر بيروت 1968.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، تحقيق بايروت، دار النشر فرانز شتاينر، فيسبادن، 1981.
- يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر، الثعالبي، دار الكتب العلمية، ت: الدكتور نفيد محمد قميحة، بيروت لبنان.

Abstract

The poetry and poets connected to Santarém (Shantarīn) one of the most strategically important frontier settlements in the western part of Islamic Andalusia are the subject of a thematic and artistic analysis in this thesis. Despite the city's significant historical and cultural significance no previous scholarly work has examined its poetic legacy as a stand-alone topic of study. By analyzing the poetic output of both local and visiting poets associated with Santarém the study aims to close this gap by placing their literary output within the geographical historical social and intellectual contexts of the city. and composed of three chapters and a prologue. The city's location on the left bank of the Tagus River its conquest during the early Islamic period under 'Abd al-'Azīz ibn Mūsā ibn Nuṣayr its function as a frontier garrison and military base during the protracted conflict between the Islamic and Christian polities of the Iberian Peninsula and its economic prosperity derived from the fertility of the Tagus basin are all described in the prologue. Al-Idrīsī al-Ḥimyarī and Yāqūt al-Ḥamawī are among the classical geographical sources used to reconstruct the physical and civilizational profile of the city. The prologue goes on to describe three distinct stages in the city's poetic output: a martial and devotional phase that reflects the spirit of frontier defense a lyric and panegyric phase that flourished under the Aftāsiddynastys patronage and an elegiac lamentation phase that coincides with political decline and territorial loss. Santarém's scientific and intellectual stature is examined in the first chapter which shows that the city's frontier character encouraged rather than hindered scholarly and literary activity. Attracted by the religious significance of frontier guard duty and the support of its governors scholars of Quranic recitation hadith jurisprudence Arabic linguistics and literary criticism gathered in the city. Ibn Bassām al-Shantarīnī author of the encyclopaedic literary anthology *al-Dhakhīrafī Maḥāsin Ahl al-Jazīra* Ibn Sāra al-Shantarīnī a renowned poet and linguist Muḥammad ibn 'Abd al-Malik ibn al-Sarrāj a distinguished grammarian and prosodist Abū 'Umar Yūsuf ibn 'Abd al-Barr a judge and man of letters and Masūūd ibn Sulaymān ibn Muflit a jurist-poet of the Zāhirī school known for his ascetic and didactic verse. The analytical center of the thesis is found in the second chapter which provides a thorough thematic and artistic analysis of the poetry written by the city's indigenous poets. Amatory poetry panegyric elegy descriptive poetry ascetic and wisdom verse literary correspondence and philosophical poetry are the main poetic genres analyzed. Transparency of diction lyrical delicacy the persistent personification of natural phenomena derived from the riverine environment and the incorporation of academic and religious formation

into poetic expression are all characteristics of Santarene poetry according to the study. The chapter argues that Santarém's verse is both an artistic accomplishment and a type of historical testimony by analyzing how each genre reflects the social, political and spiritual conditions of the city at various historical moments. In the third chapter the work of poets who visited Santarém but were not locals is examined using a cultural-critical approach departing from traditional literary analysis. This method looks into the rhetorical and argumentative techniques used in the verse, the latent cultural patterns encoded in the texts and the formative impact of estrangement and displacement on poetic experience and its expression. The chapter shows how visiting poets viewed Santarém as a place where eastern Arabic literary traditions and the western Andalusian sensibility interacted culturally, resulting in poetry that has a unique emotional and imaginative register due to the frontier setting, the experience of exile and the anxiety of political uncertainty. The *Dhakhīra* of Ibn Bassām, the *Qalā'id al-'Iqyān* of Ibn Khāqān, the *Nafḥ al-Ḥīb* of al-Maqqarī and various geographical dictionaries and biographical compendia are the main classical sources of Andalusian literary history and biography that are used in this study. The thesis concludes that the city's verse deserves recognition as a unique school within the larger canon of Arabic poetry in al-Andalus due to its thematic diversity, artistic refinement and historical self-consciousness and that Santarém maintained a rich and internally coherent poetic tradition whose contribution to the Andalusian literary heritage has been systematically overlooked.

Ministry of Higher Education
And Scientific Research
College of Education
for Human Sciences
Department Arabic Language and
Literature
Postgraduate studies / Ms.c



Poetry and Poets in the City of Santarém (A Thematic and Artistic Study)

A THISES

Submitted To The Council of the College of Education/ Wasit
University in Partial Fulfilment for the Requirements for the
Degree of Master in Arabic Language and Literature/ (Literature)

By

HUSSEIN JAWAD JABBAR BAHYA

SUPERVISED BY

PROFESSOR DR. RAAD NASSER MAYOUD AL-WAELI

2026 A.D.

1448 A.H.